ALBERTO GRANADO

ألبرتو غرانادو

السفر مع تشي غيفارا

صناعة ثائر

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

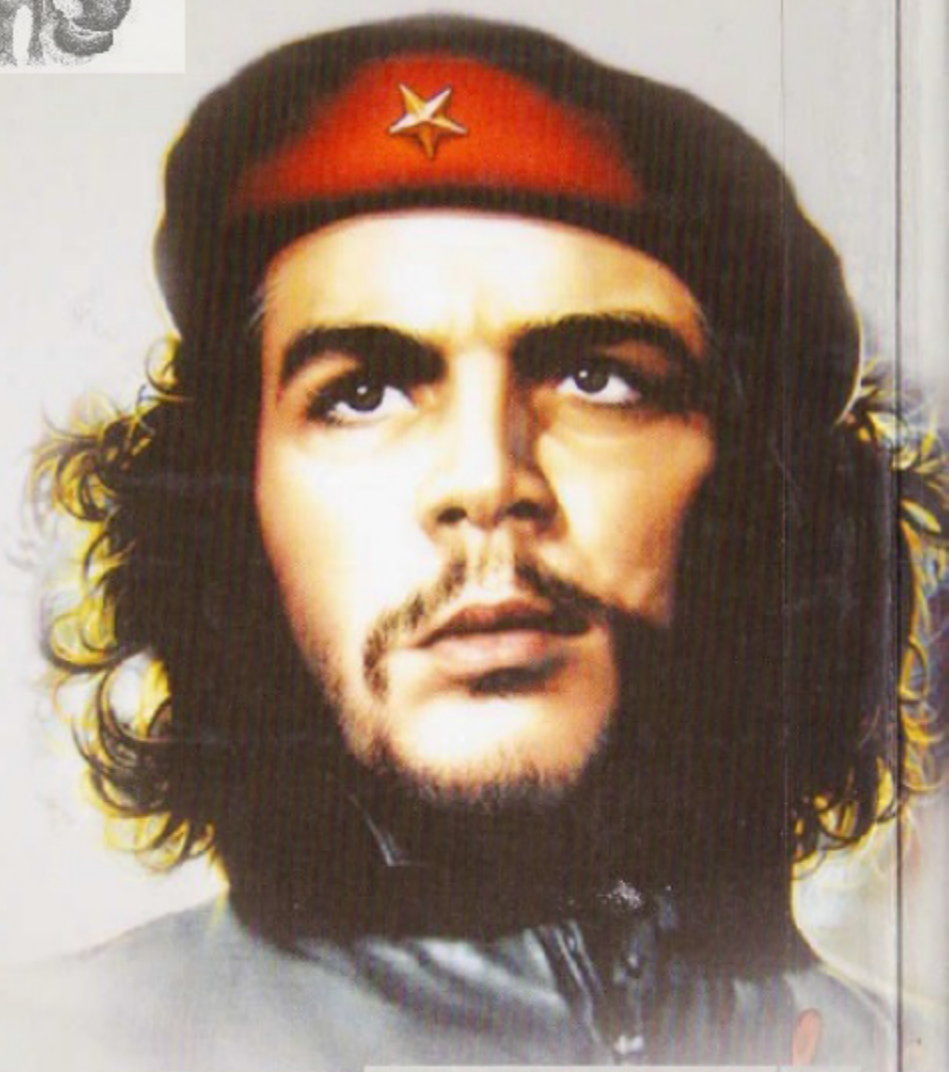

ترجمة: نعمان الحموي

السفر مع تشي غيفارا
صناعة ثائر

السفر مع تشي غيفارا، صناعة ثائر/ رحلة مترجمة
ألبرتو غرانادو/ مؤلف من الأرجنتين، [ترجمها وقدّم لها: نعمان حموي/ سورية]
الطبعة الأولى، 2013
حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب : 44480، الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف 6322079 2 00971
فاكس 6214311 2 00971
e-mail: nouri.aljarah@gmail.com

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،
ص.ب 5460-11،
هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب 9157، هاتف 5605432 6 00962، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
التنفيذ والإشراف الفنّي :
سنتيك سيب®
الخطوط وتنفيذ الغلاف : زهير أبو شايب
الصفّ الضوئي : القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس للطباعة والتجارة / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشرين .

ISBN: 978-614-419-270-2

جائزة ابن بطوطة 2012-2013

البرتو غرانادو

السفر مع تشي غيفارا
صناعة ثائر

ترجمة: نعمان الحموي

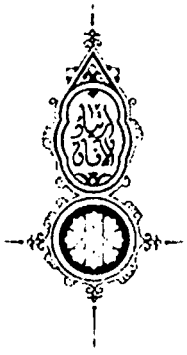

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

"لعل من الصعب أن أحدد بالضبط متى طلعنا بفكرة الرحلة، و لعل الأدب كان اللاعب الأساس في جزء كبير منها. لقد نما الحافز للسفر و اشتدّ إلحاحاً مع قراءة كتب لـ" سيرو آلجيريا" مثل " الأفعى الذهبية" و "الكلاب الجائعة" و " غريب وواسع هذا العالم".".

من نص الرحلة ص 25

"عند الفجر أيقظنا صوت نحيب صاحبة المزرعة. لقد وجدت لتوها كلبها ملقى دون حراك ورصاصة قد زرعت في رأسه. كانت في حالة من الغضب تعذر معها توضيح ما حصل بالضبط. بدأت تقذفنا بوابل من الإهانات لم يقطعه سوى نوبات بكائها وهي تقول: (آه يا كلبي الصغير المسكين). دون أي جلبة أخرى، جمعنا أشياءنا، وعندما لم نستطع تشغيل محرك الدراجة، قفزنا فوقها وانزلقنا نزولا في التلة.".

من نص الرحلة ص 63

"وصلنا إلى (أوسورنو) وبعد التجوال اللامثمر حول ثكنة شرطة الحدود، انتهى بنا الأمر في مشفى خاص تمتلكه شركة تأمين. استقبلنا المدير الذي كان مهذبا، ولطيفا جدا، إلا أن مظهره الخارجي كان طفوليا، وغريبا عن المنطق إلى حد أننا لم نقوعلى كبت ضحكاتنا. حاول أن يقنعنا بأن أي بلد -ولاسيما تشيلي- بحاجة لأن يحكمها دكتاتور!".

من نص الرحلة ص 70

مكتبة عربية لأدب الرحلة، وأدب اليوميات.. من كان يصدق! موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها... تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة، أما وقد تجاوزت أعمال المركز ثلاثمائة كتاب في أدب الرحلة فأي عمل مبهج هذا، وأي خزانة رائعة بات في رصيد ثقافتنا العربية وقد طوى المشروع عقده

الأول، وما تزال أمامه أشواط بعيدة يخوض غمارها بباحثين مبدعين ومحققين علماء وأدباء مبدعين.

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع "ارتياد الآفاق" وتألقوا في مسالكه. أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض، وسفراؤها إلى العالم، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب.

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها.

الرحلة، كما آلت إليه، سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في

أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية

المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

ختاما، أحيي رحالة من طراز آخر، أولئك المثقفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع

الغواصون باللآلئ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأبْزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر.

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام.

محمد أحمد السويدي

أبوظبي- صيف 2012

إشارة

أعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة 2003 وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات، وهو ميدان خطير ومهمل، وقد تأسست الجائزة إيماناً من "المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق" و"دار السويدي" بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات. مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن "الآخر" في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا.

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة، وبينما هي تطل على سنتها العاشرة، تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة، من جهة، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة.

هذا الكتاب

إنها يوميات رحالة من طراز خاص، إنه الطبيب ألبرتو غرانادو رفيق الطبيب تشي غيفارا في رحلتهما على دراجة نارية في مطلع الخمسينات حول أميركا اللاتينية إثر تخرجهما من كلية الطب في بوينس آيرس. لقد سبق لنا أن قرأنا أخبار هذه الرحلة من خلال يوميات تشي غيفارا، والآن نعود إلى الرحلة نفسها ولكن هذه المرة من خلال أوراق ويوميات رفيقه ألبرتو غرانادو الذي يكشف لنا، بلغة بسيطة وبارعة عن الصور الحميمة لصديقه، عن جوانب لا قبل لأحد غير هذا الصديق أن يكشفها. نتعرف في هذه الصفحات على تشي غيفارا الشاب الرومانطيقي الثوري المغامر.

كتاب ممتع يقدم للقارئ العربي، وللمرة الأولى صورة غير معروفة عن الثائر الأممي الشهير. وقد قدم له الكاتب السوري نعمان حموي ترجمة غاية في الدقة صبها في لغة لا تغيب عنها السلاسة. وقد استحق عنها جائزة ابن بطوطة–الرحلة المترجمة.

من بيان لجنة التحكيم

مسار الرحلة

المحطات الرئيسية

الأرجنتين:

قرطبة 29/ كانون الأول 1951.

فيلا جيزيل 6/ كانون الثاني.

ميرامار 13/ كانون الثاني.

نيكوشيا 14/ كانون الثاني.

باهيا بلانكا 16-21/ كانون الثاني.

تشويلي تشول 25/ كانون الثاني.

بيبدرا ديلا جويلا 29/ كانون الثاني.

سان مارتن ديلو آندز 31/ كانون الثاني.

بحيرة ناهويل هاوبي 8/ شباط.

باريلوتشيه 11/ شباط.

تشيلي:

بويلا 14/ شباط.

لوتارور 21/ شباط.

لوس أنجلوس 27/ شباط.

سانتياجو تشيلي 1/ آذار.

فالبارايسو 7/ آذار.

على متن (سان أنطونيو) 8-10/ آذار.

آنتوفاجاستا 11/ آذار.

باكويدانو 12/ آذار.

تشوكو يكاماتا 13-15/ آذار.

أيكويكه 20/ آذار.

أريكا 22/ آذار.

البيرو:

تاكنا 24/ آذار.

كوزكو 31/ آذار.

ماتشوبيكتشو 5/ نيسان.

كوزكو 6-7/ نيسان.

آبانكي 11/ نيسان.

هوانكاراما 13/ نيسان.

هوامبو 14/ نيسان.

هوانكاراما 15 نيسان.

آندا هويالاس 16-19/ نيسان.

آياكوتشو 22/ نيسان.

لاميرسيد 25-26 نيسان.

من أوكساباميا إلى سان رامون 27/ نيسان.

سان زامون 28/ نيسان.

تارما 30/ نيسان.

ليما 1-19/ أيار.

إيل رانشو 19 أيار.

على متن (لاسينيبا) 25/ أيار.

نهر الأمازون 26-31 أيار.

أيكويتوس 1-5 حزيران.

على متن (إيل سيسنه) 6-7 حزيران.

محجر الجذام في سان بابلو 8-20 حزيران.

على متن (مامبو تانجو). في نهر الأمازون 20- 22 حزيران.

كولومبيا:

ليتيشيا 23 حزيران- 1/ تموز.

بالطائرة مع وقوف عابر في (تري إيسكوينا).

بوجوتا 2-10 تموز.

كيوكوتا 12-13 تموز.

فنزويلا:

سان كريستوبال 14/ تموز.

مابين (باركويسيميتو)- و(كورونا) 16 تموز.

كاراكاس 17- 26 تموز.

مقدمة المترجم

عندما بدأت قراءة هذا الكتاب، استعداداً لترجمته، لم أكن أتوقع أن أرى سرداً ليوميات وأحداث بهذا القدر من الجمال الذي كتبها به صاحبها. فـ"ألبرتوجرانادو" ليس مؤلفاً أو روائياً، لكنه، ودون أدنى شك، وصّاف بارع. فقد نقل صورة كل مغامرة عاشها ورفيقَ دربه "أرنستو تشي جيفارا" بأسلوب بالغ الجمال، وبشكل يجعلك تشعر كأنك تعيشها معه، أو كأنك تراها في شريط سينمائي مصوّر.

لقد رسم جرانادو بالكلمات ما يمكن له، وبكل بساطة، أن يكون لوحة فنان عاشق للطبيعة، وبكل ما تفرزه هذه الطبيعة من صور على اختلاف أنواعها، وتلوّن فصولها. وقد جاءت يومياته التي نقل بها إلينا قصة رحلته وكأنها صنيعُ روائيٍّ متمكن؛ فالمشاهد، على اختلاف ملامحها، كانت مترابطة بشكل جعلني أمضي في القراءة عدّة صفحات قبل أن أعود لأتذكر أنني لست قارئاً وحسب، وإنما شخص يتعيّن عليه نقل ما قرأه، وبالأمانة المطلوبة، إلى كل القرّاء.

يتمتع جرانادو بأسلوب تعبيري ذي مستوى أدبي رفيع حتى لَيَخالُ لك أن الكتاب، وحيثما فتحت في مواضع كثيرة منه، إنما هو رواية أدبية، لا يوميات يدونها رحالة، وكان حرياً بالترجمة أن تضاهي بأسلوبها في العربية ذلك المستوى الأدبي الجميل في الكتاب حتى لا تُفقده هذه الميزة التي تعتبر

من أبرز المميزات الهامة التي تنسحب على طول الكتاب من صفحته الأولى حتى آخر نقطة فيه.

فمنذ البداية يطالعك الكاتب بجمل وتراكيب لغوية تنم عن براعة وتمكن من اللغة يضاف إليه حسٌّ أدبي عال. ولعل هذا التمكن يظهر في انتقاء الأسماء التي كان يناوب إطلاقها على رفيقه آرنستو؛ فتارة يسميه " فيوزر "، وأخرى " بيلاو"، ثم يعود ويطلق عليه اسمه الأصلي، "آرنستو" . المهم في الأمر أن تناوب الأسماء لم يأت بشكل اعتباطي وإنما بما يتناسب مع الموقف الذي يتناوله الكاتب في سرده، فإذا ما كان موقف غضب أو استياء من شيء ما، تراه يسميه "فيوزر" (الغاضب)، وإذا كان الموقف حالة من الخطر يسميه بيلاو (ذو البأس)، وأما " آرنستو " فهو الاسم الذي يطلقه جرانادو عليه حينما لا يستدعي الأمر استخدام أي اسم آخر.

وإضافة إلى وصفه المميّز، فقد كان جرانادو ينقل لنا ردّة فعل صديقه على المغامرات التي كانا يعيشانها، مبيّنا لنا ما كان ذلك أشبه بصورة مخفيّة للرجل الذي أصبح البطل الثوري الأول في أمريكا اللاتينية، والذي قال عن نفسه لاحقاً: "ولدت في الأرجنتين وناضلت في كوبا وغدوت ثائراً في جواتيمالا."

ولابد لي من الإشارة هنا إلى أن جرانادو كشف لنا، في الصورة المخفية لصديقه، أن "جيفارا" كان رجلاً يغمره حسّ الدعابة، ويستطيع اختلاق الحيل في المواقف الحرجة أو عند الضرورة، كما أنه يحب الحفلات و الشراب و النساء.

وبالطبع لن يخفى على القارىء أن يكتشف من خلال هذه اليوميات الوعي المبكر والشمولي لدى جيفارا وصديقه لمشكلات وطنهما والقارة، ومايجري في العالم. وميزة هذا الوعي هي تَجذّرُه ورسوخه ورصانته وبعده عن الطفولية والمراهقة السياسية؛ لأنه صادر عن رؤيا إنسانية عميقة وصادقة وجميلة إلى الحياة والبشر.

والرحلة تمثل صورة تاريخية وثائقية هامة عن حال مجتمعات قارة أمريكا الجنوبية في تلك الفترة. صورة كأنما هي شريط حيٌّ أبدعتها ريشة جرانادو، وبرعت في نقلها إلينا. وعلى هذا فإن المتصفّح أو القارىء للرحلة إذا ما فتح الكتاب على أي صفحة، ووجد وصفاً لمدينة أو بلدة أو معبر نهرٍ لجبلٍ أو وادٍ، أو دواخل غابة أو قبيلة بدائية، فإن الصورة تتشكل في ذهنه بوضوحٍ و تلقائيةٍ، وكأنه يراها رؤية العين. وهذه القدرةعلى التصوير، إضافة لتصوير الشخصيات والمواقف النفسية والدرامية، هي ملَكة لا تتوفر إلا للمبدعين من الروائيين وكتاب القصة. أضف إلى كل هذا ذلك الدفق الانساني الجميل الذي يرشح دائماً من التعابير التي تصف الناس والمواقف والمشاعر والتعليقات على المشاهد والحالات البشرية، ما يجعلك تحسّ بتعاطفٍ وتأييدٍ شديدين ودائمين للرحالة، وتجد نفسك كقارىء وقد تكونت بينك وبينهما رابطة مودةٍ و حبٍ كبيرين .

وهنا يتبدّى لنا الفارق المهم بين الرحالة متواضع الثقافة والرحالة المثقف. فالأكيد أنه إذا ارتاد الاثنان مكاناً أو مدينة ما، فليس بمقدور الأول أن ينقل لنا ما ينقله الثاني. يتجلى ذلك واضحاً عندما يصف جرانادو الأعراق المختلفة مبيناً السمات السوسيولوجية العامة لها وكذلك المميزة أيضاً، وعندما يشاهد الآثار والقلاع والمباني من منازل وقصور وكنائس ومعابد، فإنه كذلك يبين لنا خصائصها الفنية وطرازها وسماتها التاريخية والهندسية، وعندما يشاهد المنحوتات والفخاريات والمعدنيات أو اللوحات الفنية، يعلّق عليها مبيناً الجوانب الجمالية فيها وإلى أية مدرسة فنية تنتمي وما الملامح المحدثة التي أضافها الفنان .

كل هذا يجعل من رحلته كتاباً زاخراً بالمعارف الأنثروبولوجية والتاريخية والفنية والأدبية، دون إحساس من القارىء بأي ثقلٍ لأنها جاءت في سياقها الذي يتطلبه، وبعيدة كل البعد عن الاصطناع والاستعراض المعرفي أو الثقافي أوالشخصي، إنما بتلك التلقائية الرائعة التي تجعل منها، إلى جانب فائدتها المعرفية، متعةً تتطلبها النفس وتتحصل لها من خلال

القراءة وخاصة إذا كانت مكتوبة بأسلوب رفيع كأسلوب جرانادو الساحر. يتجلّى ذلك عندما يتحدث عن مهارات شعوب الإنكا التي ورثوها من حضارتهم القديمة كمهارة شعب الباراكاس في النسيج، وبراعة التشانكا في فن الرسم الزيتي وكذلك فن الخزف الجميل لدى شعبيّ الموتشيك والتشيمو و نحت الحجر لدى التشيفان الذين آلفوا بين الشهوة الجنسية المتّقدة وجمال الشكل الطبيعي.

وفي هذا السياق نجده حريصا على جمع المعلومات ذات الفائدة من تلك الأمكنة، فنراه يتزود من صاحب دكانٍ خبير متمرّسٍ من (إيكويتو) في البيرو بمعلومات عن الأشجار والنباتات؛ فيميز لنا خواص الأشجار الغريبة مثل شجرة "الرودا" التي يصنع منها العطر، والـ "هوكاري" العصية على الحشرات والمثالية لبناء المنازل، وشجر الـ "ريموكاسبي "ذي الخشب الصلب ومثله الـ "لاجارتوكاسبي" المستخدم لصنع القوارب والأعمدة و أشجار الـ "بونابالمرز" التي يستخدمها هنود الـ "تشاما" لصنع أقواسهم النشّابة.

ومثلها النباتات التي تصلح للشؤون الطبية والتي حصل على معلومات عنها من صاحب الدكان الخبير، مثل الخبّيز واللانسيتيلا لعلاج القلق، والـ "فيربانا" للحمى، والـ "نونيو بيكانيلا" كمسهلٍ قوي، ووردة السيسا لالتهاب القصبات، والتشوتشواسا للربو (وسيأخذ منها لأجل صديقه جيفارا) وعصارة الـ" كوتاهو" لوقف نزيف الدم، والـ " تشيريسانجو" لرأب الفتوق ونحوها، ونبات الـ"كابرفيلا" المتسلّق الذي يستخدم لمعالجة لسع الحشرات.

وليس أكثر تأثيراً في الوجدان من ذلك البعد الإنساني العميق الذي يتبدّى لدى جرانادو، من خلال مدوّناته عن البشر والفقراء والعمال، والهنود المستبعدين والمرضى، ومواقفه منهم ومن الملاّك والمستغلين والشرطة، إلى آخر ماهنالك، كما يتجلّى إيضاً الجانب الخلقي المهذب لديه حتى في الحديث عن حالات تقتضي الأمانة أن يذكرها، فيلمح إلى ذلك تلميحاً،

كقوله للحسناء التي كانت على المركب معهم في نهر الأمازون، والتي قدم لها وصديقه "فيوزر" الإرشادات عن الرحلة وطرقها، لأنها ترغب في أن تجرّب ذلك بنفسها.. إلى أن يعبّر عما حصلا عليه لقاء تلك الإرشادات، بهذه التلميحة الذكية والمهذبة :

" لهذا أنا و"فيوزر"، ودون أن يضايق أحد منا الآخر، قمنا بإرشادها، أما الرسوم فيجب دفعها سلفاً، بضاعة مقابل بضاعة."

وفي الخلاصة، فقد قدّم جرانادو إلينا رحلة جمعت مابين الطرافة، فيما كان يحدث معه ومع رفيقه فيها، والبعد الجغرافي والتضريسي للمناطق والأقاليم التي تجوّلا فيها، إضافة إلى التنوع السكاني الذي ماانفك الكاتب يشير إليه بين الحين والآخر. فبلدان أمريكا اللاتينية ذات المناخ المتنوع، والغنى الجغرافي والحضاري والبشري، لم تكن عسيرة على لغة الكاتب الثرّة بالمفردات والمجازات والصور، وخصوصا حينما يتناولها بالوصف الذي يتبدّى ميزةً فنية من أجمل الميزات التي حفلت بها هذه اليوميات.

لقد برع جرانادو وأجاد كثيراً في وصفه للناس، ورصده للمواقف النفسية والشعورية، سواء للناس الذين كان يلتقي بهم، أو لتلك الحالات التي عاشها، والمواقف التي واجهتهما، هو ورفيقه آرنستو في رحلتهما التاريخية هذه. كما تجلت براعته في غوصه إلى أعماق النفس الإنسانية ليرسمها لنا من الداخل ببيانه الرائع ونظرته البديعةِ عمقاً وغنىً، إضافة إلى وصفه الساحر لمشاهد الطبيعة وفتنتها الخلابة. ولقد بذلت قصارى جهدي متوخّيا الدقة والأمانة في نقل هذه الصور والمشاهد إلى القارىء كيما يعيشها أو يتمثّلها خياله في أقرب صورة ممكنة من الحقيقة. ومتوخّياً بالقدر نفسه نقل المستوى الأدبي الرفيع الذي تجلّى في أسلوب "جرانادو".

كما حرصت أن أحافظ على كل التقسيمات والفصول والحواشي التي وضعها "جرانادو" في الكتاب، وقد عمدت إلى إضافة حواشٍ جديدة لأعلام وأسماء وأماكن وتواريخ رأيت من الأهمية أن يتعريف القارىء بها، حيثما وجدت لذلك ضرورة. وذيّلتها بكلمة "المترجم".

في النهاية، لا بد من القول بأن القارىء سيرى انعكاساً جميلاً لصورة المغامرة الشهيرة التي عاشها جرانادو وصديقه جيفارا، الثائر الإنسان.

نعمان صادق الحموي

أبو ظبي

ديباجة المؤلف

لعل من الصعب أن أحدد بالضبط متى طلعنا بفكرة الرحلة، ولعل الأدب كان اللاعب الأساس في جزء كبير منها. لقد نما الحافز للسفر واشتدّ إلحاحاً مع قراءة كتب لـ"سيرو آلجيريا"[1] مثل "الأفعى الذهبية" و"الكلاب الجائعة" و"غريب وواسع هذا العالم". تلك الكتب رحت ألتهمها بنهم.

كنت بحاجة لأن أرى العالم، بيد أن أول ما وددت مشاهدته كان أمريكا اللاتينية- قارتنا التي طال عليها ألم المعاناة- ليس بعيون سائح جل ما يستهويه مناظرها الطبيعية وأسباب الراحة والمباهج الزائلة، وإنما بعيون وروح أحد أبناء شعبها؛ بعيون شخص يسعى لاستكشاف جمال هذه القارة وغناها ومن يعيش فوق أرضها من نسوة ورجال، كذلك معرفة أعدائها في الداخل والخارج، ممن يبتغون استغلالنا وإفقارنا.

لذا، وابتداءً من العام 1940 وما تلاه، تحولت هذه الرحلة من مجرد كونها جولة، إلى سفر وترحال في أرجاء أمريكا الجنوبية. بعد ذلك بعامين يظهر في المشهد "آرنستو جيفارا ديلا سيرنا"- الجريء- شاب من جيل الشباب، لينضم إلى جوقة جمهوري المعتادة من آباء وإخوة. ومن خلال

---

(1) "سيرو آلجيريا" (1909-67) Ciro Algeria : صحفي و كاتب بيروفي. في روايته " غريب وواسع هذا العالم" – 1942- يصور المعاناة والاستغلال التي كان يعاني منها الهنود البيروفيون.

سخريته الفطرية وعبقريته في النقد والجدل، كان بيلاو يضيف حاشية لطيفة إلى مناقشاتنا الرتيبة حول الرحلة الطوباوية.

بالكاد كان بيلاو[1] قد بلغ الرابعة عشرة من عمره، إلاّ أن فطنته (حدةّ ذهنية تحلّى بها طوال حياته الاستثنائية) مكّنته من أن يرى في الرحلة، ولم تكن لدى والديّ وإخوتي تتعدى كونها موضوع مناقشة وحسب، ذريعة لتوسيع معرفتنا في الجغرافية والسياسة، وكانت بالنسبة لي حقيقية وملموسة كحقيقة أني سأغدو يوماً مختصاً في الكيمياء الحيوية، عالماً مخلصاً لا يمكن أن يخون بلاده ورفاقه.

منذ ذلك العام وما تلاه، أمسى آرنستو داعماً لي في كل أفكاري ومشروعاتي. وقد مّرعقد من الزمن قبل أن ترتدي الخطة حّلة الواقع. وكان كلما لمس تراخياً من جانبي، أو تراجعاً في عزيمتي، يتدخل بلازمته المعتادة : "وماذا عن الرحلة إذاً؟" فأجيبه على الفور: "يمكن لأي شيء أن يتعطل إلاّ هذه."

كبرت صداقتي مع آرنستو عاماً إثر عام، و زادت معها الحاجة للشروع بالرحلة، بل لعلّها غدت أكثر إلحاحاً.

أحداث ذاك العقد من الزمن تعبر أفق خيالي كأنها لمحات تنعكس لناظري في مشكال يبدل عدداً لا نهاية له من الصور الملونة : نضال الطلبة دفاعاً عن الحرية البورجوازية الديمقراطية تهدده، في تلك الحقبة، النازية المحلية التي، رغم تنكرها في ثوب الوطنية، بدت مهيمنة على البلد. اضطهاد وسجن الأبطال الحقيقيين من الشعب الأرجنتيني، وكذلك الصراع بين الطلبة والمعلمين الرجعيين الذي استثارنا للعمل بشكل أفضل من أولئك المتزلفين الطامعين بامتياز ما.

---

(1) Pelao أحد الألقاب ال كان الكاتب يستخدمها و تعني الجريء، و كان يقصد بها آرنستو، و ثمة القاب أخرى سيشار إليها في حينه – المترجم.

لقد حدث خلال تلك السنين أن عرفت وآرنستو عن الاتحاد السوفييتي و مقاومته الجبارة لحشود النازية التي كانت تحاول إزالة أول بلد اشتراكي عن وجه البسيطة. لقد اتخذت كلّ من "ستالنجراد" و"لينينغراد" و"بريست" و"موسكو" في أعيننا بعداً جديداً. وكان من المستحيل على من يدّعون الدفاع عن الحرية والديمقراطية أن يطمسوا بطولة الشعب السوفييتي.

لقد كشفت سنوات الحرب زيف الصحافة الرأسمالية، حيث تلاشت أكاذيبها عن "الرعب الأحمر" وعدم الارتياح الشعبي أمام وحدة الشعب والحكومة والحزب الشيوعي السوفييتي.

حصلتُ عام 1945 على أول تعيين لي كممارس مبتدىء، وقد منحني ذلك أول فرصة للعمل في الأبحاث، الأمر الذي لم أتخل عنه رغم أن الحياة كانت، بين الحين والآخر، تفرض عليّ بعض الواجبات الأخرى. بعد ذلك بعام واحد بدأت عملي في مصحّة (بوينتيه) للجذام في قرطبة- أيّ عالم رحب فُتح أمامي.

كان سوط الجذام يكره ضحاياه على النأي عن المجتمع، ولكنه كان في ذات الوقت يجعل منهم أكثر حساسية وعرفاناً. لا يمكن لأيٍّ ممن شاهد مصحة للجذام إلاّ أن تستميله تلك الصورة لمجتمع المنبوذين. خلال تلك الفترة كنت وآرنستو على اتصالٍ مستمر. بحلول هذا الوقت كان إسم فيوزر[1] قد طغى على اسمه المستعار "الجريء" - و هذه أيضاً اختزال عدة كلمات (الغاضب جيفارا سيرنا)- و كان الأخير عرفاناً لجرأته وعناده في الريكبي، الرياضة التي ككرة القدم قبلها وبعدها الرماية، كانت تملأ ساعات فراغنا.

---

(1) فيوزر fuser وبالاسبانية Furibundo وتعني "الغاضب". أحد الألقاب التي استخدمها جرانادو لأرنستو طوال الرحلة- المترجم.

في أحد الأيام وصل "فيوزر" إلى مكان عملي في ذلك المشفى النائي الذي يبعد مئات الأميال عن"بوينس آيريس". كان على متن دراجة ناريّة لا تصلح للسير إلاّ على طرقات المدينة المعبّدة، إلاّ أنه، بجرأته وتصميمه، جعلها تخوض غمار الصحارى و السهول والجبال.

إبّان تلك الفترة كنت قد اقتنيت البوديروسا[1] 2 وكانت دراجة نارية قوية من طراز "نورتن"، بقوة محرك تبلغ خمسة حصانات، وقد أطلقتاالاسم ذاته الذي كنت أطلقه على سابقتها البوديروسا 1 إذ كنت أستخدم الأخيرة في توزيع المنشورات في المظاهرات مرّة كل يومين، وكذا في النزهات إلى الأنهار والبحيرات والجبال في موطني الأصلي- قرطبة.

لقد أبرزت لقاءاتي المتفرقة مع بيلاو ماكان بيننا من قواسم مشتركة؛ فقد كان الأدب يوفر لنا مادة واسعة للحديث. خلال تلك الفترة تقريباً، كانت أعمال مجموعة من المؤلفين الأمريكيين الشماليين تُطبع لأول مرّة في الأرجنتين. كان من بينهم "إيرسكن كولدويل" و"سينكلر لويس" و "وليام فوكنر"، و هؤلاء عملوا على تعرية نفاق المجتمع الرأسمالي الأمريكي واحتقاره للأمريكيين اللاتينيين والسود.

كانت تفسيراتنا لأعمال "سارتر" و"كامو"، بكل ما فيها من مضامين سياسية وفلسفية، تفتح مجالاً آخر للمزيد من النقاشات ونحن نعسكر تحت سماوات تعجّ بالنجوم و نشترك في شرب المتّة وتبادل الأفكار والأحلام حول موقد نار هادىء. قرابة عشر أعوام مرّت على هذا النحو ونحن نلتقي من حين لآخر. اللافت أن مرور الزمن، وبدل أن يثنينا عن مخططنا، كان يهيّىء لنا المزيد من الأسباب كي نشرع في رحلتنا في أرجاء أمريكا اللاتينية- تلك الرحلة التي طالما كنا نرغب فيها.

---

(1) البوديروسا Poderosa و تعني الجبارة و هو الاسم الذي كان يطلقه جرانادو على دراجته النارية خلال الرحلة.

آلبرتو جرانادو،

ميال

هافانا، تشرين الأول 1978

مقدمة المؤلف

كاراكاس في 26 تموز 1952

أيديهما التي تعانقت مودعة، ترفض أن تفلت من بعضها. كلاهما يحاول بالكاد إخفاء عواطفه، كثير من أحلام الشابين قد تحقق ويبقى الكثير ليتحقق وهو ما يجعل هذا الوداع صعبا. لقد شقا الطريق سوية، وتخطيا كل العوائق التي وقفت متعنتة في طريقهما. وإحدى تلك العوائق تم تخطيها للتو بمنتهى النجاح.

وفي النهاية، وبنفس التوقيت تقريبا، تنفلت اليدان مفسحة المجال لعناق سريع، ومن ثم وداع مختصر ليستر العاطفة التي استبدت بكليهما.

سأنتظرك أيها الغاضب.

سنجتمع ثانية يا (ميال).

يجلس (ميال) إلى الجدار بين المدرج ومنطقة التحميل المكتظة بالخيول المتوجهة إلى ميامي. يراقب الغاضب وهو يصغر أكثر فأكثر وهو يشق طريقه مبتعدا نحو طائرة الشحن الضخمة. لقد كان من المحال معرفة مدى ضخامتها تلك اللحظة ولدى مقارنتها بحجم صديقه الصغير الذي يبدأ ارتقاء سلم صعود الطائرة والذي رفعت عليه الخيول منذ دقائق. يقف في منتصف السلم رافعا يده اليمنى ملوحا بالوداع.

ردا على ذلك يقفز (ميال) منتصبا على قدميه وقد اختفت لا مبالاته الزائفة في لحظة واحدة. يلوح بذراعيه ويصرخ وكأنما يتحدى المسافة التي تخنق صوته: (إلى اللقاء يا غاضب. سأكون في انتظارك يا (بيلاو). ادرس جيدا يا آرنستو. مع السلامة....مع السلامة).

ضجيج انغلاق البوابة يتبعه على الفور هدير المحركات. وما هي إلا دقيقة أو دقيقتين وتعبر الطائرة فوق رأس (ميال). وفي حركة أمست الآن إحدى عاداته يطرح نفسه فوق الأرض العشبية المجاورة لجدار مطار (مايكوتيا).

ويخرج من حقيبة ظهره شبه البالية دفتر ملاحظات جلد بورق أحمر ثم يسند ظهره إلى الجدار ويبدأ القراءة.

رحيل يكتنفه سوء الطالع

قرطبة، 29 كانون الأول 1951.

كل شيء بدأ وتواصل بسرعة وكفاءة كما عادتي حينما أقوم بأي شيء. لقد أزال الوقت عامل التاريخ لكن المشهد احتفظ بنقائه ووضوحه الدائمين.

إنه عصر يوم مشمس من أيام تشرين الأول. وقد بدأت أولى العروق اللولبية والأوراق في الكرمة التي تعترش منزلنا تظلل صديقة أسفاري الوفية عبر السهول المعشوشبة والجبال- ودراجتي القديمة البوديروسا (2). كان أخي توماس يعتليها بينما كنت وأخي الآخر، جورجيو، متمددين بجوارها تحت ظل شحيح جادت به شجرة البرتقال نرتشف المتة الحاضرة على الدوام. بالكاد تابعت حديثهما، إذ أنني كنت مستغرقا في التفكير، وفجأة وكأنما أفكر بصوت مرتفع انفجرت قائلا: لم أعد سعيدا بهذه الحال. ثمة صوت في داخلي يناديني كي أحزم بضعة أشياء وأنطلق لأرى أمريكا. لعل

السنين التي قضيتها في (تشانيار) وأنا أحلم بعمل شيء لأجل مرضى الجذام هي التي قمعت رغبتي في البحث عن آفاق جديدة. ولكن الآن وقد نقلت من مكان أحببته، واحبني كل من فيه. وأرسلت إلى مشفى كل شيء فيه يفتقد إلى الحسن ويخضع للحسابات؛ مشفى أولى أسئلته هو إن كان بمقدور المريض دفع فاتورة الفحوصات، وآخرها أن كانت هذه الفحوصات متوجبة أم لا؟ كم أنا بحاجة لآفاق أكثر رحابة.

قاطعني توماس قائلا: هذا أمر بسيط. دع آرنستو يركب خلفك وانطلق هكذا. وجعل يقلد بصوته ضجيج الدراجة النارية وهي في أقصى سرعتها.

لم أقل شيئا، بل تناولت المتة من جورجيو الذي كان يحضرها باستمرار. وبينما كنت أرتشفها، قلت لنفسي: لم لا؟ وأي وقت أفضل من هذا لأن أضع الخطة قيد التنفيذ؟ لدي القدرة والرغبة، فأي شيء آخر عساني بحاجة إليه؟.

صوت قرقرة قرعة المتة قطع حبل أفكاري، فقلت، وأنا أعيد القرعة إلى جورجيو، وبلهجة هي أقرب إلى الإعلان: (حسنا يا سادة، رحلتنا ستبدأ، وقبل نهاية هذه السنة.

أبلغت والدي بالأمر تلك الليلة ونحن على مائدة العشاء. لقد عرفوا أنني كنت جادا هذه المرة. لكن ردة الفعل السعيدة المعتادة لديهم بددها صمت مطبق غريب.

بعد ذلك، وأنا أتقلب في فراشي صرت أتساءل إن كان بمقدوري فعل ذلك. هل لعدم الرضى غير المعلن لدى الأهل والأصدقاء أن يثنيني عن الأمر؟ هل الشعور بالإنجاز يعادل المعاناة التي كنت على وشك أن أسببها لهم؟ كنت أعلم أنه بإدراك رغبتي الدفينة، فإن بهجة الإنجاز ستعوض ألم الفراق.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

فجأة راودني قلق من نوع آخر: هل سيوافق (بيلاو) على الذهاب؟ أليس من الجنون أن تتوقع منه السفر وهو قاب قوسين أو أدنى من نيل شهادته في الطب؟ أليس خطأ مني أن أبعده عن الدكتور (بيساني) وبمقدوره دون أدنى شك أن يحقق مستقبلا باهرا معه؟

(فيوزر) بنفسه زودني بالإجابات عندما جاء في زيارة مفاجئة إلى قرطبة لمقابلة صديقته (تشيتشينا) وفي اللحظة التي أطلعته فيها على خطتي، قال :إنه لا يهتم بالمستقبل الذي تصورته له مع طبيب، وأن يكن بارعا، هو أسير التجارة الطبية. وعند هذا اندفع آرنستو مؤديا رقصة الحرب، وهو يهتف ويصرخ وهكذا ختم الميثاق الذي بيننا.

كانت الأيام التي تلت دوامة جنونية من الخرائط وقطع الغيار وعشرات الطرق التي اعتمدناها وتخلينا عنها وكل في دوره. أخيرا، ورغم معارضة والدي الصامتة... وتلك التي تقل عنها صمتا لدى العمات والأعمام الذين كانوا يعتبرون الرحلة جنونا صرفا- جاء اليوم الموعود.

بدت الدراجة النارية وكأنها مخلوق من عصر ما قبل التاريخ. على كل جانب منها زودت بأكياس من القنب المقاوم للماء وفي المؤخرة رف ملي بكل شيء من شواية اللحم إلى الخيمة وأسرّة للمخيم.

أما طريقنا التي اخترنا فكانت على النحو الآتي: سنتجه جنوبا إلى (بوتيس آيرس) كي يودع (فيوزر) أمه وأباه. ثم ننطلق نزولا نحو ساحل الأطلنطي وصولا لأقصاه عند (باهيا بلانكا). من هناك سنعبر مقاطعتي (لابامبا) و(نيوكوين) لنشاهد البحيرات الجنوبية ومن ثم نشق طريقنا فوق الآنديز. وحالما نصل (تشيلي) نتجه شمالا إلى (كاراكاس).

الجميع كانوا متوترين ومتحمسين. وقد بدأنا وداعاتنا وحولنا أعداد كبيرة من الأطفال أخذهم منظر الدراجة النارية واللباس الذي كنا نرتديه. وبعد أن أخذنا بضع لقطات للأجيال القادمة، عانقت والدي اللذين ابتلعا غصة الحزن، واخوتي الذين كانوا يراقبوننا بحسد يمتزج بمشاعر الود

الفياضة. قبلت والدتي قبلة أخيرة كانت عرفانا مني على ما بذلته من جهد في كبحها للدموع، ودونما أي ضجة أخرى شغلت محرك الدراجة ثم صعد (آرنستو) خلفي وانطلقنا نترنح تحت وطأة حمل ثقيل من الأمتعة. التفت (بيلاو) ملوحا بيده، وللحظة جعلتني هذه الحركة المفاجئة منه أفقد سيطرتي على الدراجة. كنا على وشك الارتطام بقاطرة النقل التي كانت تقترب عند زاوية الطريق صرخات التحذير التي تعالت نبهتني لحجم الخطر الذي كان محدقا بنا. وكي أتجنب المزيد من التأخير. ورغم احتجاجات (بيلاو) وضرباته لي من الخلف تهنا في زحمة السير تاركين لهفة الأهل والأصدقاء بعيدا خلفنا، فأمامنا آفاق جديدة تكتنز من الحماسة الشيء الكثير.

فيلا جيسيل 6 كانون الثاني 1952:

أخيرا رأيت البحر! تماما كما تمنيت أن أراه لأول مرة: أثناء الليل وتحت ضوء القمر.

لقد تعمّدت عدم النظر إلى المحيط الأطلنطي الشاسع، وقد أسندت رأسي إلى الكثبان الرملية، وأحدق فقط في الشاطئ وما يسكن إليه من أمواج. لم ينقض من هذه الرحلة سوى تسعة أيام فقط. لكنني أستطيع الجزم سلفا، مما عشناه وتعلمناه ورأيناه، بمدى روعتها وأهميتها لمستقبلنا، الآن وقد أمست حقيقة بعد طول انتظار.

سأعود إلى يوم التاسع والعشرين من الشهر الفائت. وتحديدا حينما بالكاد تجنبت الارتطام بقاطرة الركاب. إثر ذلك انطلقت بأقصى سرعة، وليس قبل أن قطعت بتلك السرعة الحمقاء أكثر من عشرين أو ثلاثين عمارة، حتى ركنت الدراجة على حاجز الرصيف. كان آرنستو غاضبا جدا.

أنت أحمق يا (ميال)!. قالها وهو يلتقط أنفاسه.

لقد اضطررت أن أتشبث بك كالأخطبوط.

كان غضب (فيوزر) يتخذ صورة هزلية ما جعلتني أنفجر بضحك هستيري. وبعد أن شبعنا ضحكا بدأت أفسر له ما كان واضحا: (لو أنني توقفت، لكان اهتياج من حولنا سيعيدنا إلى أحضان أهلنا وإلى الأبد).

بعد ترتيب أنفسنا انطلقنا ثانية. واجهتنا بضع مشاكل كانت الأمتعة سببها جميعا- بما في ذلك إحدى القطعات التي أعطبت شاحن البطارية- لكننا وصلنا آخر الأمر إلى بلدة (باليستيروس) ونحن نتلمس طريقنا في الظلام. هناك، وتحت إحدى الأفاريز لهيكل منزل متواضع انصرفنا لأمر الدراجة. وبعد تناولنا لعدة قرعات من المتة خلدنا لأكياس النوم. وبينما تمددت مستمتعا بفرحة أول ليلة لي كمهاجر عبر القارة، شعرت بالتعب وقد تغلب علي في الحال، وتوّجه النعاس الذي قطع علي جولاتي الهائمة.

قطعنا المسافة ما بين (باليستيروس) و(روزاريو) بسرعة و دونما حوادث. هنا أمضينا بعض الوقت مع بنات أخي اللواتي كن جميعا معجبات بذكاء (فيوزر) وتعابير وجهه الجميلة. وبأية حال، لقد كانت طموحاتنا أبعد بكثير من أحلامهن التي جل ما كان يلهمها المسلسلات الإذاعية الطويلة ومجلة نسائية رخيصة مثل (فوزوتراس).

وصلنا (بوينس آيرس) حيث وكما الحال في منزلنا، كنا عرضة للتعليقات الساخرة حول رحلتنا الشهيرة واحتمال فشلها. اضطررنا أن نستمع إلى الهراء المعتاد حول وجوب أن نسلك السبيل المطروق جيدا الذي كانت أسرة (فيوزر) تتبعه. والدته فقط هي التي لم تكن سلبية، فكل ما قالته كان: (أنت الأكبر سنا يا (ألبرتو)، لذا أطلب منك أن تحاول أن تجعل (آرنستو) يعود وينهي دراساته، الشهادة لا تضر أبدا).

في الرابع من كانون الثاني بدأنا رحلتنا صوب ساحل الأطلنطي. ومضينا من خلال متنزه (باليرمو) كالعادة، كان هناك أناس على جانب الطريق يبيعون كل أصناف الكلاب. كان (بيلاو) يرغب في أن يقدم لـ(تشيشينا) هدية عندما رأيناها في ميرامار، حيث كانت تقضي فصل الصيف. وبما أن كلباً إلزاسياً قد استهواه، فقد ابتاعه، ثم أطلق عليه اسم

(كمباك) أو (عودة) باللغة الإنكليزية، وما من شك أن في هذا الاسم وعدٌ لـ(تشيشينا).

بعد أن قطعنا عدة أميال على الطريق السريعة في (مار ديلابلاتا) واجهتنا موجة من الأمطار الغزيرة الجارفة. اضطررنا أن نتوقف لنتجه إلى مزرعة ألبان تبعد عنا نحو نصف ميل. وعندما مرت العاصفة، تابعنا وجهتنا شرقا. ولكن هذه المسافة فوق الأوحال نبهتنا لمخاطر الطرق الموحلة، التي تختلف كثيرا عن المنطقة المحيطة بـ(قرطبة) أو الأسطح القاسية التي كنا معتادين عليها. أمضينا تلك الليلة على جانب الطريق في أحد أكشاك حراس الشرطة. وفي اليوم التالي، وبعد أن انتظرنا (كمباك) لينتهي من إفطاره- إذ كان لا يتناول سوى الحليب- تابعنا طريقنا إلى فيلا جيسيل وهي بقعة لا يعرفها السائح التقليدي تقريبا. إنها جميلة جدا تتناثر فيها منازل بسيطة ذات طابق واحد، وتعانقها شواطئ عريضة وأمواج رائعة تتهادى ممدة جسدها بنعومة على اليابسة.

(ميرامار) 13 كانون الثاني 1952:

وصلنا هذا الشاطئ الرائع منذ سبعة أيام. كان في بقائنا هنا ما يفتح الأعين والبصيرة. لقد التقيت أناسا من طبقة اجتماعية لم أكن قد واجهتها من قبل. وبصراحة هذا يجعلني أفخر بأصولي. أنا لم أصادف أبدا أهل الطبقة العليا من قبل، ناهيك عن مخالطتهم. طريقة تفكيرهم شيء لا يصدق وكذلك محاكمتهم للأمور. هنا تجد أناسا يعتقدون بأن العيش دونما هم في الدنيا سوى موقعهم الاجتماعي، أو إضاعة الوقت في أتفه الأشياء الممكنة، حقا مقدسا لهم أو ما شابه. لحسن الحظ أن (تشيشينا) خصوصا وأن غيفارا عموما ولا سيما شقيقة (فيوزر)، أنا ماريا، لم يكن فيهم أي شيء يشبه أولئك الناس.

تحدثت في هذا الأمر مع (بيلاو) قائلا:

(أسمع يا صديقي، هؤلاء الناس يجعلونني أكثر اعتزازا بنفسي. نحن على الأقل خلقنا شيئا كفريق ريكبي، أو مختبر أبحاث. لقد غذينا عقولنا، بينما هذه الشخصيات -وبكل الإمكانيات والسبل المتاحة أمامهم- يبددون طاقتهم في نشاطات لا طائل تحتها، فقط لأجل متعهم الخاصة.

لا عجب في أنهم يندهشون عندما يسمعونك تتحدث عن المساواة، أو عندما توضح أن للآخرين الحق في العيش أيضا. كل هؤلاء الذين حولهم، ممن يخدمونهم، وينظفون على إثرهم، هؤلاء أيضا يرغبون في الاستحمام بالبحر والاستمتاع بالشمس.

يوم الحادي عشر، وبعد حلول الظلام، نزلت إلى الشاطئ. كان منظرا لا ينسى. كان هناك مشهدان مختلفان قرب الماء كانت الكثبان تميل منحدرة نحو الشاطئ حيث كانت الأمواج المتكسرة تشكل حاجزا من الغثاء الأبيض. على الجانب الآخر كان هناك مشهد قمري يتكون من تلال كالفجوات المحيطة بالبرك الصغيرة مع بعض شجيرات فضية انعكست على صفحة مائها التي يضيئها القمر. منظر مذهل.

ما يحيرني هو كيف أن كل هؤلاء الناس، الذين تحدثوا عن مدى عمق إحساسهم بجمال الليل والمكان، لم يشاركوني الرغبة في أنه ينبغي لكل شخص في الدنيا أن يكون قادرا على الاستمتاع والإعجاب بهذا الجمال.

ذهبنا اليوم إلى السباحة. وعندما خرجنا من الماء انضممنا إلى مجموعة الزوار الذين قدموا لقضاء إجازتهم مع عمة (آرنستو) و(تشيشينا). بضعة منهم كانوا طلابا جامعيين. وسرعان ما بدأت مناقشة حول قضايا سياسية واجتماعية. ناقشنا عملية تأميم الرعاية الصحية التي قامت به الحكومة العمالية في إنكلترا مؤخرا.

ألقى آرنستو شبه خطاب، وظل قرابة الساعة وهو يدافع متحمسا عن التأميم، لكنه شجب الإساءة في استثمار الطب لتحقيق الربح،

والتوزيع غير العادل ما بين الأرياف والمدن، والعزلة العلمية على أطباء الأرياف، الذين انزلقوا في مواضع شتى.

كنت على بعد خطوات قليلة من هؤلاء الذين كانوا يتحدثون ولم يتمالكوا إلا أن يشعروا بالتعاطف والإعجاب الذي كان لدي نحو (بيلاو) على الدوام. أولا وقبل أي شيء آخر، أنه ينحدر من نفس الخلفية الاجتماعية التي ينحدر منها الآخرون، لكن آراء طبقته لم تضعف من حساسيته. ليس هذا وحسب بل إنه يتخذ موقفا مناهضا لكل ما يقبلون به على أنه طبيعي لدى استماعي لمجادلاته القوية، وأجوبته اللاذعة، والمريرة والتي جعلت مادة دفاعهم الضعيف هراء، فكرت قائلا لنفسي: (هذا الجريء يكشف عن جانب جديد كل يوم. لقد خضت وإياه في هذا المجال عدة مرات من قبل، ولكن يا لروعة أدائه الناجح في توضيح وجهات نظره هذا اليوم).

بعد أن أجهز على خصومه، التفت (فيوزر) إلي، بعد أن أمسك ب(كمباك)، وقال: (دعنا نتحرر من هؤلاء المتأنقين، صغار العقول، ونذهب لنحمم الكلب). اندفعنا عبر الرمال مبتعدين عن المجموعة الذين استمروا يتحدثون، بل وربما يتساءلون بحيرة عما تلفظ به (بيلاو) من كلمات شعبية.

وكما أقول دائما- قد تعجب بآرنستو أو تكرهه، لكن ليس بمقدورك أبدا تجاهله.

نيكوشيا، 14 كانون الثاني 1952:

اليوم نحن في طريقنا من جديد.

وهانحن عند (تامارجو). لقد أمضيت وإياه خمسة أعوام في الجامعة.

اشتركنا معا في نضال الطلبة عام 1943. كانت عصبة منا تستأجر منزلا قرب مشفى الجامعة، وكنا نلعب الرياضة معا، ونصطدم مع سفاحي الشرطة، وقد ساعدنا في جعل اتحاد طلاب قرطبة ديمقراطيا. تركنا

الجامعة فقط منذ أربعة أعوام. ولكن أي تباعد حل بيننا؟ لم يعد أحدنا يفهم الآخر. لقد عاملنا (تامارجو) جيدا وللحق لا أستطيع أن أنكر بأنه ذات مرة استطاع التغلب على صدمته حينما ظهرت له على دراجة صاخبة وأنا مغطى بالشحم والغبار عن آخري.

لعله أمر يبعث على اليأس أن شابا كان حتى سنين قليلة يتبنى أفكارا تقدمية. يصبح أسير المجتمع الكريه المحيط به. أنه يعلم بخطئه، وبأنه يطلب ثمنا أعلى بكثير من كلفة الفحوص المخبرية، ومع ذلك يصر على ما يقوم به، بل يبدو أن سعادة من نوع مرضي تتملكه حينما ينهج نهجا مخالفا لإملاءات ضميره. لقد أصبح متحجرا كمستحاثة بمنزله الأنيق وزوجته المتسيدة ابنة البلد وذات العقلية المنتمية للطبقة الوسطى، فكل همها أن يكون كل شيء في مكانه ودون أي شيء يلطخه. كل شيء كذلك فعلا ولكنه في الوقت ذاته خلو من أي أفكار أو مشاعر فياضة.

باهيا بلانكا 16 كانون الثاني 1952

وصلنا إلى باهيا بلانكا وإلى منزل لأصدقاء آرنستو وهم آل (سارافيا) والذين عاملونا بطريقة بالغة السخاء. بعد ذلك انطلقنا قاطعين الطريق بطوله نحو (نيكوشيا) مرة واحدة، ولم نتوقف سوى في ظل شجرتين من الصفصاف المتهدل عند (ريوكويكوين سالادو) كي نشوي قطعة من لحم الأضلاع وقد كانت كافية لإفطارنا وغدائنا معا. اضطررنا لضبط صمامات الدراجة، إذ أن الريح القوية كانت تجعلها تكبو أثناء السير. وقد كانت هذه المرة الأولى التي تتلقى فيها أل بوديروسا (2) لمسة دلال منا طوال ألف ومائتي ميل.

سهل رانكويليس[1] الفسيح

بنيامين زوريلا 23 كانون الثاني 1952

بعد سبعة أيام أعود إلى مذكراتي المسكينة المنسية.

أمضينا ثلاثة أيام في تجهيز الدراجة النارية. سافرنا عبر باهيا بلانكا وبورتودايت بطولهما محاولين، ودون أن يحالفنا الحظ في أن نبدل بضع بيزوات كانت لدينا إلى عملة البيرو أو تشيلي. استطعنا أن نستحصل نحو 200 بيزو تشيلي ومائة دولار مقابل ألف ومائة بيزو أرجنتيني. بقي لدينا نحو ألفي بيزو، والتي سنضطر إلى تبديلها في (باريلوتشد)، حيث مقصد السياح. تلقينا ترحيبا حارا من آل (سارافيا) ولعل أكثر الحوادث صورا كانت حين تصادفت معرفتنا بموظف محلي عرض أن يرينا حياة الليل في المدينة، كان مساءً مملاً، فبعد أن استمعنا إلى أناشيده الملأى بمديح الفرات، وفتوحاته الغزالية، والصفقات الكبرى التي كان على وشك أن يبرمها وبعد أن عرفنا كيف عاش حياته برمتها وهو أسير ذاته، أدركنا بأن لا شيء من سخريتنا، بل وتهكمنا أحيانا، يصل إليه. فيما بعد علقت أنا و(فيوزر) بأن هذا في الغالب ما كان سيؤول حال مستقبلنا إليه -أي كنت سأصبح صيدلانيا متواضعا وهو طبيب يعالج النوبات التحسسية للسيدات الثريات- لولا ذلك الشيء الخصوصي الذي جعل منا متمردين.

---

(1) الرانكويليس: شعب هندي استقر في مقاطعات سان لوي وقرطبة وسانتافي وبوينس آيرس في الأرجنتين نحو عام 1775. هذا الشعب جاء في الأصل من سفوح الأنديز.

في الحادي والعشرين من الشهر، وقبل مغادرتنا (باهيا بلانكا)، حذرنا أهل البلدة بأن عبور الكثبان سيتكشف عن صعوبات جمة، كان علينا الانطلاق فجرا حينما تكون هذه الكثبان مغلفة بطبقة من الذرا. بالشكل الطبيعي، انطلقنا منتصف النهار، حالما أصبحت الدراجة النارية جاهزة، لم نكن على استعداد للانتظار يوما آخر. كانت الرمال حارة وكأن نارا تستعر تحتها. لقد سقطنا عن الدراجة أكثر من اثني عشرة مرة، وكل سقطة كانت أكثر إثارة من التي سبقتها. بعد (ميدانوس) تولى (فيوزر) القيادة، وقد تعرضنا لسقطة أخرى كانت غاية في الإثارة وذلك حينما ارتطمنا بكثيب رملي ونحن نمضي بسرعة كبيرة، لكن هذه السقطة لم تحدث ضررا كبيرا.

خلال الغسق كانت الأمطار تهطل بغزارة واضطررنا لطلب ملاذ لنا في أحد الأكواخ. مكثنا هناك حتى بزوغ الفجر. في يوم الثاني والعشرين كنا في الطريق نحو (تشويل تشويل). كان الطريق يشبه ذاك الذي يربط سيمبولا مع رايوكورتادو في جبال قرطبة، والذي أذكره تماما من خلال رحلاتي من محجر الجذام الصحي إلى قرطبة والعكس. منتصف النهار، وبعد أن أضنتنا آلام السفر أميالا وأميالا على طول تلك الطرق الوعرة، توقفنا في بلدة صغيرة تزخر بالمناظر. أنها (بيتشي موهويدا) الواقعة على ضفة نهر (كولورادو).

قمنا بشواء بعض اللحم تحت ظل أيكة من شجيرات الصنوبر.

تمتد تقريبا حتى ضفة النهر ذات التربة المحمرة.

كانت تلك أجمل بقعة عسكرنا فيها حتى تاريخه. بعد تناولنا الطعام، انطلقنا صوب (تشويل تشويل)، لكن الدراجة بدأت تعاني مشكلة في حاقن الوقود وهكذا نفذ الوقود منا. اضطررنا لانتظار عربة تمر بالقرب منا كي نطلب منها بعض الوقود. بهذا الشكل وصلنا إلى محطة السكك الحديد في (زوريلا). سمح لنا بالمبيت في سقفية شيدت لتخزين القمح. الآن نشرب المتة مع الحارس ونستعد للمغادرة باتجاه حصن (جنرال روكا).

اليوم واجهنا أسوأ انتكاسة تعرضنا لها خلال الرحلة حتى الآن. منذ أن استيقظ (فيوزر) وهو يعاني الآلام الناجمة عن الربو المصاب به. ولم أكد أنتهي من كتابة السطور السابقة حتى بدأ يرتعش وكأنها نوبة حمى. كان يشعر بالغثيان فانحنى وبدأ يتقيأ الصفراء. لم يتناول شيئا طوال اليوم. نحن نتهيأ للمغادرة الآن إلى (تشويل تشويل) حيث يوجد مركز للإسعافات الأولية.

(تشويل تشويل) 25 كانون الثاني 1952

أثناء الكتابة، وأنا أعود بذاكرتي إلى ما قبل يوم أمس، يبدو لي كل شيء وكأنه حلم مزعج بعيد. انطلقنا من (زوريلا) حوالي الساعة السابعة. حينما كانت الشمس تغيب. ومشينا ببطء كي لا ترتج الدراجة كثيرا، إذا أن (بيلاو) كان يعاني صداعا نصفيا. وصلنا مركز الإسعافات الأولية، وقد كان مشفى إقليميا بما تحمل هذه الكلمة من معنى، وقد قابلنا أحد الممرضين. كان وقحا جدا معنا وأرسلنا كي نكلم المدير الذي يقطن على بعد عدة أبنية. عرفناه بأنفسنا -آرنستو كطالب طب وأنا كمختص كيميائي- وعلى هذا الأساس أرسلنا وقد حملنا ورقة منه. عندما عرف الممرض أن أحدنا في مرتبة طبيب والآخر طبيب تقريبا، طرأ على سلوكه تغير جذري، وبدلا من إحدى زوايا الجراج، المكان الذي كان يفكر بوضعنا فيه، أعطانا غرفة بسريرين وحمام مجاور، بمعنى آخر، تحولنا إلى سيدين بدلا من زوج من المشردين وكأن وجود شهادة دراسية معنا جعلنا أكثر حساسية لنوبات البرد أو أكثر إحساسا بالراحة من مجرد عاملين متواضعين.

بعد ظهر أمس كانت نوبة الحمى عند آرنستو قد انخفضت، لذا خرجت بجولة في (تشويل) عبرت الجسر فوق (ريو نيجرو)، وبعد أن اتكأت على حاجز الجسر أطلقت العنان لمخيلتي. أولا فكرت بالبيت، ثم درست إمكانية أن خمستنا قد نسافر يوما ما إلى أوروبا- ونعبر إسبانيا،

ونمر بوسط أوروبا، ونرى نهر الدانوب ثم الاتحاد السوفيتي ونسمع أجراس الكرملين- تماما كما رويت ذلك إلى صديقي (كورشو جونزاليس) عندما كنا في السجن عام 1943.

تابعت السير بعدها إلى أن بلغت الأراضي المؤجرة للمزارعين في ضواحي البلدة. شعرت بالسعادة، إذ لا شيء يجعل المرء أكثر سعادة من أن يرى أحلامه وقد أصبحت حقيقة. فكرت في كل أولئك الذين استودعتهم خططي حينما كانت لا تزال خيالات لاسيما الفتيات، والذين كانت تشكل الرحلة بالنسبة لهن أكثر خصومهن هولا، (توما سيتا) و(بيروينشا) في (فيلا كونسبسون) و(نيجرا) و(ديلفنا) و(توركا) في (تشاينار) وعشرات الفتيات الأخريات اللواتي كن لازلن يعشن حياة باهتة، لكنهن سعيدات لذلك. لم تكن حياتي تختلف مطلقا، إلا أنني كنت آخذ في اعتباري دوما بأنني أراوح في مكاني.

لقد بدأت حياتي الجديدة الآن، لكن دون شعور بالندم حيال حياتي السابقة.

تابعت نزهتي بتمهل والبهجة تملؤني إلى أن وصلت إلى مستنقعات فيها نباتات قصبية. بين الأجمات رأيت مخلوقات تعدو مسرعة، كانت تشبه الجرابيات الصغيرة، وكذلك سكان عالم غامض غير مكتشف بعد، بيد أنها لم تكن سوى طيور غراء صغيرة زينتها مخيلتي.

تلك الأراضي المؤجرة مهدتها زخات من البرد كانت قد هطلت بقوة قبل عدة أيام. كان التفاح والإجاص الذي لم ينضج بعد يغطي العشب. اشتريت بضع حبات من الدراق من أحد المزارعين كي نأكلها أنا و(فيوزر). في طريق العودة أقلني سائق شاحنة صغيرة، وفي غضون دقائق وصلت المشفى ثانية. تناولت العشاء، وتركت الدرامات لآرنستو الذي كان نائما وانصرفت إلى الكتابة.

تشيشينال 27 كانون الثاني 1952

انطلقنا أمس بصحة قد استعيدت وجيوب قد أنهكت. وسط النهار، وبعد المرور بعدة بلدات ذات أسماء هندية ك: (تشيلفورة) و(كويكوين) وصلنا (تشيشينال). لم يتبق من ذلك العرق البشري الذي لا يقهر سوى الأسماء بعد أن أرسلت إليها (بوينس آيريس) و(باريس) و(لندن) جيوش رعاة البقر كي تجعل الصحراء متحضرة وبينما هم يقومون بذلك يقتلون الهنود ويسلبون أرضهم.

بعد عدة تأجيلات تسببت بها عجلة الدراجة، وصلنا (سيبوليتي) إحدى البلدات الرئيسة في مقاطعة (نيوكوين) التقنية والصناعة لبني الإنسان تعرض نفسها قبيل وصولك البلدة بعدة أميال، فقد جرت الأقنية من الأنهار وأصبحت الأرض التي كانت قاحلة ذات مرة خصبة وغنية. وبدل الشجيرات والأجمات المتناثرة أصبح هناك أشجار فاكهة، وبساتين الكرمة تفصح عن نفسها هكتاراً إثر هكتار.

بعد عدة محاولات عقيمة، تدبرنا إذنا بالنوم في زنزانة فارغة بمركز الشرطة. وفي الزنزانة المجاورة لزنزانتنا كان هناك سجينان يجلسان على مائدة عشاء مترف. كانا تاجرين من تجار المضاربة احتجزا مؤقتا، وفي مقابل بضع زجاجات من النبيذ –وهي ثمن بخس بالنسبة لهما– أوصلا رجال الشرطة المساكين إلى الأشغال الشاقة المذلة.

لعل هذا الأمر منطقي، بما أن الغرامة التي أجبر هذان المحتالان اللذان يسميان نفسيهما تاجرين على دفعها، تذهب فقط من الخزنة الصغيرة التي كانت فيها من قبل إلى الكبار الأربعة أو الخمسة محدثي النعمة أصحاب القرار، ومن هناك إلى خزائن الأقلية الحاكمة أو المصارف الأجنبية.

فهؤلاء الآخرون هم الذين يستفيدون دوما من المال الذي يجنيه عرق الناس العاديين ينبغي لهذا المال أن يصب في الموازنة الوطنية كي يتمكن

البلد من تعاليم الناس، الذين لا يعرفون سوى ملذات الخمور، ومباريات كرة القدم وسباقات الخيل. لقد قادوهم في هذا الاتجاه ولقرون عديدة عن طريق المدرسة ومنابر الوغظ والصحافة والتي هي بدورها جميعا تحت سيطرة الأثرياء وأصحاب النفوذ. لقد حرم الناس من أي فرصة لاكتشاف قدراتهم. لأن هذا سيحثهم على التمرد ويؤجج رغبتهم في عيش حياة أفضل.

بينما كنت أتناقش مع (آرنستو) فاجأني مرة أخرى بإحدى تعبيراته البليغة قائلا: هكذا هي وجه وقفا كوجهي العملة. جمال المنظر وثروة الأرض الطبيعية في مقابل من يستغلونها. كرم ونبل الفقراء في مقابل النفوس الدنيئة والخسيسة لملاك الأرض وأولئك الذين يحكمون البلد.

كلماته التصقت بقوة في ذهني. وأثناء نومي وسط صخب التاجرين المحتالين، الذين كانا على وشك الثمالة، بدا وكأنني أسمع صوت (فيوزر) يترجع صداه قائلا: وجه وقفا، وجه وقفا، وجه وقفا.

في الطريق إلى (بيدرا ديلا جويلا) 28 كانون الثاني 1952

انطلقنا من (سيبوليتي) في التاسعة صباحا، واشترينا مؤونة من مدينة (نيوكوين) ثم استمرينا وصولا إلى (كابو آلاركون) حيث تناولنا الغداء. وبينما نحن منطلقين ثانية بدأت ريح هوجاء تهب غاضبة وتجلدنا بسياطها دون رحمة. كانت الطريق وعرة خشنة وقد انسحبت هذه الصورة أيضا على مشهد الطبيعة تلال جرداء، تعقبها سهول شح فيها الشجر وجلاها قفر هائل. أميال وأميال دون حتى أن نلمح منزلا أو حيوانا أو أي شيء. وبينما أقود الدراجة فكرت: إننا نعرف بأن جمال بحيرات الآنديز ينتظرنا بعد هذه المسافة الطويلة من الطريق الصحراوية، ولكن كيف كانت الصورة لأولئك الرواد الأوائل الذين سافروا دون أن يعرفوا متى أو إلى أين سيصلون؟.

وأثناء انشغال ذهني بهذه الأفكار وسواها، وصلنا (بيكون ليوفو) حيث تزودنا بالوقود، ثم مضينا إلى (باجادا كوال ورادو). أصبحت المنطقة أكثر جفافا والريح أكثر ضراوة. لم تكن الرمال وحدها التي تلطم وجوهنا الآن، بل الأحجار الصغيرة التي أثارتها هبات الغبار التي كانت ترشق أجسادنا ونظاراتنا.

وقبل (باجادا كوال ورادو) بميل أو ميلين بدأت سفوح تلال الآنديز تشيح خمارها كاشفة عن مرتفعاتها الشاهقة ومنحدراتها المباغتة.

وصلنا (باجادا كوال ورادو) وذهبنا إلى أحد فروع نادي السيارات الأرجنتيني. كانت الخدمة فيه رديئة كحالها في بقية الفروع التي قصدناها. التقينا مجموعة من سائقي السباقات التشيليين. جميعهم تذمروا من الخدمة السيئة التي تلقوها من هذه الهيئة التي تدعمها الاشتراكات والمكلفة مساعدة أعضائها. إنها هيئة بيروقراطية تستخدم الأموال التي تجمع من الأعضاء كي ترسل مدراءها في رحلات إلى الخارج، وتنظم السباقات التي تعود بأرباح ضخمة، ولكنها لا تقدم إلا النزر اليسير إلى أولئك الذين لولا اشتراكاتهم الشهرية لما استمر نبض الحياة في هذه الهيئة.

تابعنا تقدمنا إلى (بييدرا ديلا جويلا). وبفعل تلك التلال حل الظلام بشكل أبكر مما كان عليه في الأيام السابقة. وجدنا طريقا تكتنفها الأشجار فتوقفنا ظنا بأنها مدخل لإحدى مزارع الأغنام. خلال نصف ميل تلاشت الطريق بين الشجر. تركنا الدراجة وتابعنا سيرا على الأقدام باتجاه ما اعتقدنا مع بداية العتمة، أنه منزل. اتضح أنه كان بقايا حصن صغير قديم يدعى (نوجويراس)، وهو مخفر حدودي لجيش (بوينس آيرس) في منطقة هندية. عدنا إلى الدراجة مع عتمة الليل وانطلقنا في الطريق ثانية والريح تضربنا بقوة بدت أكثر هذه المرة، بعد المهلة التي منحتنا إياها الطريق ذات الأشجار.

خلال تقدمنا بضعة أميال، ونحن نقود كالعميان، سقطنا في ثلاثة أخاديد متتالية في الطريق، وخلال خروجنا من آخر أخدود فيها شعرت

بنفسي أسقط بقوة. كان منصب الدراجة مكسورا. حاولنا بشكل محموم أن ننصب الخيمة إلا أن الريح الهوجاء منعتنا في النهاية أسندنا الدراجة إلى عمود هاتف وربطنا أحد أطراف الخيمة بها ثم فردنا القماشة لتشكل شبه حاجز يكبح جماح الريح الجنوبية الهوجاء. لم نتمكن من إشعال موقد قريب جدا من الدراجة وعمود الهاتف وهكذا كومنا كل ملابسنا ودخلنا في أكياس نومنا الشخصية، وقبل أن أسلم نفسي إلى مورفيوس[1]، قلت ل(فيوزر) بسخرية: (هذه المرة سقطت قطعة النقود على حافتها).

بييدرا ديلا جويلا 29 كانون الثاني 1952

اليوم، وبعد أن ربطنا المقود بسلك إلى الدراجة، تقدمنا ببطء، وصعوبة إلى داخل البلدة ولحمنا منصب الدراجة. ومع عدم تمكننا من أن نجد مسكنا، سألنا فيما إذا كانوا يسمحون لنا بالبقاء في الجراج الذي أصلحنا الدراجة فيه. وبحشر أنفسنا في حجرة الشحم، تكون هذه ليلتنا المتعبة الثانية في هذه الرحلة.

في الطريق إلى (سان مارتن دي لوس آندريز) 30 كانون الثاني 1952

وصلنا نهر (كولون كيور) واجتزناه في عبارة تبحر على طول سلك يمنع تيار النهر القوي أن يجرفها باتجاه مجراه.

بعد أن قطعنا عدة أميال وجدنا طريقا مؤدية إلى عزبة، دخلنا في محاولة لشراء بعض اللحم من اجل الغداء.

الصدفة المحضة قادتنا إلى هذا المكان حيث وجدنا دليلا بأن جماعات من اليونكر[2] الألمانيين –وهم من النازيين طبعا– قد تسربوا إلى

---

(1) مورفيوس: إله الأحلام عند الإغريق– المترجم.
(2) اليونكر: أحد أعضاء الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية البروسية– المترجم.

(باتا جونيا). كان هناك أحاديث حول هذا الأمر خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية، لكن هذه الأحاديث ما لبثت أن اختفت. مالك العزبة هو شاب ألماني بكل معنى الكلمة وشكله كضابط بروسي. ولعل اسمه يفصح عن الأمر برمته (فون بوتكامر)[1].

المنزل الرئيسي يحاكي في بنائه منازل الغابة السوداء[2]. وقد أدخلوا الغزلان إلى المنطقة، ومع مرور السنين استطاعت أن تتكيف وتتكاثر. استطلعنا قدر ما نستطيع من هذه العزبة حيث أنها مترامية الأطراف. أما نهر (تشيموين) الذي يعبر منها، فهو نموذج للأنهار الجبلية التي تندفع بمياهها العميقة ونقاء مياهها مع وجود العشرات من أسماك السلمون المرقط.

نسينا أمر الألمان، وكل ما كنا نحاول حزره بالحدس، ودخلنا سحر عالم صيد الأسماك. أحد المستخدمين أعارنا عدة واصطدنا عددا من أسماك السلمون المرقط. خلال الطريق مررنا ببستان مليء بالكرز الناضج. تناول (بيلاو) حفنة من الكرز، أما أنا فصرت كالخنزير الشره حتى أنني لم أعد قادرا على أن آكل أيا من السمك أو الأضلاع المشوية التي قام (فيوزر) بشوائها والتي كانت رائحتها رائعة. اضطررت أن أنأى بنفسي لقضاء كل تلك الليلة وجزءا من اليوم الذي تلاها وأنا أصارع نوبات الإسهال.

على شاطئ بحيرة (ناويل هوابي) 8 شباط 1952

إنها الثامنة مساء تقريبا. منذ أسبوع وفي مثل هذا الوقت كنا ندخل إلى (سان مارتن دي لوس آندريز). والآن ها نحن هنا عند البحيرة على

---

(1) في الحقيقة أن عائلة (فون بوتكامر) تدعي بأنها استقرت في الأرجنتين قبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل.

(2) منطقة في جنوب غرب ألمانيا تشتهر في قضاء العطلات بها- المترجم.

بعد ستين ميلا تقريبا من (باريلوتشد). حتى بضع دقائق خلت كانت بحيرة (ناويل هوابي) ضربا من لون الزرقة الجميلة. الآن والشمس تميل إلى الغياب أفصحت البحيرة عن وجه متموج من الفضة. وراء البحيرة تشمخ جبال الآنديز بعظمة، يلفها خمار من الضباب المائل إلى الزرقة، والذي زاد من جمالها وروعتها. وبينا أراقب الشمس وهي تختفي بين ذروتين اعتلاهما الثلج، أحاول جاهدا تدوين كافة التفاصيل لما حدث معنا خلال الأسبوع المنصرم. فبالنسبة لي، حتى أبسط الأشياء كانت حاسمة.

يوم الخميس في الحادي والثلاثين نمنا في سقيفة في المتنزه الوطني لـ(سان مارتن دي لوس آنديز). تعرفنا إلى أحد حراس المتنزه وكان رجلا يهتم بالحديث عن زهور المنطقة وحيواناتها. تعرفنا أيضا على (دون أولاته) الحارس الليلي، والذي كان صاحب معرفة واسعة بالأغنيات الشعبية. إنه راعي بقر نموذجي، وزنه يزيد عن الثلاثمائة باوند ومهمته التجوال. ولولعه بالأحاديث والنبيذ الأحمر، كان متحمسا جدا لبقائنا. نمنا هناك وعند بزوغ الفجر انطلقنا بحقيبة أسفار ملأى بمؤن الطعام كي نرى بحيرة (لاكار). إنها مكان محاط بالجبال من كل اتجاه، ومنحدرات تلك الجبال كانت مغطاة بأشجار ضخمة. كنت مذهولا بالجمال البكر وصفاء هذا المكان.

بينما جلسنا نشرب المتّة حلمت أنا و(بيلاو) بمختبر أبحاث طبي، وطائرة حوامة تؤمن لنا احتياجاتنا كل يوم. ولدى انقطاع حلم اليقظة الذي كنا نعيشه هذا، عدنا إلى السقيفة ووافقنا على عرض الحارس الليلي بأن نساعده في تحضير لحم الضأن المشوي لغداء أعده نادي السيارات لمجموعة من سائقي السباقات. أمضينا الصباح بأكمله في نقل خشب النار وبناء الموقد ورفع الأسياخ وإنزالها أمام العين الخبيرة لـ(دون أولاته). وكما كنا نتوقع تماما فقد ألقى علينا عبءالعمل بأكمله، إلا أننا تمتعنا كثيرا.

استمرينا في تذوق الشواء مرة تلو الأخرى، مغمسين كل لقمة طعام بالكثير من النبيذ. ولعل هذا ما ألمع برأسنا الفكرة في أن نسرق ثلاث زجاجات من الخمر الذي كان متوفرا بكثرة. أما (فيوزر) فقد اصطنع

السكر، وقمنا بجولة مبتعدين وقد أخفينا زجاجات الخمر تحت قمصاننا، وبعد ذلك خبأناها في حفرة على جانب الطريق. بعد ذلك وشعور من الاعتداد بالنفس قد اعترانا، تحدثنا مع شخصيته جديدة هو (دون بندون) وقد كان نموذجا للمخنثين. كان رجلا، إنما كل ما فيه من شعره وصوته وصدره البارز وطريقة مشيته كان بهيئة امرأة. لابد وأن الصبغات السينية في تركيبته الوراثية كانت تفوق ما يحتويه كتاب رياضيات بأكمله.

خلال حديثنا جئنا على ذكر أننا جئنا من قرطبة، فأخبرنا بأنه عمل في شركة إنشاءات كانت توظف عدة رجال من قرطبة، ومن بينهم شخصا أعرفه بالتحديد وهو (لويس لويولا). إنه من فيلا كونسيبسيون ديل سيو[1]، وهو صديق لي. قلت ذلك وأردفت له: (إذا رأيته، أخبره بأن جرانادو هنا.

في هذه الأثناء كان قد حل الليل. جمعنا بقايا اللحم لأجل عشائنا. وهكذا بتمهل إلى أن غادر الجميع. بعد ذلك، ونحن مسرورين بأنفسنا، ذهبنا لإحضار زجاجات الخمر، ولكنها كانت قد اختفت.

في الثالث من الشهر ذهبنا لمشاهدة سباقات السيارات. ذلك أن عملنا في تحضير الشواء قد أكسبنا تذكرتين لحضورها. كان مشهداً مملاً بأية حال وبينما كنا في طريق العودة استوقفتنا سيارة (جيب) كان فيها (دون بندون) وقد أحضر معه (لويس لويولا).

بعد العناق والأسئلة التي لابد منها ذهبنا إلى أحد البارات حيث كان هناك (تاما سيتوليون) و(هوراشيو كور ينجو) و(ألفريدو موريكوني) وكافة الأصدقاء القدامى في (تيلاكو نسيبسيون ديل سيو) بانتظارنا، كانوا في غاية السعادة لرؤيتي، وأنا أيضا تأثرت كثيرا وغمرتني السعادة. وفي الحال بدأنا نشرب نخب بعضنا بعضا، وقررنا الذهاب إلى (جونين دي لوس

---

1 فيلا كونسيبسيون ديل سيو: بلدة صغيرة في مقاطعة قرطبة حيث عاش المؤلف وعمل كصيدلاني ما بين أيار 1946 ونيسان 1947.

آندريز) حيث يقطنون. تركنا الخيمة وأسرة المخيم هناك في (سان مارتن) وانطلقنا، هم في سيارة الجيب، ونحن على متن الدراجة النارية. وفي منزلهم أكلنا بنهم شديد ونمنا بلا حراك. في اليوم التالي اصطحبونا إلى موقع عملهم. وبآلة لحام كهربائي قاموا بلحم منصب الدراجة بالكامل من جديد.

تلك الليلة شوينا لحم الضأن، وابتلعناه مع كمية كبيرة من الخمر المحلي الفاخر. كان كل شيء جميلا، ولكن ما جعله شيئا خاصا بالنسبة لي هو مودة أصدقائي القدامى وشوقهم للعشاء وشرب الخمر معنا بهذا الشكل الرائع. تذكرنا الرقصات والنزهات التي اعتدت أن أنظمها والتي حسب رأيهم، لم تعد تحدث ثانية. كل انتصاراتي الغزلية عرضت على الملأ من (توما سيتا) و(بيرينشا) و(ليبريه) و(غوردا) إلى (تريستان) وشقيقة (هوراشيو). باختصار بدا وكأني كنت صاحب مغامرات أكثر من (كازانوفا).

وباعتبارأن شقيق إحدى انتصاراتي الغزلية المفترضة موجود، فقد غيرت الموضوع وتابعنا الأكل والشرب. وتكريما لذكرى الأيام الخوالي خرجنا وأدّينا أغنية العاشق دون موسيقا لزوجة (هوراشيو)، والدة الطفلين (كورينجو) أيقظناها وتابعنا الحفلة في منزلهم حتى شروق الشمس. استيقظنا متأخرين، وآثار الشراب مازالت بنا فلم نستطع الانطلاق ذلك اليوم، لذا تم تنظيم عشاء وداع آخر قدمت الشمبانيا في نهايته. كان (بيلاو) مذهولا لحجم الود الذي تذكروني به في تلك البلدة، وكذلك كنت أنا.

في يوم السادس من الشهر، وبعد وعود متبادلة بلقاء آخر في (فيلا كونسيبسيون ديل سيو) في أحد أيام الثامن من كانون الأول مستقبلا، وهو يوم القديس الحامي للبلدة، انطلقنا عائدين إلى (سان مارتن دي لوس آندريز). كانت الطريق الرملية سيئة ما أجبرنا على القيادة ببطء. ورغم ذلك سقطنا عدة مرات لكن دون أن نؤذي أنفسنا كثيرا. سرعان ما بدأت

الطريق ومن خلفها المنظر يتحسنان. ثمة طريق كورنيش جماله بمستوى خطورته أخذنا على طوله بمحاذاة بحيرة (كارهيو تشيكو) ومن ثم إلى بحيرة (كارهيو جراند) لعدة أميال إلى الأمام. أما الأخيرة فكانت بقعة جميلة محاطة بقمم جبلية شاهقة، معظمها تغطيه الثلوج بشكل كامل طوال العام. هناك وبعد ذلك قررنا صعود إحدى القمم. وصلنا إلى كوخ حارس غابات وطلبنا منه الاعتناء بالدراجة. اشترينا بضع أرغفة خبز منه وبدأنا التسلق.

اتبعنا جدولا يصب في البحيرة. كان مجراه يغص بالأشجار المتدلية- أشجار صنوبر الماء والحور الوردي والبلوط والدردار العملاقة. أما الماء فكان يشق طريقه كالأفعى بين وفوق أعلى الجذوع التي قطعها البرق والرياح.

بدأ المنحدر يزداد انحدارا أكثر فأكثر، وبدأ مجرى النهر يتخذ شكل شلالات أكثر غزارة، وعند أحدها اضطررنا لترك مجرى النهر والغوص في طبقة من القصب الكثيف الذي تظلله أشجار ضخمة.

بعد أربع ساعات من التسلق المضني، وصلنا الجزء الغابي من القمة وانعطفنا باتجاه جرف صخري شاهق ارتفع أمامنا وكان فيما يبدو حصينا. دأبنا في التسلق بأطرافنا الأربعة نتعلق بأي جلمود صخر ونستغل أي جزء يمكننا التمسك به.

على بعد عدة ياردات من الحق الثلجي الذي كان يتوج القمة، تمسك (آرنستو)، الذي كان في المقدمة، بجزء صخري نأتي ما لبث أن انكسر. حاول يائسا أن يسنده، و إذ أن ذلك الجزء لو سقط، سيجره معه إلى الأسفل. أسرعت إلى الجهة التي يقف فيها وشاركت مساندته الثقل بإحدى يدي ولكن دون قدم ثابتة لي على الحافة. كلانا كان عرضة لخطر الانجرار إلى الأسفل وبجهد كبير تباعدنا كل في اتجاه، وتركنا جلمود الصخر ينزلق بيننا. ولم أدرك خطورة الموقف الذي كنا فيه إلا بعد أن رأيت جلمود

الصخر يتحطم وهو ينهار قافزا إلى الأسفل، متناثرا إلى عدة أجزاء نحو مائة ياردة في المنحدر.

بعد استراحة قصيرة، انطلقنا ثانية وسرعان ما كنا واقفين نحدق بابتهاج في المشهد الهائل الممتد أمامنا. قذفنا بضع كرات ثلجية على بعضنا بعضا، وبعد أن التقطنا ثلاث أو أربع صور بدأنا النزول.

كنا فرحين بنجاحنا، لكن دون أن ندري شيئا عن الخطر الكامن أمامنا قبل أن تصل هذه المغامرة الصغيرة إلى نهايتها. بدأنا النزول بمحاذاة المجرى الذي شكله ذوبان الثلج، وكنا نتمسك بأغصان زهر (الآريان) والتي نمت على هذا الارتفاع لتصبح كالشجر. كانت فروعها سميكة حتى أننا اضطررنا تقريبا للزحف تحتها بين المنحدر والهاوية التي تنفتح تحت أقدامنا.

بدأ نزولنا يتباطأ شيئا فشيئا. كانت الشمس قد مالت إلى المغيب عندما وجدنا أنفسنا فجأة على حافة جرف شاهق. أصبحنا أمام خيار إما العودة، وهي شبه انتحار، وإما محاولة جر أنفسنا للأعلى على جانب الجبل، وذلك عن طريق أغصان زهر الغمد، إلى أن نجد سبيلا آخر. هنا تولى (فيوزر) شق الطريق.

بعد بضعة ياردات نحو الأعلى، وجد ممرا ضيقا يفضي إلى عمق الغابة، وإلى مسافة أبعد في المنحدر. أثناء تسلقي خلفه، شعرت بالصخرة التي تستند إليها رأس قدمي تنفلق. نجحت وبعد أن كاد اليأس يتمكن مني، في أن أمسك بعض الشجيرات العشبية التي كانت قد نمت في شقوق الصخرة، وصرت أراقب والكرب يشتد علي. كيف بدأت جذور تلك الشجيرات الضعيفة تقتلع تحت تأثير ثقلي. لحسن الحظ وجدت قدماي صدعا، وشبكت أصابع يدي في صدع آخر فتمكنت من أن أمسك نفسي هناك والتقط أنفاسي. حينها بالضبط، التفت (فيوزر) إلي، وكان قد قطع مسافة عني، فقد استشعر في تأخري حدوث شيء غريب. مد يده لي من الأعلى. التفت إلى الخلف وأنا ألهث فوجدت نظارتي التي سقطت

خلال مقاومتي كانت آخر خيوط الشمس قد لمت عليها في قعر الهاوية. وهي بدورها أرسلت غمزة وكأنها تقول: (لقد نجوت بمعجزة).

تابعنا نزولنا خلال الغابة والأرض القصبية وقد لف الظلام المكان. وكنا نتعثر بجذوع الأشجار المتساقطة، فنهوي أرضا ثم ننهض لنسقط ثانية. كنا منهمكين، ولكن شيئا واحدا أكيدا كان هو أن معنوياتنا كانت عالية، إذ كانت النكتة لا تفارق كل موقف لنا سواء سقطنا أو علقت ملابسنا بأغصان الشجيرات البرية. أخيرا وعندما استهدينا لمجرى النهر ثانية، كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة ليلا. اتبعنا المجرى النهري وبعد ذلك بوقت قصير واجهنا المنظر الرائع للبحيرة التي اكتست ضوء القمر. رغم أننا كنا نتوق للعودة، إلا أننا اضطررنا للجلوس على الحافة والاستمتاع بجمال البحيرة والتلال التي تسورها. في تلك اللحظة بدت الغابة لنا، وقد اكتست حلة فضية تحت ضوء القمر، كأنها غابة قد تحجرت. في النهاية وصلنا حجرة حارس الغابة ونمنا في المطبخ.

في صباح اليوم التالي قدنا دراجتنا على طول شاطئ بحيرة (لولوج) ووصلنا (سان مارتن دي لوس آنديز) حملنا عدتنا ثم انطلقنا. قطعنا بحيرة (ماتشيوكو) ومن ثم طفنا ببحيرات (فيلارينو) و(هيرموسو) و(تورمنتوسو) في النهاية، قررنا التوقف والتخييم عند البحيرة التالية التي ستصل إليها. ما هي إلا بضعة أميال حتى وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع بحيرة (إيسبيجو جراندە). إن وصف جمالها وصفائها ضرب من المستحيل، ولعل الاسم وحده يبوح بكل شيء المرآة الرائعة. في هذا المكان مررنا بتجربة مضحكة أثبتت من جديد قدرة (آرنستو) على ارتجال الأفعال الحاسمة.

نصبنا الخيمة تحت شجيرات من الزهور تكاد تلامس الماء. تناولنا بعض اللحم المعلب ثم قررنا أن نملأ ما بقي فارغا من زوايا معدتنا بالمتة والخبز القديم.

فجأة ظهر لنا رجل يمضي سيرا على الأقدام. اقترب منا وألقى التحية. دعوناه للجلوس معنا وتناول المتة. قبل دعوتنا وشرع في حديث

طويل تارة كان محادثة وأخرى استئثارا بالحديث. بدأ بتمجيد فضائل دراجتنا النارية، وصار يسألنا عن ثمنها وقوة اسطواناتها. ثم ركز انتباهه على حقائبنا السرجية، وبعد ذلك على نوعية ستراتنا الجلدية.

كان يتولى معظم الحديث وكنت أرد عليه بجفاف لئلا تسترسل لديه حالة الإسهال الكلامي. (فيوزر) لم يقل شيئا واستمر في تنقيع المتة. بعد ذلك بدأ ضيفنا يتحدث عن لص تشيلي كان يجول المنطقة. وصار يحذرنا من مخاطر النوم في العراء فيما لص كهذا يجول طليقا، وأن بإمكانه بكل سهولة أن يسلبنا دراجتنا وملابسنا ونقودنا. أديت له تعليقا كان مناسبا، أما (فيوزر) الصامت كأبي الهول، فاستمر يحضر المتة ويراقب زوجا من البط تتغازلان بينما تسبحان بالقرب من الشاطئ.

استمر صاحبنا بالحديث عن ذلك التشيلي وحاول انتزاع بضع كلمات من (بيلاو). فجأة وفي لحظة سكون، استل (آرنستو) مسدس (سميث ويسون) كان يحمله في جراب جزمته، ودون أن يسدد تقريبا، أطلق النار على إحدى البطتين التي ألقت صرخة الموت واستلقت طافية على جنبها. جفل زائرنا الذي جاء بغير وقته، وانتصب على قدميه بعد أن أوقع من يده كأس المتة، واستأذن بالانصراف على عجل. ولدى رحيله انفجر (فيوزر) مقهقها في الضحك.

كي لا ننصب الخيمة لليلة واحدة فقط، نمنا بجانب الدراجة ومددنا غطاء القنب فوقنا. انطلقنا عند الفجر صوب (باريلوتشه). وبعد إحدى عشرة ساعة من القيادة انتهى بنا الأمر برؤية (نوبل هوابي) الشهيرة حيث نحن الآن.

لعل محاولة وصفها ستكون تكرارا لكل ما استخدمته من صيغ. كيف لي أن أرسم بالكلمات تلك الألوان المتبدلة ما بين السماء والماء، وتلك الضخامة التي تلف القمم الثلجية، وذلك الصفاء الذي يهيمن على المنظر بأكمله؟ كل ما بوسعي قوله هو أننا، ودون أن ننطق بكلمة لبعضنا، انعطفنا عن الطريق واتجهنا نحو حافة الماء. هناك، جلسنا تحت شعاعات

الشمس المحتضرة، وجعلنا نحدق بإعجاب في تلك العظمة الممتدة أمامنا. في النهاية لم يبق من ضوء يؤنس الشاطئ سوى ألسنة اللهب المتراقصة في موقدنا. وفي هذا الضوء الخافت فقط اكتشفنا تاج زهور (الآريان) الذي رقدنا تحته.

الآلة الأمثل للاستغلال

في الطرق إلى (باريلوتشه) 9 شباط 1952

تعرضنا اليوم لبعض العوائق الميكانيكية، ولم نستطع إكمال سوى خمسة وعشرين من الأميال الستين المتبقية لبلوغ (باريلوتشه). أضعنا اليوم بأكمله، لكن ما رأيناه وسمعناه في الأربع والعشرين ساعة هذه كان يستأهل الوقت الذي ضاع.

كي نحل مشكلة الدراجة قمنا بدفعها نحو مجموعة من المنازل المتواضعة القابعة على جانب الطريق. سرعان ما تعرفنا على عددٍ من الأهالي، وعرفنا فورا بأنهم ليسوا من هنا، بل من (سانتياجو) و(لاريوجا) أي من مقاطعات تبعد نحو ألف ومائتي ميل تقريبا.

نتيجة لحالة الأسر التي انتابتنا، بدأنا نحول الحديث تدريجيا إلى الأسباب التي جاءت بهم إلى هنا. وهذا ما قادنا لاكتشاف شكل فظيع من الاستغلال الذي يقوم به ملاك الأراضي الأرجنتينيون والألمان واليهود واليانكي لهذا الإقليم الزراعي الغني إلى أبعد حد.

إنها منطقة شاسعة تبلغ مساحتها ما يربو على مائة ألف ميل مربع، تسمح مراعيها الطبيعية الغنية وغاباتها الصغيرة بالقيام بالأعمال الرعوية الضخمة دون الحاجة إلى العمالة البشرية. كل صاحب مزرعة لديه اثنان أو ثلاثة من المستخدمين المتناثرين في أرضه، وهؤلاء وعائلاتهم يقومون

بتغطية مسافات كبيرة على ظهر الخيل يراقبون فيها أية مشكلات عرضية من إصابة قد تحدث لحيوان ما، أو مشكلة تعترض نعجة حين التزاوج- الأشياء البسيطة فقط لأن هؤلاء الأوليجاركيين[1] يحملون من المكر والخداع مقدارا يساوي ما يحملونه من قسوة القلوب. لقد وصل بهم الأمر حد إبادة الثعلب الأحمر، الحيوان البري الوحيد الذي يفترس صغار الحملان، عن طريق منح جائزة قدرها بيزو أرجنتيني واحد مقابل قتل ذكر ثعلب واحد، وخمسة بيزوات مقابل قتل الأنثى. ومنذ خمسة عشر عاما كانت الخمسة بيزوات توازي أجرة أسبوع كامل لمستخدم المزرعة. خلال بضعة أعوام تم إبادة الإناث وهو ما أدى عمليا إلى انقراض هذا النوع. مفاد قولي هو أن ثروة ملاك الأرض تضاعفت دون حاجتهم للاستثمار في معدات أو موظفين أو عمال مزارع.

لكن هناك وقت خلال السنة يحتاجون فيه أعدادا من العمال- إنه موسم جز صوف الخراف. لذا ومرة أخرى تدور عجلة الآلة الأفضل استغلالا مئات النشرات الإعلانية تطبع عارضة فرص عمل مع تأمين المأكل والمسكن والأجر الجيد لجزازي الصوف. تلك النشرات توزع في أنحاء (تشوبت) و(نيوكوين) والجزء الجنوبي من مقاطعة (بوينس آيرس) و(قرطبة) و(منيدوزا)، بل وتصل حتى (سانتيا جو ديل ايسترو) و(سان جوان) و(لاريوجا). هذه الخدعة التي يعرفها العمال المحليون جيدا لا تنطلي عليهم، لكن العاطلين عن العمل في المقاطعات الأخرى يصلون إلى هنا بأعداد كبيرة، إما بمفردهم أو بصحبة عائلاتهم. ولعل ما يزيد تلك الطوابير تضخما هو مئات التشيليين الذين يأتون أيضا بدافع الجوع. لعله في لحظات كهذه يتجلى الوجه الحقيقي للرأسمالية.

خمسمائة أو أكثر من جزازي الصوف يصلون إلى المزرعة الواحدة، بينما لا تحتاج هذه سوى لثلاثمائة فقط. لذا يقف رب العمل ليفتتح مزادا

---

(1) الأوليجارك (Oligarchs): أحد أعضاء حكومة الأقليات أو أحد مؤيديها- المترجم.

علنيا مستهزئا بقانون نقابة العمال. وبدلا من توحيد الصوت والقول: (لا أحد يجز الصوف بسعر أقل، دعوا النعاج تحتفظ بصوفها).

يشعر العمال بأنهم مكرهون على الدخول في صفقات مشبوهة لينتهي بهم الحال وهم يعملون بأجر أقل بكثير. وفي بعض الحالات –مثل أولئك الذين تحدثنا معهم– لا يعود العمال إلى مقاطعاتهم الأصلية بعد موسم الجز، بل يستجدون عملا هنا وهناك في محاولة لأن يكونوا في مقدمة العمال في موسم الجز القادم.

بعد أن عرفنا شيئا فشيئا هذا النوع من الاستغلال، والفقر المطلق لهؤلاء الرجال، ملأتنا حالة اللاعدل هذه بالحقد. لكن هذا ليس كل شيء، فعندما سألنا عن مكان القطعات، قالوا إنها على طول النهر. هذا يسمح للملاك بإرسال صوفهم بالقوارب إلى موانئ تستطيع من خلالها أن تشحن إلى أسواق أوروبية.

لا يمكن أن يكون السلب والنهب بشكل أفضل من هذا. فملاك الأرض لا يحتاجون للاعتناء بالأرض أو تحسينها فلديهم الملايين والملايين من الاحتكارات. إنهم لا يحتاجون أيضا للاستثمار في أجور العمالة، فثمة الآلاف من العاطلين عن العمل حولهم. كذلك لا يحتاجون لبناء الطرق، فالأنهار بحد ذاتها تشكل طرقا سريعة، والصوف ينتقل مباشرة إلى العواصم الأرجنتينية حيث الملاك يلعبون البولو ويقودون سيارات الـ(ألفا روميو) والـ(بوجاتي). كل ما تحصل عليه الأرجنتين هو استغلال شعبها. واستنزاف ثرواتها النباتية والحيوانية.

(أنت محق يا (آرنستو)، وجه وقفا بالفعل شعوب وبلدان تتعرض للاستغلال والإفقار لأجل راحة الرأسماليين المحليين والأجانب).

(باريلوتشه) 11 شباط 1952:

أمس أمضينا يوما آخر بين سعد وبخس كانت نهايته بحادثة مأساوية ومضحكة معا.

بعد وداعنا للعمال انطلقنا إلى (بارايلوتشه) القريبة الصعبة الوصول. بعد بضعة أميال على الطريق انفلتت سلسلة جهاز التدوير في الدراجة ونحن على وشك صعود هضبة. أمضينا عدة ساعات نحاول إصلاحها ولكن عبثا. نحو منتصف النهار، صبي البقر وعمره عشرة أعوام يمتطي مهرا صغيرا أخبرنا بأن المزرعة التي يعمل فيها كمساعد لسائس خيول رياضة البولو كانت على بعد نصف ميل في أعلى الطريق صعودا.

ذهبت سيرا على الأقدام حتى وصلت المنزل، وطلبت إذنا بإحضار الدراجة إلى هناك فسمحوا لي بذلك. هذا الإذن منحتني إياه امرأة كانت إما صاحبة المزرعة أو مديرتها. كان لديها كلب صيد صغير وقف بجانبها طيلة الوقت الذي كنا نحدثها فيه، وكان يصدر صوت هرير بين الحين والآخر.

دفعنا الدراجة إلى أعلى التلة التي كانت شاهقة وتطلبت جهدا خارقا ولبلوغها. مرت علينا لحظات بدأ فيها أننا لن نقوى على زحزحة الدراجة من شدة التعب. بعد أن قهرنا التلة، سندنا الـ(بوديروسا 2) إلى كومة قش، وجلسنا لوقت طويل كي نسترد قوانا.

بنينا موقد نار وتناولنا بضع كؤوس من المتة بينما كنا نتحدث مع مجموعة من مستخدمي الزراعة عيون كلب الصيد كانت مسمّرة علينا، وكان ينبح علينا إثر كل حركة لنا نحو الدراجة. وبينما كنا نستبدل بعض الوصلات في السلسلة بأخرى أخذناها من جرار زراعي، تحولت المحادثة إلى موضوع تناهى إلى مسمعنا من قبل- ألا وهو وجود (كوجر)[1] تشيلي (لاندري كيف يميزونه عن الكوجر الأرجنتيني) كأنه بمثابة كابوس يؤرق كل الحراس على حدود العزبة.

---

(1) الكوجر: حيوان كالنمر المرقط، أسود اللون في القارة الأمريكية الشمالية وثمة أنواع منه كالـ(بوما) التي جاء الكاتب على ذكرها توجد في أمريكا الجنوبية بأعداد أقل.

جربنا تشغيل الدراجة، وقد نجح ما قمنا به من ترقيع للسلسلة. بعد ذلك ذهبنا لتناول الطعام كوننا ضيوف مستخدمي المزرعة. وكما الحال دوما، فالفقراء أكثر كرما وحسنا في الضيافة من أصحاب العزب الأثرياء. عندما أرخى الليل سدوله، تسلقنا إلى داخل مخزن التبن ونمنا على الفور، فقد بلغ منا الإجهاد ذلك اليوم حد الإنهاك. فجأة أيقظنا ضجيج غريب، فعند المدخل رأينا عينان تلمعان في الظلام سمعت صوت عيار ناري أطلقه (آرنستو)، وكنت مازلت نصف نائم. كعادته، بسرعة وفي التوقيت المناسب، كان قد أستل مسدسه من الحقيبة التي كان يستخدمها كوسادة. بعد ذلك على الفور سمعنا صوت عواء، وقلت له: (لقد أجهزت على الكوجر يا (بيلاو) ومن ثم عدنا إلى النوم.

عند الفجر أيقظنا صوت نحيب صاحبة المزرعة. لقد وجدت لتوها كلبها ملقى دون حراك ورصاصة قد زرعت في رأسه. كانت في حالة من الغضب تعذر معها توضيح ما حصل بالضبط. بدأت تقذفنا بوابل من الإهانات لم يقطعه سوى نوبات بكائها وهي تقول: (آه يا كلبي الصغير المسكين). دون أي جلبة أخرى، جمعنا أشياءنا، وعندما لم نستطع تشغيل محرك الدراجة، قفزنا فوقها وانزلقنا نزولا في التلة. لا شيء كان يطاردنا سوى النواح والشتائم الصادرة عن المرأة المسكينة، التي حضنت كلبها الميت بين ذراعيها.

عندما وصلنا إلى (باريلوتشه) اليوم، وبعد جولة فيها لم تدم طويلا، نجحنا في تدبر أمر قضاء ليلتنا في ثكنة للحرس الوطني وهو فيلق مهمته حماية الحدود من عمليات التهريب، لكنه في الواقع يستخدم أداة للقمع من قبل أي حكومة ترأس البلد. في ظاهره يبدو منفصلا عن الجيش الأرجنتيني، لكنه طبعا، كالجيش، ينفذ فقط سياسات الأقلية الحاكمة، وأسيادهم الجانب.

تلك الليلة تناولنا العشاء مع مجموعة المناوبة. كان هناك بحار يتناول عشاءه معهم أيضا. كان قد فر من سفينته في (كلكتا) وأخذ تحت

الحراسة إلى (بوينس آيرس) عن طريق (تشيلي). لقد رسم صورة جلية لمغامراته على متن مركب قرصنة تحت راية بانامية، يبحر في السواحل الكاريبية، وكذلك عن الرتابة المملة في الرحلة الطويلة من قناة (باناما) إلى ساحل الصين. وصف لنا الحياة المزرية في ميناء (هونج كونج) الذي ينتظر سكانه الجياع ما يهمل من فضلات كي تقذفه لهم السفن الزائرة، ومن ثم يقذفون بأنفسهم كنوارس الماء كي يقتتلوا على فتاته.

(باريلوتشه) 12 شباط 1952:

بعد ظهر اليوم تعرفنا بزوجين من (نيو جرس) بلغا الستين من العمر، وقد جاؤوا من الولايات المتحدة إلى هنا بسيارتهما الطويلة المغلقة. ورغم أن آليتهما مزودة بعدد جيدة، فما بقي مثيرا للإعجاب هو الروح والعزيمة اللتان يمتلكانها للقيام برحلة كهذه في مثل سنهما. رتبنا أمر تناول العشاء سوية بعد عودتهما من جولة في شواطئ البحيرة.

انتظرنا وقتا طويلا، وبعد مضي الوقت المتفق عليه بمدة طويلة، عدت و(بيلاو) جائعين وحزينين إلى مركز الشرطة. حيث كان يتم إطعام السجناء. لذا تناولنا العشاء مع صحبة هي الأكثر انتقائية وزخرا بالمشاهد مما يمكن تخيله.

وقفنا حول طاولة نقضم قطعة من اللحم البارد. أما أولئك الذين شاركونا وليمتنا فهم، البحار الذي فر من سفينته. كان يقف مواجها لي متبجحاً ودون أن يتوقف عن المضغ لحظة- ويقول إنه رغم تناوله الآن هذه القمامة، ففيما مضى، في اليابان، كان قد اشترى فتاة عمرها أربعة عشر عاما لاستخدامه الشخصي وتنازل عنها فيما بعد. إلى يساري وقف أحد المجرمين الذين تحجر قلبهم. كان يأكل بطريقة تتسم بالرسمية وبمنتهى الصمت. كذلك أحد الثملين الذين غمرهم الخمر لدرجة أنه لم يعد قادرا على الأكل، وكان يبربر بشكل غير مفهوم. في المقابل وبتعبيرات حساسة

أقتضمتها أنوثتها، وقفت امرأة مجنونة سيئة الحظ كانت تتمتم بألفاظ فاحشة بينما نأكل. انتهينا من الأكل بسرعة وتركنا المشهد الدانتي[1]، الذي كان انعكاسا صادقا لحالة الخراب التي يصل إليها الناس عندما لا نقف في وجه النظام الفاسد القذر الذي يحكمنا.

(1) منسوب إلى الشاعر الإيطالي دانتي (1265-1321).

في (آروكانيا)

بيولا، 14 شباط 1952:

يوم أمس عبرنا الخط الوهمي، إنما الحقيقي، الذي يفصل ما بين الأرجنتين وتشيلي. لا يمكنني القول، وبكلمات الـ(باسو دوبله)[1]، بأنني عدت وعيناي مفروقتان بالدموع، لأنه على الرغم من أني أرحل تاركا بلدي الأم والأحباب ورائي، إنما ثمة آخرين لأحبهم وبلدانا أخرى لأراها بما أن بوصلتنا قد أشارت شمالا صوب بقية أمريكا اللاتينية.

إذا كان من شيء قد زاد حزننا، فهو أننا ومرة أخرى كما في أجزاء كثيرة من حبيبتنا الأرجنتين، شهدنا الحاجة إلى التغيير السياسي الاجتماعي الجذري الذي ينهي استغلال الإنسان لأخيه الإنسان واستغلال بلدنا من قبل اتحادات المنتجين الدولية.

في الصباح وضعنا الـ(بوديروسا 2) على متن زورق يعبر بحيرة (ناهويل هوابي) وسرعان ما طوقتنا نظرات السائحين اليانكي، والألمان والتشيليين والأرجنتين الذين استمروا في مضايقتنا بأسئلتهم وتعبيرات الإعجاب بجرأتنا. لا أحد منهم طبعا يعتقد بأننا سننجح في المضي إلى ما أبعد من (سانتيا جو تشيلي) سواء بالدراجة أو بدونهما. قلت لنفسي سوف نلقى

---

(1) (باسو دوبله) Pasodoble: رقصة شعبية إسبانية مشهورة تؤدي مع أغنية تسمى (Espana Cani) وهي ذات كلمات بسيطة تشوبها نفحة حزينة كثيرا ما تغنى في مصارعة الثيران. (المترجم).

ما سنلقاه. وقبل الانطلاق استبدلنا آخر بيزوات لدينا بدولارات وسنرى كم ستكفينا.

عندما وصلنا (بورتو بليست)، مضينا مباشرة إلى (بورتو أليجريه)، حيث أقلنا زورق آخر إلى (بورتو فرياس) آخر مركز جمارك أرجنتيني في المنطقة. بعد ذلك بخمسة عشر ميلا بلغنا (بويلا)، وهي مدينة صغيرة جميلة بجانب بحيرة (إزميرالدا) وتعرف أيضا باسم (تودوس لوس سانتوس)، حيث لونها الزمردي يضاهي بروعته الحجر الكريم الذي سميت باسمه.

مرة أخرى رأينا وجهي العملة، الوجه في جمال المنظر ولطافة الناس، والقفا في استغلال هذا الجمال بأكمله من قبل الشركة التي تملك الفندق، والحافلات التي تنقل السائحين، واليخوت التي تجول البحيرة. باختصار شركة تمتلك المكان برمته، بما في ذلك كل من يعيش هنا، بما أنها مصدر العمل الوحيد.لا أحد يمر من هنا دون أن يدس بضع بيزوات في جيوب تلك الشركة. بشكل طبيعي، نحن في خصام مع التقاليد، وبدل أن نتجه صوب الفندق، عكفنا مباشرة باتجاه رصيف الميناء. هناك، وبعد أن تحدثنا مع الوكيل، نمنا في سقيفة محاطة بأشرعة يخوت ممزقة وحبال مطلية بالقار.

انسجاما مع سياستنا في عدم الدفع لأي شيء إذا استطعنا ذلك، وبعد عدة محاولات فاشلة، نجحنا في الحصول على عمل فوق زورق يعبر البحيرة بحمولة خشب وسيارة. وكان السماح لعبور دراجتنا على متن الزورق بمثابة الأجر الذي سنتلقاه.

بحيرة نوبل هوابي 15 شباط 1952:

قمنا هذا الصباح بتحميل الزورق الضعيف الذي لا يستحق أن ينزل الماء، والذي يجره مركب بخاري صغير يدعى (إزميرالدا) يقوم بنقل السيّاح.

بالكاد كنا قد بدأنا تحركنا، عندما بدأت مقدمة الزورق تغطس في الماء. تعين علينا إعادة توزيع الحمولة وتمرير بعضها إلى (إزميرالدا). وبما أن

أحداً لم يشأ الغوص لالتقاط حبل الشد الذي ألقي بينهما، كان علي فعل ذلك بنفسي. كانت علائم نوبة الربو تتبدى على وجه (فيوزر) لذا لم أشأ أن أدعه يفعل ذلك بأية حال، رفعوني بالرافعة إلى المركب الثاني، حيث تصاحبت مع فتاتين برازيليتين، إحداهن كانت تدرس الكيمياء الحيوية. كانت مذهولة أن رأت زميلا لها يعاني هذه الظروف.

عدت إلى الزورق بعد أن قفزت فوق رافعة المركب. كان علينا فعلا أن نبذل جهدا مضنيا كي نزيل الماء من جوف القارب الذي كان يرشح من كل الجهات. أما المضخات فكانت بالكاد تعمل، لذا اضطررنا لتفريغ جوفه بجرادل الماء. لقد خارت قواي تماما وابتعدت عن العمل. أجلس الآن لأكتب تحت ظل الجسر. من هنا أستطيع مشاهدة الأمواج. لقد تبدل حال الريح، والدراجة قد أغرقت بالماء. سأرى إن كان بمقدوري الحصول على غطاء من القماش المشمع كي أغطيها.

(لوتارو) 21 شباط 1952:

انقطعنا في هذه البلدة التشيلية الصغيرة وأمسينا بوضع لا نحسد عليه. تعرضنا لعطل ميكانيكي خطير، أظهر مرة أخرى مدى ضيق فرص نجاحنا في الاستمرار مع الـ(بوديروسا 2) بصراحة، هذا أمر كان يجب أن نتوقعه. لقد اجتزنا كل هذا الطريق بحالة أقل ما يمكن وصفها بأنها محفوفة بالمخاطر. فقد تعطل شاحن البطارية في (باليستيروس) ولم نكن قد قطعنا سوى ستين ميلا عن نقطة انطلاقنا. كذلك المكابح الخلفية أصابها الإعياء، ومنذ ما بعد (باهيا بلانكا) ونحن نفرمل تقريبا باستخدام ناقل الحركة. أعني، لقد كان لنا أن نتمتع ونخوض مغامرة عبور أعلى سلسلة جبلية في العالم دون مكابح، فمنذ (دونين دي لوس آنديز) إلى هنا لم تعد المكابح الأمامية تعمل إلا بشق النفس هي الأخرى. بأية حال، سأستمر في سرد وقائع الأحداث منذ الخامس من شباط.

بعد أن قمت بتغطية الدراجة، استمريت في تفريغ الماء من حوض الزورق إلى أن وصلنا (بيترو هيو). حيث ارتدينا أفضل ما لدينا من ملابس في الزورق، لا بل أن (بيلاو) أخذ حماما. ومن ثم ذهبنا لمقابلة الفتاتين البرازيليتين. أخذت زميلتي ونزلنا إلى شاطئ البحيرة. وبعد الحديث عن الكيمياء الحيوية استمرينا، وبقبول متبادلة، في الحديث عن التشريح الوصفي. أتمنى لو لم أصل في الحديث إلى موضوع علم الأجنة.

في صباح السادس عشر تلقينا عرضا بأن ناخذ عربة نقل تصل بها إلى (أوسورنو). كان (آرنستو) ليقودها وأنا سأتبعه على الدراجة النارية. كانت الطريق إلى البلدة تسير بمحاذاة بحيرة (لانكيهيو)، على سفح بركان (أوسورنو). وكانت الحمم البركانية الناجمة عن الانفجارات القديمة تغطي مساحات منها جاعلة السير فوقها بالغ الصعوبة.

لأول ميل أو ميلين يبدو المنظر رائعا. وفي بعض الأماكن يضيق الدرب ويتخذ شكلا تفرضه عليه الأشجار على الجانبين. وحالما تبتعد قليلا بعد البحيرة يصبح المنظر مختلفا تماما.

هنا تظهر الأراضي التي تزرع لصالح السوق، والمزارع الصغيرة التي تزرع القمح وطبعا كل ذلك بأيدي المزارعين المستأجرين الذين يحرثونها ويبذرون الحب فيها، بينما يعيش المستغلون ذوو الأرباح الفاحشة كالطفيليات في (أوسورنو) و(سانتياجو).

وصلنا إلى (أوسورنو) وبعد التجوال اللامثمر حول ثكنة شرطة الحدود، انتهى بنا الأمر في مشفى خاص تمتلكه شركة تأمين. استقبلنا المدير الذي كان مهذبا، ولطيفا جدا، إلا أن مظهره الخارجي كان طفوليا، وغريبا عن المنطق إلى حد أننا لم نقوعلى كبت ضحكاتنا. حاول أن يقنعنا بأن أي بلد -ولاسيما تشيلي- بحاجة لأن يحكمها دكتاتور. كل جدلياته كانت مفككة وبعيدة الاحتمال، حيث أنه وللأمانة، من خلال تلوينه للعبارات بصيغ محلية، بدا وكأنه شخصية أفرزتها مسرحية هزلية ساخرة.

ولعل السمة الوحيدة الجدية والأكثر خطورة في كل هذا هي أن الرغبة بوجود الدكتاتورية -والممثلة هنا بأنصار الجنرال (إيبانييز)[1]- عميقة الجذور، وليست فقط في الأذهان كما في حالة صاحبنا. لقد وجدنا القناعة نفسها في كل شبر وصلنا إليه في (تشيلي) حتى الآن. فقط (إيبانييز) يمكنه إنقاذ البلد، رغم أن لا أحد لديه فكرة عن كيفية ذلك. الناس يؤمنون به وكأنه هبة من الله. ولم تمض سوى مدة قصيرة طبعا حتى رزح بلد آخر من جيراننا تحت نير نظام حكم يحكم بالعنف، يقوده رجل لا يمتلك حتى ذكاء (بيرون)[2].

غادرنا (أوسورنو) يوم السابع عشر من الشهر وقد تعطلنا بضع ساعات بسبب حادثة سخيفة، فقد أضعنا البرغي الذي يثبت واقية السلسلة. (دراجتنا البوديروسا 2) أمست الآن تشتكي لنا كل آلامها وتأوهاتها). مع حلول الليل التمسنا ملاذا لنا في إحدى المزارع الصغيرة. اختلقنا لهم قصة ضوء الدراجة الأمامي المعطل، فسمحوا لنا بالبقاء، بل حتى دعونا للعشاء. الشخص الذي اعتنى بنا كان مزارعاً مستأجراً فقيراً. صاحب مزرعته والذي يمتلك عدة مزارع صغيرة أخرى لا يسمح له بالحصول حتى على جيوب من المحصول. ومن الذي سيقوم هذا النوع من اللاعدالة؟ (إيبانييز)؟ نظرت أنا و(فيوزر) بعضنا إلى بعض وباتفاق ضمني لم نقل شيئا.

في اليوم التالي بدأنا التحدث بحذرٍ عن الإصلاح الزراعي، وكيف أن الأرض يجب أن تكون لمن يعمل بها، وليس لأولئك الذين حتى لا يرونها أحيانا.

---

(1) كارلوس إيبا نييز ديل كامبو Carlos Ibanez del Campo (1877-1960) سياسي وجنرال عسكري انتخب مرتين رئيسا ل(تشيلي)، لكنه حكم كدكتاتور.

(2) دوان دومينجو بيرون Juan Domingo Peron: (1895-1974) ضابط في الجيش أصبح رئيسا للأرجنتين عام 1946. كانت له شيعة كثيرة مع زوجته (إيفا بيرون) وبعد وفاتها فقد الكثير من شعبيته واضطر لمغادرة البلاد عام 1955. أثناء ذلك عاد وأصبح رئيسا للبلاد مرة أخرى عام 1973. (المترجم).

قصر الرجل المسكين الحديث قائلا: لا أريد من أحد أن يعطيني شيئا. لقد خلق الله الغني والفقير معا. ما أريده فقط هو أجرتي عن العمل الذي أؤديه، والجنرال (إيبانييز) سيحرص على ذلك.

شكرناه ثم تركناه ونحن نشعر بالحزن والإحباط.

وصلنا (فالديفيا) وذهبنا إلى القنصلية الأرجنتينية حيث تلقينا استقبالا باردا طبعا. ولدى ظهورنا مرتدين لباس الدراجة والشحم والغبار يغطياننا، ألقى القنصل الوسيم، النظيف الوقور نظرة علينا وقرر على الفور أننا غير جديرين بانتباهه فتخلص منا بأسرع ما أمكنه.

حالما خرجنا قمنا بنزهة سير على المرسى عند نهر (كاليه كاليه). ميناء (كوراليس) البحري يبعد عشرة أميال عن (فالديفيا) والسبيل الوحيد للوصول إلى هناك هو عن طريق النهر. وإذ أننا لم نكن نقصد مكاناً بعينه، فقد مررنا بمكاتب جريدة (فالديفيا) اليومية. وبعدأن عرّفنا بأنفسنا، اتخذت حياتنا منعطفا جديدا، فقد نشرت الجريدة على الفور مقالا من عمودين عنا، مع سلسلة من الأخطاء والقصائد الحماسية المثيرة للضحك.

غادرنا قاصدين (تيموكو) في الخامسة عصرا. وعند الغسق وصلنا إلى مزرعة كبيرة تدعى (لوس سير يلوس). تذرعنا بحجة الضوء الأمامي من جديد قائلين بأنه قد تعطل للتو. وكما العادة تلقينا ترحيبا جيدا، ولكن حينما عرفوا، من خلال الحديث، بأننا طبيبين أخذت الأمور منحى أكثر حميمة، وبدل زاوية في إحدى الأبنية الخارجية للمزرعة، حيث أنزلونا في البداية، انتهى أمرنا في غرفة الضيوف وذلك بعد تناولنا عشاء مترفا وإمتاعهم بقصص مغامراتنا.

في الثامن عشر من الشهر انطلقنا إلى (تيموكو). وبعد نحو خمسة وعشرين ميلا تعرضنا لثقب في عجلة الدراجة، كان يوما بغيضا، فقد هطلت زخات من الرذاذ الناعم أغرقتنا شيئا فشيئا حتى تبللت جلودنا. وبينما كنا نخرج الأدوات من أجل تبديل الإطار الداخلي للعجلة. بزغت

الشمس بحل تجلى في هيئة عربة نقل عرض سائقها أن يقلنا مع دراجتنا وصولا إلى (تيموكو). حملنا الـ(بوديروسا 2)، والتي سرعان ما ستأخذ اسما جديدا هو (الضعيفة 2)، في مؤخرة العربة وبدأنا نتعرف إلى السائق. اتضح بأنه طالب طب بيطري ذو شخصية لطيفة ويحمل الكثير من الأفكار الجيدة. رتبنا أمر اللقاء تلك الليلة كي نسترسل في الصخب والمرح.

أنزلنا الدراجة في شارع خلفي، وشرعت في فك العجلة، بينما ذهب (آرنستو) إلى منزل قريب كي يطلب ماء ساخنا لأجل تنقيع المتة. فتحت الباب خادمة ولم تعطه الماء وحسب، بل دعته لأن يحضر الدراجة أيضا، لم نكد نستقر قليلا حتى وصل سيد المنزل. كان رجلا كبيرا في السن، بدا لـ(فيوزر)، وبوحي مظهره وشعره الطويل، على أنه فنان أو شخص بوهيمي. بل كاد يجزم بأنه شخص ذو أفكار يسارية. أي رجل تحريات تكشف في (فيوزر)! لم يكن شعر ذلك الرجل سوى شعرٍ مستعارٍ.

بعد ذلك بوقت قصير، ولدى وجودنا مع الخادمة وحدنا، أخضعناها لاستجواب عسير، أخبرتنا بأن سيد المنزل، أو الـ(كاباليرو) كما لقبناه، لديه اثنا عشر شعرا مستعارا، وأنه ذهب إلى (بوينس آيرس) خصيصا كي يصنعوا له المزيد. هذه المعلومة أذكت الكثير من التعليقات الساخرة من جانبنا بينما كنا نجتهد في إخراج تلك العجلة اللعينة من مكانها. وقعت هذه المهمة في معظمها على عاتق (بيلاو) المسكين، كما كان الحال دوما حينما يحتاج الأمر لاستبدال العجلة، فقد كان أقوى مني بكثير وذا مهارة كبيرة في هذا النوع من الأعمال.

عندما انتهينا، ذهبنا بجولة حول البلدة وبمحض الصدفة التقينا أحد المحررين في جريدة الـ(آوسترال) اليومية في (تيموكو)، وقد كتب موضوعا عنا وضمنه صورة لنا. بشكل طبيعي أكدنا رغبتنا في الذهاب إلى جزيرة الفصح. ثم عدنا أدراجنا للنوم في منزل الكاباليرو (السيد).

في اليوم التالي توجهنا شمالا وتعرضنا لثقب آخر في العجلة. لم يبد من العدل أن تقع المهمة كل مرة على عاتق (بيلاو)، لذا انبريت لها مصرا

على إنجازها، ما يعني أنها ستستغرق وقتا أكثر مما ينبغي. رغم أن الوقت كان يميل إلى المغيب، إلا أن الحماسة دفعتنا للاستمرار لدرجة أننا تابعنا القيادة في شبه ظلام دامس. بدأ الطريق يغدو أكثر مشقة في السير عليه، وباعتبار أن الحظ العاثر حليف لنا، فقد اختفت عن ناظرنا المزارع الصغيرة التي كانت حتى ذلك الوقت تتابع واحدة تلو الأخرى. في النهاية وعندما استحكمت العتمة، وصلنا مفترق طرق ممهد على جانبه كوخ لحارس بوابة. طلبنا ملاذا لديه فمنحنا زاوية غرفة. بدا الكوخ ومن يسكنه في حالة من الفقر الشديد، لذا لم نفاجأ حينما لم يقدم لنا سوى المتة وكسرتي خبز. خلدنا للنوم جياعا. في السابعة من صباح اليوم التالي، وحالما أضاءت الدنيا، انطلقنا إلى (لوتارو).

قبل أن نقطع مائة ياردة، شعرت بأنني أنقذف ككرة في منجنيق. ارتطمت بالأرض ثم قفزت واقفا على الفور وقد استملكتني الدهشة. نهض (فيوزر) وركض مسرعا ليوقف نزيف الوقود. تفحصنا الدراجة ووجدنا بأن المشبك الأمامي قد انفلت، والأسوأ من ذلك، أن قاعدة الألمنيوم التي تحمي علبة السرعات ارتطمت بالطريق وانفلقت إلى أربعة أجزاء.

المزيد من الكوارث :متطوّعوا الإطفاء

لوس أنجلوس 27 شباط 1952:

ها نحن ذا في ثكنة متطوعي رجال الإطفاء في لوس أنجلوس كيف وصلنا إلى هنا؟ إنه القدر. سأعود بكم إلى يوم الحادي والعشرين.

حالما تعافينا من الضربة، نجحنا في الوصول إلى (لوتارو). هناك وبعد سلسلة من المناورات الدبلوماسية ورغم يقيني بأنه قد يكون خطأ- قررنا أن نلحم علبة نقل السرعة. استغرقت يومين وكلفتنا آخر ما تبقى لدينا من نقود.

في اليوم الأول دعينا إلى الغداء من قبل عامل مضخة وقود من الجراج الذي تركنا فيه الدراجة. كان ألمانيا وقد عاش في البارجواي ومن ثم استقر في تشيلي. لديه ابنة متزوجة في (سارانديي)، في مقاطعة (بوينس آيرس)، وكان يريد منا أخذ دور المستمع، شرط أن كل ما يسمعه هو تمجيد للأرجنتين، وقد كنا مبتهجين بذلك.

تلك الليلة، اجتمعنا بحشد من التشيليين الذين كانوا كجموع العامة في وطننا. كان هناك الراوي، وزير النساء، والأضحوكة الذي تطلق عليه النكات الخرقاء، وكذلك البخيل والمبذر. بمعنى آخر هذه البلدات الصغيرة مشابهة تماما لأي بلدة صغيرة في الأرجنتين.

انسجمنا معهم وقدموا لنا بعض النبيذ. قبلناه منهم، وبعد بضعة كؤوس قررنا جميعا الذهاب إلى مرقص في أحد أفقر الأحياء في البلدة. قاعة الرقص كانت عبارة عن مبنى في طرف البلدة. ولعل مجموعة من الشاحنات والسيارات التي صفت بكافة الاتجاهات حول مبنى باهت اللون ذي طابق واحد هو ما دلنا على المكان.

دخلنا إلى هناك لتستقبلنا هبة من الدخان تمور بأنفاس الكحول، وتمتزج بروائح العرق التي لا تخطئها، والتي تتغلب على روائح العطور. بضعة أزواج من الناس كانوا يرقصون على نغمات تشبه موسيقا التانجو، لكن معظم الجمهور كان يحتشد حول منضدة من الزنك، حيث تباع المشروبات الروحية التي كان النبيذ يشكل معظمها.

سرعان ما التقينا بضعة وجوه مألوفة: زوج من عمال المزارع كانوا قد ساعدونا في إصلاح دراجتنا، وزوج آخر قدموا لنا أثناء انتظارنا، معزوفة منفردة على الـ(تشارانجو)، وهي آلة موسيقية تصنع من غلاف جسد المدرع[1] (Armadillo). كان هناك أيضا مجموعة من السكارى الذين أصبحوا -وبفضل الإسراف في الشرب والرقص- أعز وأقرب أصدقائنا.

لم يمض وقت طويل قبل أن تتولع زوجة أحدهم بـ(بيلاو). رغم ردائه السروالي الوسخ ولحيته النامية التي تقلل من الجمال، إلا أن كونه أجنبيا ووسيم الطلعة جعل منه الفريسة المثيرة للشهية.

كنت أراقص امرأة هندية كانت شديدة الولع بالأرجنتين ورقص التانجو، ولكن، ورغم ذوقها لم تكن تفعل الكثير لإغرائي. كنت أفكر بقدرة الرجل على التكيف، وبأدواته الحسية، عندما حدث اهتياج مفاجئ أخرجني من تأملاتي الفلسفية. مركز الانتباه كان (آرنستو)، إذ أنه ومع

---

(1) المدرع: حيوان ثدي جنوب أمريكا لجسمه ورأسه درع من الصفائح العظمية الصغيرة، ينكمش بداخله إذا ما شعر بالخطر. (المترجم).

فرط انسجامه بالجو والشراب، حاول استدراج معجبته المخلصة إلى الخارج.

في البداية كانت مستعدة للموافقة، لكنها غيرت رأيها فجأة وبدأت تصرخ. في الحال جاء زوجها، وبيده زجاجة شراب، وكان على وشك أن يضرب (فيوزر) من الخلف. عندما رأيت ما كان يجري، تركت رفيقتي وهرعت نحو الرجل ممسكا به من الخلف. أوقعته أرضا، أو بالأحرى سقط بفعل إسرافه في الشرب أكثر مما هو بفعل ضربتي. هربت على أثر (بيلاو) مستفيدا من البلبلة التي حصلت، وكان قد فر قبلي. بعد بضع دقائق، وفي غرفتنا مازلنا نتلقف أنفاسنا، قال لي (فيوزر): (إذا ذهبنا إلى أية مراقص أخرى، فيجب أن نقطع عهدا على أنفسنا ألا ندع النساء تقع في حبنا).

باستثناء الحادثة التي جئت على ذكرها آنفا، فقد كان اليومان اللذين قضيناهما في (لوتارو) مملين إذ أمضينا معظم الوقت في حل مشاكل الدراجة. لدى مغادرتنا أعد عامل مضخة الوقود لنا غداءً وداعيا، بصحبة بضع فتيات من الجوار. كن جميعا رقيقات وعاطفيات، وتمكنت من أن ألاحظ مرة أخرى هامش الحرية الأكبر عند النساء التشيليات. فالإفراط في الاحتشام والمراقبة اللطيفة لدى الطبقة الوسطى في الأرجنتين لا وجود له هنا. وبأية حال فقد غادرنا بعد الغداء مباشرة.

بضعة أميال إلى الأمام وحادث مؤسف آخر كان بانتظارنا، وأيضا شهدت فيه حصافة (آرنستو) واتزانه. حالما قطعنا المناطق المأهولة، حيث أتولى القيادة دائما كوني أحمل رخصة القيادة الدولية، سلمت الدراجة لـ(آرنستو) وبينما نلف إحدى المنعطفات واجهنا قطيعا من الثيران، فسمعت (آرنستو) يصرخ بصوت مرتعش، (لم يعد هناك مكابح).

كنا في الطريق نزولا من إحدى التلال ورأينا أن المنحدر كان ينتهي بصف من أشجار الحور على بعد أربعمائة ياردة إلى الأمام. كانت الدراجة لا تزال تتسارع لكنني في حقيقة الأمر لم أشعر بأي خوف. ولدى نظرتي الثانية نحو الأشجار، ومشاهدة نهر يجري خلفها، خالجني شعور بأن

هذه قد تكون نهاية المطاف بالنسبة لنا. على أقل تقدير كنا سنصاب بكسر في عدة عظام من جسمنا. كل ما فعلته أني طلبت من (فيوزر) أن يفرمل باستخدام ناقل السرعة وأن يجري بالدراجة صوب الهضبة.

بقدر من الثقة التي لا يمكن أن تضمنها لدى سائق قليل الخبرة، بدل (آرنستو) السرعة إلى الغيار الثالث، وتبعها بالثاني، ما خفض سرعتنا بشكل معقول وأخيرا، وبصعوبة بدل إلى الغيار الأول. وفي الحال وجه الدراجة مباشرة نحو الضفة، مستفيدا من سرعتنا البطيئة. وبينما قفزت عن مؤخرتها، فرد (آرنستو) أرجله ورأيته يقفز عن المقعد في جزء من الثانية قبل أن ترتطم العجلة الأمامية بالجبل. ركضنا كي نطفئ المحرك منعا للحريق، ومن ثم تصافحنا والسعادة تغمرنا أن بقينا على قيد الحياة.

ما حدث كان أمرا محتما. فالسنّ اللولبية للعزقة المجنحة التي تثبت عتلة المكابح في مكانها كانت قد تثلمت وبذلك انفلتت من مكانها. عدنا أدراجنا إلى مزرعة صغيرة كنا مررنا بها منذ دقيقة أو اثنتين. هناك أعطونا بضع عزقات مجنحة استخدمناها في تثبيت العتلة، وبعد ساعتين من الزمن كنا في طريقنا من جديد.

بسبب ترميمنا لعلبة نقل السرعة، بدأت الدراجة تفقد قوتها، وبما أننا أشرفنا على الليل، التمسنا ملاذا في شبه مزرعة صغيرة. منحونا مكانا في علّية بمخزن للقش. وبما أن جريدة (تيموكو) اليومية كانت قد سبقتنا إلى هناك، فقد عرفتنا إحدى بنات صاحب الأرض وهمست شيئا في أذن والدها، وبفضل تلك الجريدة دعينا إلى العشاء. ومن ثم نقلونا إلى غرفة الضيوف.

في اليوم التالي قدموا لنا إفطارا رائعا، وغادرناهم وكلنا قناعة بأن الصحافة هي السلطة الرابعة فعلا في جمهورية بورجوازية، وأن الكثير من الناس يؤمنون بالكلمة المطبوعة أكثر مما يشاهدونه بأم أعينهم. يا لخطورة سلطة كهذه إذا ما وقعت في أيدي من لا ضمير لهم.

مضينا في طريقنا، لكن مقاومتنا الآن أصبحت للدراجة والطريق معا. ولشدة ما ابتلينا به من أصوات مزعجة كانت تصدر عن الدراجة، فقد توقفنا في منتصف النهار على طريق جانبية ظللتها بعض أشجار الكستناء، هناك نزعنا فاصل الحركة وضبطنا العزقة المجنحة المركزية بشكل محكم.

ومع تحسن أداء الدراجة قليلا، بدأنا صعود الهضبة الجانبية لنهر (ماليكو) الذي يمتد فوقه أعلى جسر لسكة حديد في كامل أمريكا الجنوبية. وعند منتصف الطريق صعودا، انقطعت سلسلة الدراجة. اضطررنا للتوقف هناك تماما إذ لم يكن لدينا سلسلة بديلة.

نجحنا في جعل سائق شاحنة يقلنا وصولا إلى بلدة (كولي بولي) الصغيرة، حيث تمكن أحد الحدادين من أن يصلح لنا السلسلة. باغتنا الليل ونحن في حمأة هذا النشاط. وعرض علينا أحد الشبان الذين يقطنون في الجوار مكانا لننام فيه، ولكن في المقابل تعين علينا الاستماع إلى سلسلة من القصص كان صاحبنا فيها إما الشاهد وإما البطل. ولم تخل أي منها من حادثة قتل شخص ما.

في اليوم التالي حاولنا الاستمرار، إنما كان ذلك مستحيلا. كانت الـ(بوديروسا 2) تستغيث طالبة الرحمة. عندئذ قررنا انتظار شاحنة أخرى علها تقلنا، ولم يدم انتظارنا طويلا. وبينما نحن ماضون في طريقنا شعرنا برغبة متنامية في أن نترك الدراجة خلفنا في (سانتيا جو تشيلي)، ونشق طريقنا إلى (كارا كاس) بأفضل ما كان بوسعنا. أعتقد أنه يمكننا بهذا الشكل أن نرى أكثر وأن نكون أكثر حرية، وأن نتخلص من النفحة الرومانسية التي تأسرنا، كسائقي دراجة عابرين للقارات، وتشوه رؤيتنا للحقيقة.

أقلتنا الشاحنة وصولا إلى (ميليكو). هناك قمنا بمحاولة أخرى للمتابعة بالدراجة، لكن صرخات الـ(بوديروسا) وضجيجها الذي بلغ حدا قياسيا، جعلتنا نقرر التوقف وطلب المساعدة من سائقي الشاحنات،

أولئك الجماعة ذوو المعاناة الطويلة، الذين ساعدونا أكثر من أي شخص آخر.

بينما كنا ننتظر، قام (فيوزر) بتحضير المتة، ومثلما الحال دائما، طعمها المألوف الذي امتزج مع جمال المشهد ألهمني أن أراجع كل شيء رأيناه في (تشيلي) حتى الآن- جمال جبال (الآنديز)، والذهب الذي يلمع في سنابل القمح في المزارع، والبساتين الغنية التي يكاد التفاح والإجاص فيها أن ينهمر كالمطر. وفي المقابل المزارعون المسحوقون بعباءاتهم النصفية الفقيرة، وقبعاتهم العريضة، نوق خيول جائعة مثل راكبيها، الذين يميلون نحو الشراب في محاولة لنسيان فقرهم. فكرت أيضا بكبير العمال الذي يحل محل سيده الغائب ويصبح بغيضا حتى في طريقة لباسه- بسترته السوداء الضيقة القصيرة، وبنطاله الضيق حتى كاحل قدمه، وقبعته المائلة ذات الحواف القاسية، وجزمته القصيرة المزينة بمهمازين ضخمين. إنه الرجل الذي يقسو بكلماته على مستخدمي المزرعة وينعتهم بالمخمورين والمتحايلين على العمل، ولا يفعل شيئا كي يرفع من قدرهم. وعوضا عن ذلك يظن بأنه يصنع معروفا مع نفسه بترنمة في امتداح سيده، دون أن يدرك بأنه في ذلك إنما يخون نفسه وأفراد طبقته.

فجأة ظهرت شاحنة وقطعت علي تأملاتي. قمنا بتحميل الدراجة فيها ثم عدنا إلى (لوس أنجلوس) بعد قليل من التفاوض، وجدنا أنفسنا في مقر الشرطة نتحدث مع بعض الرقباء الذين تم تعيينهم على حدود الأرجنتين، حيث كرموهم، فأرادوا رد المجاملة بدعوتنا إلى منزلهم. على الطريق واصلوا مديحهم وثناءهم على حسن الضيافة الأرجنتينية، وبما أن الطريق كانت أطول من القصة. فقد جعلوا يكررون ذلك مرات ومرات- وفي كل مرة كانوا يثرونها ويصبحون أكثر تأثرا بما يروون.

لسوء الحظ لم يكن لدى سيدة المنزل ذات الشعور بالحماسة تجاه الأرجنتين كما لدى زوجها، فنمنا تلك الليلة بقلب يملؤه الأسى وأمعاء يؤرقها الطوى.

لوس أنجلوس 28 شباط 1952:

ليلة أمس خضنا إحدى أكثر المغامرات إثارة في رحلتنا. خلال النهار تصاحبنا مع فتاتين أبديتا فضولا للتعرف علينا. سرعان ما انسجمنا وقامتا بتقديمنا إلى رئيس فوج الإطفاء الطوعي في البلدة. بدعم من الفتاتين أقنعتاه بأن يسمح لنا بالنوم حيث يوقفون سيارات الإطفاء.

بعد العشاء خرجنا مع الفتاتين ومرة أخرى لمسنا فرقا ملحوظا بين مواقف النساء في (تشيلي) والأرجنتين فيما يتعلق بالجنس الآخر. ربما حقيقة أننا طيور عابرة ما يجعل الأمور أكثر إمكانية، لكني أعتقد أن الفرق يكمن في نشأتهم.

عدنا إلى مركز الإطفاء ونحن صامتان ونسير بتمهل، بينما نفكر مليا بتجاربنا الخاصة. كان المكان المعد لنا للنوم ضيقا، وفيه فتحة كنافذة استلقى (فيوزر) بجانبها. كان في حالة متوترة لا أدري إن كانت بسبب الفتاة أم نوبة ربو. بدأت أتقلب داخل كيس نومي، وبعد أن استيقظت للمرة الألف وجدت سلما ضيقا قادني إلى السطح. تسلقته فوجدت نفسي في شيء يشبه القبة المفتوحة على كافة الجهات. كان الجو باردا، لكنني لففت نفسي داخل كيس نومي وغططت في نوم عميق.

لا أدري كم مضى من الوقت، لكني صحوت على صوت ضجيج يصم الآذان. أحسست وكأن طبلة أذني قد انشقت عندما صحوت فازا، شعرت بحبل ينجر على كتفي كالفرشاة. وأنه حبل الجر الموصول بمدقة جرس الحريق. كنت قد نمت تحت الجرس مباشرة؛ تحته فقط ببضعة أقدام. وأما الضجيج والاهتزاز الصادران عنه فقد كانا مروعين.

أسرعت في النزول على السلم لأجد (بيلاو) يتحدث مع الحارس الليلي طالبا منه أن نساعدهم. وصل رئيس رجال المطافئ وأعارنا خوذتين

وسترتين واقيتين، وما هي إلا لحظات وكنا منطلقين بأقصى سرعة ونحن نتعلق بمجنبة سيارة إطفاء سميت (تشيلي إسبانيا).

بعد مسيرة ميل تقريبا اكتشفنا وهجا لألسنة من اللهب، ومن ثم تبع ذلك رائحة مادة صمغية تحترق عادة ما تشمها في الصنوبريات. ورغم الطريقة التي اندفعنا بها إلى العمل. كان المبنى الذي شيد من خشب الصنوبر والقصب شبه مدمر تقريبا. اتجهت مجموعة نحو الأشجار المحترقة، بينما اندفع الباقون منا نحو المنزل ومبنى خارجي بجواره.

كنت أعمل على أحد الأنابيب، و(فيوزر) يزيح الحطام. وعندما تمت السيطرة على النيران، سمعنا مواء قطة كانت عالقة في البقايا المحترقة من السقف ذهب (فيوزر) للبحث عنها رغم نداءات بقية رجال الإطفاء، الذين كانوا يريدون العودة للنوم، ولكن عندما عاد (فيوزر) والقطة الصغيرة بين يديه صفق الجميع له ومن ثم قرروا الاحتفاظ بها كرقية لجلب حظ في المركز.

في طريق عودتنا علقنا على موضوع حظنا العاثر في أول ليلة لنا في (لوس أنجلوس)، وكيف تعين علينا أن نشهد حريقا ونساعد في إخماده، إلا أن تفسير ذلك لم يكلفنا الكثير من العناء، ففي منطقة غابية كهذه، هناك ما يقرب من أربعمائة حريق ينشب كل عام بعضها ينشب مصادفة وبعضها ينجم عن اللامبالاة، والبعض الآخر يفتعله أصحاب الأراضي الذين يحرقون الغابات كي يزرعوا أراضيها. وهكذا فإن حريقا واحدا أو أكثر يحدث كل يوم على أقل تقدير. في اليوم التالي قدموا لنا أعلاما مثلثة الشكل كتذكار على مشاركتنا.

سانتيا جو تشيلي 1 آذار 1952:

في (لوس أنجلوس) كنا على اتصال مع سائق شاحنة ينقل الأثاث إلى (سانتيا جو). احتسب علينا أربعمائة بيزو تشيلي ثمنا لنقل دراجتنا. وأخذنا معه كحمالين مقابل خمسين بيزو مع وجبات الطعام.

ودعنا أصدقاءنا في مركز الإطفاء، وتلقينا وداعا رقيقا وأمنيات بالنجاح من الفتيات ثم انطلقنا صوب (سانتيا جو).

وصلنا العاصمة يوم السبت، كانت أولى انطباعاتي كما لو أنني عدت إلى (قرطبة)، رغم أن الجبال هنا أكثر ارتفاعا وقربا. وصلنا إلى وجهتنا وبدأنا تفريغ الحمولة. وبينما كنا نعمل، فاجأني (آرنستو) من جديد بإحدى نوباته الهجومية الخارجة عن المألوف. كنوع من المزاح، بدأنا نمتدح قوة معاون سائق الشاحنة، الذي هم بإنزال الأشياء الأثقل وزنا. كي يستعرض لنا مدى قوته. كان صاحب البضاعة يراقبنا، وبدأ يطلق تعليقات ساخرة عن الأرجنتين، قائلا: بأننا جميعا هزيلو الأجسام ومتهربون من العمل. كنت و(فيوزر) نقدم أفضل ما لدينا من عمل. وشيئا فشيئا فقد سائق الشاحنة أعصابه، وعندما نفذت منه الصيغ المبتذلة التي كان يواجه فيها مزاحنا، اختار أن يمارس دوره كرئيسنا، وقال: (حسنا، أنتما الاثنان ستحملان تلك الخزانة، فهذا ما استأجرتكما من أجله).

كانت الخزانة التي أشار إليها قطعة أثاث ضخمة صنعت من الخشب البالغ الثقل، وبالكاد كانت تمر في المدخل. كنت و(فيوزر) نحاول المناورة فيها كي تدخل في مكانها، لكن دون أن ينجح. تقدم معاون السائق كي يساعدنا. لكن رئيسه منعه قائلا: (ابق في مكانك يا خوسيه). دع فتيان (بوينس آيرس) يتدبرا الأمر بأنفسهما).

التفت (بيلاو)، ونظر في عيون الرئيس قائلا:

(انظر ما باستطاعتي فعله إذا كانت لدي الرغبة!). ثم أضاف، وهو يلتفت إلي: (ابتعد أنت عن هذا الأمر يا (ميال)!). ثبت (فيوزر) ذراعيه حول الخزانة وقام برفعها عدة بوصات عن الأرض، وحملها في المدخل ثم تركها وسط غرفة نوم. وبعد ذلك عاد إلى حيث وقفنا نحن الثلاثة، وقد صعقنا أداؤه، وقال(هذا ما أفعله إذا كانت لدي رغبة). جلس (فيوزر) على حافة الرصيف الحجري قرب الدراجة. أكاد لا أصدق من أين أتى بتلك القوة ليفعل ما فعله.

عندما انهينا العمل أخذنا الدراجة إلى ورشة لرجل أرجنتيني يعيش في (تشيلي). بعد ذلك ذهبنا إلى سفارة الأرجنتين بحثا عن بريد. هناك التقينا بالقنصل، وكان مرشحا قويا في قائمتنا عن الشخصيات المخزية. أرادنا أن نصدق بأنه كان يعاني من مرض ناجم عن المهنة نظرا لكمية الشراب التي كان يضطر لتناولها في المناسبات الاجتماعية. لقد أدى ذلك إلى إصابته بالقرحة المعدية التي ادعى بأنها ستؤدي بحياته. وأغلب ظني أن شربه للخمر بكميات كبيرة هو ما سيقضي عليه في إحدى نوبات الهذيان.

وداع الـ(بوديروسا 2):
من سائقي دراجة إلى هاربين في سفينة

سانتيا جو تشيلي 2 آذار 1952:

أمس كان يوم أحد، لذا خرجنا لمشاهدة المدينة. مازلنا أمينين لانطباعنا الأول بأنها تشبه قرطبة كثيرا، رغم أنها أكبر حجما وأكثر حداثة. ومثل سائحين نموذجيين ذهبنا إلى حديقة الحيوان ومتحف الفنون الجميلة، لم أعر بالا لمعظم اللوحات، عدا بضع منها لـ(ليرا) و(سميث)، لكن ما أعجبني فعلا كان أعمال النحاتين. رغم أنها كانت تحاكي المدرسة الفرنسية، لكنها احتوت بعض المنحوتات الرائعة- لاسيما أعمال (ريبيكا ماتا) والتي كان لها شخصيتها المتميزة.

بعد ظهر ذلك اليوم اكتشفنا بأن إحدى فرق قرطبة للبولو المائي صادف وجودها في (سانتيا جو). كان فريق (سوكويا) ومدربه (إيسبيجو بيريز) وهو أحد أصدقائي منذ إضراب عام 1943. ذهبنا للقائه في حوض السباحة حيث كانت ستقام المباراة، وهناك التقينا مصادفة أيضا بأحد الأصحاب القدامى وهو (نيجرو لوفيت)، والذي كان يلعب معي كرة القدم في فريق الناشئين ويمضي الصيف في (باجادا دي بييدرا). إنه حارس مرمى.

بعد أن تركنا أصدقاءنا في تلك الأثناء، انطلقنا برحلة بحث طويلة وغير مثمرة عن قطع الغيار. أخيرا قررنا ترك الدراجة وراءنا.

قمنا بتحويل حقيبتين سرجيتين إلى حقائب ظهر وتركنا كل شيء آخر على الدراجة. وبينما قمنا بلفها بالخيمة لحمايتها من الرطوبة والصدأ، شعرت وكأننا نكفن جثة مخلص غال علينا.

لم يكن مني سوى أن ربت على الدراجة برقة وبشكل مختلس ثم مضيت مبتعدا عنها وشعور بالحزن والضيق يرمي بثقله على قلبي.

بعد ذلك بوقت قصير شاهدنا مباراة بولو الماء،ورحنا نصرخ ونطلق الهتافات تشجيعا لفتيان فريق (سوكويا). تلك الليلة أقيم احتفال توديعي تبادلنا فيه أنخاب الفرح بتلك المصادفة التي جمعتنا. وكذلك أنخاب نجاح رحلتنا الشاقة، إنما التي نحسد عليها. ورغم أنهم كانوا حزينين لرؤيتنا نغادرهم،فإن كل مشاعر الندم لدينا سرعان ما تبخرت واستحكم شعور البهجة فينا من جديد.

فالبا ريسو 7 آذار 1952:

يوم الرابع من الشهر وبعد أن ودعنا فريق بولو الماء وحملناهم رسائل إلى الوطن. توجهنا نحو الطريق الذي يصل ما بين (سانتيا جو) و(فالبا ريسو).

أكثر من أربع ساعات ونحن نراقب أرتالا من الشاحنات تظهر، وتمر بقربنا ثم تختفي إلى أن استجاب أحد السائقين لإشارتنا وبعد طول انتظار فتوقف وأخذنا معه.

كي تصل إلى (فالبا ريسو) عليك أن تجتاز سلسلتين من الجبال القليلة الارتفاع. ولدى عبورنا أولى السلسلتين نهارا، تمكنا من أن نعاين

جمال الوديان العميقة الخضراء بمزارعها المتناثرة الملأى بالبساتين التي حمل بعضها زهرا وبعضها الآخر طرح محصولا.

مع التفافنا ما بين التلال، أظهرت الطريق على الجانب البعيد الجبل لنا منطقة أقل خصوبة وأقل كثافة سكانية. أما صعودنا للسلسلة الثانية فكان في الليل، وفي هذا الجزء من الجبال أحكم البرد قبضته علينا كالملزمة. تدبرنا لأنفسنا زاوية فيها بين الصناديق التي كانت تحملها الشاحنة. كل ما كان بوسعنا رؤيته من تلك الزاوية هو وهج الأضواء المنبعث من مصابيح السيارات التي كانت تجري الواحدة تلو الأخرى. حركة المرور على تلك الطريق كانت كثيفة للغاية.

وصلنا في العاشرة ليلا تقريبا، وبعد أن ودعنا سائق الشاحنة، شددنا الحقائب إلى أكتافنا وبدأنا نسير.

يقع مركز المدينة بعيدا في الأسفل حيث تنتهي الطريق السريعة، وهو عند حي لابد أنه بني فوق أكواخ خشبية. شقّقنا طريقنا نحو موقف للشاحنات والحافلات، وهناك عند كشك المراقب، ينتصب كوخ يبيع السمك ونوعا لا يقاوم من النبيذ التشيلي. الرائحة العطرة جذبتنا للدخول إليه، فإذا بأرجنتيني ثمِل بعض الشيء يجلس هناك. أثار حضورنا لواعج شوقه المخمور إلى الوطن، فقدم لنا السمك وبضعة كؤوس من الخمر.

في اليوم التالي صادقنا صاحب الكوخ، يا له من رجل رائع! لديه زوجتان كبيرتان في السن تعملان كطاهيتين. الأولى تعاني بعض الصمم، والأخرى التي تبدو كساحرات القرون الوسطى، كانت على عتبة الخرف الشيخوخي. كانتا تساعدانه وهو يساعدهما، إذ لا أظن أحدا يجرؤ على منحهما فرصة عمل سواه. وكان في الوقت ذاته، يمتلك أسلوب النكتة الطريفة ويبقيهما سعيدتين، إذ يستغل سوء الفهم لدى الصماء منهما، ولاسيما باستثارة " روزيتا"، الأكبر سنا،وبأسلوب التورية التي تطال قصص حبها المزعومة، والذي كانت تردّ عليه بتواضع جريح.

قدم لنا الطعام من غذاء وعشاء طوال الوقت الذي كنا فيه هنا. محاولا تنظيم رحلة إلى جزيرة الفصح. كان لهذا الأمر أن يؤخر جدول جولتنا في أمريكا الجنوبية، لكنها فرصة لا يجب تفويتها.

أمس كنا على أمل اللقاء بمن يدعى السيد (مولينا لوكو)، الشخص الوحيد الذي يمكنه منحنا تفويضا بالقيام بالرحلة إلى (رابا نووي). عدنا إلى كوخ السمك من أجل الغداء والعشاء صاحب الكوخ ممثل حقيقي عن الشعب التشيلي خصوصا وعن الدهماء من الناس عموما، ما من متسول، أو كلب ضال أو قطة متسكعة لا يسد له جوعه ولو بفضله سمك. يريد الذهاب إلى الأرجنتين -كي يجني المال على حد قوله- بيد أنه لا يدرك استحالة الوصول إلى الغنى لمن يمتلك قلبا ذهبيا كقلبه، لأن الثروة الفردية ليست إلا استغلال الإنسان للإنسان.

(فالبا ريسو) هي واحدة من أجمل المدن وأكثرها استراتيجية بموقعها في (تشيلي) بأكملها. ولعل ما يترجم لغة الجمال في مناظرها الطبيعية الأخاذة، تلك السكارة الرائعة التي أسدلتها سلسلة الجبال المكسوة بالغابات. وهناك أنهار جليدية على بعد أقل من ثلاثين ميلا فاتحة أذرعها للناس كي يمارسوا فيها رياضات الشتاء على مدار العام. ومن الغرب يحتضن المدينة خليج مائي جميل واسع يرسم شواطئا جذابة على بعد بضعة أميال إلى الشمال عند (فينيا ديل مار) أضف إلى كل ذلك أن المدينة ذاتها بنيت بأسلوب غاية في التميز، فبعض أحيائها وصلت بالمركز عن طريق سلالم منحدرة طويلة، والبعض الآخر بعربات الأسلاك.

تلك الليلة تجولنا في عدد من تلك الأحياء، ولاسيما الميناء، بشوارعه الضيقة القذرة المترعة بالمقاهي ودور البغاء والمكتظة بالبحارة السكارى والمومسات. ظننا بأننا في إحدى الأحياء الشعبية لمدينة الجزائر.

أمس وفي إحدى وكالات الشحن التقينا بقبطان سفينة شحن متجهة إلى (آنتوفا جاستا) أقنعناه بأن يسمح لنا بالسفر كمتخفيين على

متنها وإذا لم تقبض علينا سلطات الميناء، سنعمل في السفينة مقابل أجرة رحلتنا.

على متن سفينة (سان آنتونيو) 8 آذار 1952:

مرة أخرى كان لي شرف القيام بمغامرة لا يمكن أن تتم إلا حينما تجعل أحلامك حقيقة. ما كان لهذا أن يتحقق لو بقيت في بلدي أبيع شرابات السعال. في السابعة من ليلة أمس، وبعد أن ودعنا صاحب كوخ السمك، وتناولنا كأسا أو كأسين اضطراريتين توجهنا إلى الميناء. ثيابنا، وحقائب ظهرنا، ولاسيما أكياس نومنا ذات الألوان الصارخة، اجتذبت انتباه المارة، إضافة إلى انتباه الشرطي الذي يحرس البوابة المؤدية إلى رصيف الميناء. سألنا إلى أين كنا ذاهبين، وأجبناه بصراحة بأننا من أفراد طاقم (سان آنتونيو) أرسلنا إلى الجمارك كي يفتشوا متاعنا، لكن كان يتعين علينا الظهور بمظهر الشرفاء، لأنهم بذلك سيسمحون لنا بالمرور دون تفتيش. حالما بلغنا المرسى، خبأنا عدتنا في عربة للفحم كانت ستقلب بجانب سكة الحديد.

من على حاجز الأمواج استطعنا رؤية النشاط المسعور على متن السفينة. خمسمائة طن من البضائع المتنوعة ينبغي لها أن تحمل فيها المؤن الغذائية، والأسمنت والخمور وخلافه. حاولنا أن نصل إلى ظهر السفينة متسترين بتلك الحركة المرورية المحمومة لكن كنا نتعثر بضابط المراقبة باستمرار، وهو حسبما علمناه من الطاقم، جاسوس الشركة والذي لن يسمح لنا بالإبحار أبدا.

بدأ الليل يدنو، وبدأ المرسى يفرغ تدريجيا، شعرت وكأن الجميع كانوا يراقبوننا، مشينا على طول المرسى بأكمله عدة مرات. عندما حل الليل طوينا أنفسنا في ظل العربة التي كنا قد خبأنا فيها حقائبنا.

كانت الدقائق تمر وكأنما ضبطت على مشية الحلزون. مر الشرطي بجانبنا ثلاث أو أربع مرات وكذلك الوقادون الذين كانوا يحافظون على مستوقد الرافعة مشتعلا. كادوا أن يدوسوا فوقنا بينما هم يحملون أكياس الفحم.

منتصف الليل حل ولم يكن الحارس قد تزحزح من مكانه. في الساعة الواحدة صباحا وصلت المجموعة المناوبة التالية من عمال التحميل والتفريغ، فاستغل (فيوزر) الفوضى التي تحدث في هذه الأثناء ليصعد إلى سطح السفينة كي يتكشف مكان دورات المياه، حيث كنا نفكر في الاختباء.

بهذه الأثناء ذهبت إلى أحد مشغلي الرافعات، لأن نسيما شديد البرودة كان يهب بمحمدا أوصالي نجحت في جعل العامل يدعوني للصعود إليه. وعند عودة (فيوزر) من جولته الاستكشافية نجح هو الآخر في تدبر مستقر له بجانب المستوقد.

داهمتنا غطة نوم خفيف استمرت بنا حتى الخامسة صباحا. سطعت الشمس وجاءت مجموعة عمال تحميل وتفريغ جديدة، وكان الحارس لا يزال في محرسه ثابتا مستقرا كصاري السفينة الرئيسي.

وصل طاقم السفينة في التاسعة تقريبا، وأعد لهم معبر خشبي. عندئذ وبالضبط انضممنا إلى الرتل، وحالما أصبحنا على المتن خبأنا حقائب الظهر تحت غطاء من القماش المشمع كان يلف أحد قوارب النجاة وذهبنا إلى دورات المياه.

لم يكن انطباعنا الأول حميدا على وجه الخصوص، فدورات المياه كانت معطلة وتطفح بالغائط، لكن هذا لم يكن وقت الاعتناء بالتفاصيل لذا أسرعنا في قفل الباب بالمزلاج.

لم نكن نجرؤ حتى على التنفس. وعندما كان أحدهم يطرق الباب كنت أصرخ بأن المكان مشغول، فيرحل.

مرت الدقائق بطيئة، كخطا عاشقين خرجا من السينما وهما في طريق العودة إلى البيت، وبدأنا نضطرب أكثر فأكثر. إذا كنا نشعر بالاضطراب إلى هذا الحد ونعلم أن القبطان لن يقول شيئا، وأن أقصى ما يمكن أن نتعرض له هو الطرد خارج السفينة، فأي حالة إذا ستنتاب لاجئا فارا من الاضطهاد يعرف بأنهم لو عثروا عليه سيلقى حتفه.

في الحادية عشرة تقريبا شغلت المحركات، لكن تعبيراتنا الصامتة عن الابتهاج لم تدم طويلا، إذ تباطأ هدير المحركات إلى أن توقفت آخر الأمر. بهذه الأثناء كان الباب قد طرق علينا عدة مرات، ولحسن الحظ أن دورة مياه أخرى كانت موجودة فاستخدموها.

نحو الساعة الثانية عشرة انطلقت الصافرة ذات الصوت الحاد معلنة معاودة تشغيل المحركات. بعد ذلك سمعنا صوت الصرير المنبعث من سلسلة المرساة، وأخيرا شعرنا بالسفينة تتحرك.

تلك اللطخة المصفرة التي كنا نراها من خلال الكوة الصغيرة بدأت تنزاح ببطء، ثم تسارعت لتحل محلها زرقة السماء وأجزاء من أجسام السفن الأخرى. عانقنا بعضنا بفرح غامر، ورغم ذلك كنا لا نزال خائفين من أن يكتشف أمرنا. أخرجت رأسي من الكوة بصعوبة كي ألقي تحية الوداع على خليج (فالبا ريسو). كانت ثلة من حرس الشرق بهيئة سرب ضخم من النوارس، تحوم حول رؤوسنا كمناديل بيضاء تلوح لنا مودعة، وبالقرب منها حشد من طيور البجع يتمنون لنا رحلة سعيدة بنبرتهم الخشنة إنما الحنونة.

بعد مضي ساعتين تقريبا على إنجازنا- وبدافع الجوع والرائحة النتنة لدورة المياه- قررنا الظهور على سطح السفينة. مررنا بالمطبخ، وهناك قدم لنا القائم عليه شيئا نأكله، لم يكن سوى بعض الخبز مع البصل المجفف والقهوة.

استدعانا القبطان إليه في الجزء العلوي للسفينة وبدأ يمارس دورا تمثيليا. بينما كنا نصعد المعبر إليه غمزنا بطرف عينه مطمئنا إيانا أنه شريكنا بهذه التمثيلية، ثم اصطنع الصرامة، والنبرة الحادة سائلاً إيانا: (ما الذي تظنان أنكما تفعلانه هنا؟ ألا تعلمان بأنكما تعرضان سمعة ضباط السفينة للشبهة؟) واستمر هكذا لبضع دقائق وهو يحذرنا بشدة ألا نتسبب بأية مشاكل. بعد ذلك استدعى عريف البحارة وأوصاه قائلا: (هذان السيدان بإمرتك، لا يمكنني أن ألقي بهما في البحر بعد أن أصبحا هنا. احرص على تكليفهما بالعمل، ودعهما يتدبران لأنفسهما مكانا يبيتان فيه).

كلفنا بالعمل على الفور؛ أنا في المطبخ و(فيوزر) في تنظيف الحمامات. حتى بضع دقائق خلت وكنت أحمل خرقة تجفيف صحون في يدي، وأغسل الأطباق وأدوات الطهي، وبعدها كلفني الطباخ بتقشير البصل حينها بالضبط بدأت السفينة تتمايل وبدأت معدتي بالغثيان، لذا اضطررت لإخراج الجردل إلى خارج المطبخ والاستمرار في تقشير البصل على سطح السفينة. كان (بيلاو) قد أنهى مهمته (العطرة) واستغل الفرصة في التقاط صورة لي وأنا أذرف الدموع.

على متن (سان آنتونيو) 9 آذار 1952:

ليلة أمس، وبعد تنظيف المطبخ حتى أصبح يلمع، خرجنا إلى سطح السفينة لاستنشاق الهواء النقي، (كان كل من الطباخ والمضيف يحاولان إعتصارنا حتى آخر قطرة). وسط الضوء المشع للقمر فوق المياه، رأيت الأسماك الوثابة ولأول مرة في حياتي. عندما كانت تقفز من الماء بدت وكأنها صواريخ جميلة فضية اللون.

بحلول ذلك الوقت كان كل البحارة قد ناموا، فاتجهنا نحو الجزء العلوي حيث رأينا ضوءا. هناك رأينا القبطان، وأحد الضباط وعامل

اللاسلكي يلعبون الورق. أعلمناهم بحضورنا وعندما عرفوا بأننا نعرف أصول اللعبة دعونا للانضمام إليهم. لعبنا معهم وكسب (بيلاو) -الذي كان يلعب بمهارة- ثلاثة أدوار. كانوا مصممين على هزيمتنا لكنهم لم يتمكنوا من ذلك.

نحو الساعة الثانية صباحا شعر القبطان بالجوع وأرسل من يوقظ له الطباخ. وعندما رأى الرجل من الذي كان عليه أن يخدمهم وبينهم اثنين من مساعديه أصابه الشحوب وأصر، ومهما كلف الأمر، على أن نقوم بمساعدته. كان هذا مستحيلا طبعا، لأنه في تلك اللحظة كان اللاعبون الثلاثة الآخرون يرفضون بشدة، ومصممين على هزيمتنا، وبالتالي لن يسمحوا لنا بمفارقة طاولة اللعب.

لم يمض وقت طويل حتى عاد الطباخ بخمسة أطباق من البيض المقلي، وبضع زجاجات من الخمرة إضافة إلى مزاجه القذر. تناولنا البيض وشربنا الخمر وبدأنا نخسر- لا أدري إن كان بسبب ارتخاء ما بعد الطعام أوأنه إذا لم يفز أحدهم بلعبة سنستمر في اللعب إلى أن تشرق الشمس.

سفينة (سان آنتونيو) 10 آذار 1952:

كما كان يتوقع بعد حالة التوتر في اليوم السابق والشراب الذي تناولناه ليلة أمس، نمت ملء جفوني ولم أسمع نداء أي من الطباخ أو عامل النظافة لي.

عندما نزلت إلى المطبخ كان علي ابتلاع مشاعري وتحمل كل صراخهم علي. كنت أعزي نفسي بالتأمل في جمال البحر الهادئ، ولأول مرة في حياتي رأيت زوجا من حيتان العنبر وهي تنفث الماء فينبعث إلى الأعلى مرتفعا عدة أقدام في الهواء. لم أكن أعرف أبدا أن من الممكن رؤية حيتان العنبر، أو أية أنواع أخرى من الحيتان في هذه المناطق.

أحد وجهي العملة
مناجم اليانكي للنحاس

أنتو فجاستا 11 آذار 1952:

اليوم وفي الثانية صباحا تقريبا، رسونا في (أنتو فجاستا). ساعدناهم في إرساء السفينة، بعد ذلك وعندما وصل فريق التفتيش، اختبأنا في قمرة القبطان. إنه آخر مكان يخطر ببالهم كي يبحثوا فيه عن متخفين.

خرجنا لنستكشف المواقع. وكي نتمكن من العودة إلى حوض السفن قلنا إننا قد وصلنا في قطار وأننا سنأخذ بضائع مشحونة كانت على متن السفينة.

رغم أن المضيف شخص غبي بائس ولا يستطيع أن يتحمل رؤيتنا – (بما أن الجميع من القبطان وصولا إلى خادم القمرة يعاملوننا بمراعاة خاصة)– سنبقى على متن السفينة بينما نرى إن كان بمقدورنا ترتيب رحلة إلى (تشوكويكاماتا). أمضينا عدة ساعات في الطريق إلى (تشوكويكاماتا) –نحو أربعين ميلا عن (أنتو فجاستا)– ووصلناها آخر الأمر على ظهر شاحنة.

لم يمض على سيرنا سوى بضع دقائق حتى بدأت الصحراء تشيح خمارها لنا. كانت الطريق تتلوى بين هضاب مرتفعة قاحلة تماما. لم نلمح ورقة عشب طوال الطريق، لم يكن هناك سوى اللون الرمادي المحمر

الروتيني للصحراء. الطريق الإسفلتية وأعمدة الهاتف هي كل ما يكشف موطئ قدم الإنسان في هذا القفر الموحش. مررنا بمساحات من الأرض ظهرت فيها رقع من النترات والجص على وجه الحجارة الرملية للصحراء. في كل ميل أو ميلين كنا نرى أعمدة طليت باللون الأبيض لترشد المسافرين إلى وجود نقطة تزود بالماء، وهي تمتد عبر أنابيب من الحدود البوليفية لتزويد كافة القرى الصغيرة المتناثرة عبر الصحراء.

بينما كنا نتقدم في عمق السهل الصحراوي المرتفع لـ(تشيلي)، أدركنا بأنه كان اسماً على مسمى.

حتى الصبار لم يكن ينمو في هذه المساحات المهجورة. لا شيء هي الكلمة الأكثر تعبيرا. فقط سماء زرقاء بالكامل، يلطخها عند الأفق بعض الضباب بسبب الوهج الحار، مع بضعة غيوم بدت وكأنها وضعت هناك كتزيين للمنظر. تلك الأشياء وفي مجملها شكلت منظرا رائعا. فالتقطنا صورتين أو ثلاث. لكنك بحاجة لمائة صورة أو لعملية تصوير بالألوان كي تستوعب الصورة الكلية للجمال المهيب في هذا المكان.

الساعة الآن هي العاشرة ليلا. إنني أكتب في (فندق) في ضوء مصباح كيميائي. مرة أخرى أرى وجهي العملة أمامي. على الجانب الأول الجمال الذي وصفته سابقا، إضافة إلى ثروة هذه المنطقة، وعلى الجانب الآخر الحدث الذي سأرويه لكم.

بينما كنا نتجول في القرية بحثا عن ملجأ، التقينا بزوجين من الطبقة العاملة الفقيرة. كان الزوج قد سجن بدعوى انتمائه للشيوعية، وأمضى ثلاثة أشهر داخل السجن. والآن يقاوم كي يسمح له بالعمل في أحد المناجم المحلية، وهو أمر في غاية الصعوبة عندما يوصم المرء بالشيوعية.

منذ وقت قصير عبرت القرية بأكملها سيرا مرة أخرى ثمة نسق طويل من المنازل بجدران من الزنك بنيت على طول شارع وحيد على حدوده هضاب النترات. غالبية البيوت هي مخازن للخمور يأتي إليها عمال المناجم

والسكة الحديدية كي يخففوا بلايا هذه الحياة عن أنفسهم بالشرب حتى الثمالة.

جئت إلى زاوية التقى فيها جداران ووقفت لأتأمل الصورة التي شكلها (فيوزر) مع هذين الزوجين وفي ضوء بقايا الشمعة والقمر الذي كان للتو يرتفع فوق الهضاب. كان (آرنستو) يحضر المتة بينما الرجل وزوجته كانا يرتعشان من البرد، لأن الحرارة كانت قد انخفضت فجأة إلى حد كبير، ولم يكن لديهما سوى ثيابهما المهترئة ليتدثرا. وبطريقته المغضبة بالكلام، إنما بدقة وإقناع مثيرين للإعجاب، كان الزوج يروي عن الظلم الواقع عليه وعلى زملائه العمال، الذين قتل الكثير منهم، (جواتشيباتو)، أو أغرقوا في المحيط.

دون أن تدري بأنها تحت رقابتنا كانت زوجته تراقبه وهو يتكلم، وقد أظهرت نوعا من الإعجاب الممتزج بالبهجة والذي لامس عصب الإحساس لدي. شعرت بشيء دافئ في داخلي يربطني أخويا بتلك المرأة، الفقيرة في مالها وثقافتها إنما الغنية بمشاعرها، والتي واجهت سلسلة من المعوقات، والاضطهاد والكوارث وبقيت مخلصة وفية لرفيق عمرها حتى في سوء حظه.

ولجت إلى الدائرة التي رسمها ضوء الشمعة، وقدمت إلى الزوجين بطانيتي مقترحا على (فيوزر) أن نذهب في نزهة أخرى إلى محطة القطار كي نحرك قدمينا بعض الشيء، ونتجنب سيل عبارات الشكر الذي أمطرنا به.

مشينا على طول الشارع تحت ضوء القمر وصولا إلى المقهى حيث أكتب الآن.

تشوكويكاماتا 13 آذار 1952:

(مركز شرطة تشوكويكاماتا الدائرة الانتخابية الأولى).

نقيم الآن وبشكل مريح في مركز الشرطة، وكما الحال دوما، الأمر برمّته يكمن في اكتشاف الرجال. فقد التقينا بوكيل شرطة وملازم، وكانا رجلين عظيمين، سرعان ما وجدا حلا لمصاعبنا. لكنني سأعود بكم إلى يوم الثاني عشر في الساعة الحادية عشرة ليلا.

عندما عدنا من المقهى وجدنا أصحابنا اللامحظوظين وقد اجتمعوا في إحدى الزوايا. دخلنا في كيس نوم (فيوزر) وحاولنا أن ننام بدأت نسمة هواء لعوب تهمس في أذني. لم يمض وقت طويل حتى تغيرت من لعوب إلى كريهة، ومن كريهة إلى شريرة بكل معنى الكلمة. كان (بيلاو) بجانبي قد غط في النوم وبدأ يشخر، بينما استلقيت ونخاع عظمي كاد أن يتجمد، وصرت ألعنه وأحسده على مقدرته المذهلة على النوم في أي مكان وتحت أي ظرف بدت كل ساعة وكأن لا نهاية لها. وكلما حسبت أن عدة ساعات قد مرت، نظرت إلى ساعتي لأجد أنه لم تمض سوى بضع دقائق لعينة. كانت ليلة مقمرة أضاءها القمر وكأنها ضوء النهار.

وما من ظل سوى ذاك المخروطي الشكل من تلة قريبة ينسدل على الجدران التي كنا نلتجئ خلفها. وبالحاجة لعمل أي شيء أفضل، أمضيت الوقت أراقب، ومع انحدار ضوء القمر، كيف استحوذ ذلك الظل المخروطي الشكل على الطريق ثم على سور سكة الحديد وأخيرا على العربات التي كانت أمام ناظري. بهذه الأثناء كان (آرنستو) مسترسلا في النوم بهدوء، وكانت تصدر عن جارينا حركات وأنفاس قوية، لست أدري إن كانت مضاجعة أم طلبا للدفء. لدى بلوغ البرد أشده، كان الفجر قد أشهر بزوغه، وإذ لم أكن قادرا على النوم مطلقا، وقد تخشبت أوصالي لشدة البرد، وضيق حيز النوم، قررت النهوض والسير في أرجاء المكان كي أتدفأ قليلا. بعد مدة قصيرة تبعني أصحابي الثلاثة على الأثر.

مع انتصاف الصباح، وبعد وداعنا الزوجين، تمكنا من إيجاد شاحنة ستقلنا وصولا إلى (كالاما)، على بعد خمسين ميلا ونيف عن (باكويدانو).

هذه الرقعة كانت تمتد عبر الصحراء أيضا، وعلى ارتفاع يزيد عن ستة آلاف وخمسمائة قدم. رأينا عدة سرابات صحيحة لبحيرات لم تكن سوى خداع بصري. كانت الطريق تجري بموازاة سلسلة من الهضاب، ثم تخترقها تماما قبل الوصول إلى (كالاما). على المدى أمامنا ارتفع بركان (سان بيدرو) بفخامة وقد غطت الثلوج قمته.

في (كالاما) استقلينا ما يسمونه الجندول وهذا ليس إلا مجرد شاحنة عدلت كي تستخدم كحافلة، ووصلنا إلى مركز الحراسة عند مدخل المنجم. وعندما كنا نفكر بأننا سننتظر طويلا ونستجوب مرات ومرات، وجدنا أن وكيل الشرطة كان رجلا وقورا، بل إنه أخذنا بجولة تمهيدية حول كافة أجزاء المنجم بعربة الشرطة، وبصحبة ملازم دمث وكثير الكلام. (هذه الرحلة علمتني أن أتخلص من بعض الأحكام المسبقة والإحجاف، فالرجل الفاضل قد يظهر في آخر مكان تتوقع أن تجده فيه).

تلك الأمسية دعونا لنتناول العشاء في مركز الشرطة، وأغلب ظننا أنه كان إفطارا وغداء وعشاء مع الشاي بوجبة واحدة. بعد ذلك أعارنا زوجا من أسرة المخيمات هنا في المركز. وبعد تجاربنا في الأيام السابقة غططنا وعلى الفور في نوم عميق. لقد مضى وقت طويل منذ أن كنا قادرين على الاسترخاء بهذا الشكل.

(تشوكويكاماتا) 14 آذار 1952:

استيقظنا باكرا وذهبنا لرؤية السيد (ماكيبوي)، المنتدب اليانكي المسؤول عن المنجم. صاحب الجلالة، كما لقبناه، أجبرنا على انتظاره لوقت طويل. وبإسبانيا اليانكية أخبرنا بأن المكان ليس مركزا سياحيا أو جمعية خيرية، وأثقل علينا بدليل يرافقنا في جولة بأرجاء المنجم.

لم تكن الجولة التي قمنا بها اليوم إلا تثبيتا للرأي الذي تشكل لدينا عندما قمنا بجولة في الأمس- ألا وهو أن المكان برمته بلغ من الغنى حدا لا يمكن إحصاؤه.

القطع التي لا حصر لها من الآلات، وتزامنها والأسلوب الذي يستحصلون به على أعلى قدر من الاستفادة من كل عنصر، هو مثار إعجاب بكل تأكيد، لكن ما يتفوق على كل ذلك هو النقمة التي تتأجج بداخلك عندما تفكر بأن كل هذه الثروة لا تجد طريقا إلا إلى خزائن الرأسمالية اليانكية لتزيدها انتفاخا، بينما يتجرع أصحابها الحقيقيون من الشعب الآروكاني مرارة الفقر المدقع.

أولى الأماكن التي زرناها كانت معرض ما يسمى منجم الحفرة المفتوحة. كان يتألف من عدد من الشرفات بعرض خمسين أو ستين ياردة. وبطول مترين أو ثلاثة. هنا يحفرون ويضعون المتفجرات، وينسفون أجزاء من الهضبة، ومن ثم يستخدمون الجرافات الضخمة لتحميل عربات الأتربة التي يعمل محرك كهربائي على سحبها. من هناك تذهب المادة الخام إلى أولى المعامل التي تقوم بسحقها، حيث تقوم قلابة ضخمة بقلبها هناك.

بعد أول عملية سحق، تقوم ناقلات آلية بنقل الخامة إلى معمل ثان ومن ثم إلى ثالثة. وعندما يتم سحق الصخرة إلى تراب ناعم تتم معالجتها بحامض الكبريت في أحواض ضخمة. هذا المحلول الكبريتي بأكمله يؤخذ إلى بناء يضم أوعية ضخمة للسوائل كي يخضع فيها للتحليل الكهربائي من أجل فصل النحاس وإعادة توليد الأحماض.

يتم صهر النحاس المستحصل بالتحليل الكهربائي في أفران ضخمة بدرجة حرارة تصل إلى ألفي درجة مئوية، وبعد ذلك يسكب هذا الوابل من النحاس السائل في قوالب ضخمة طليت برماد عظام متكلسة، وتستمر العملية إلى وحدة تعمل على تصليبه وتبريده بشكل شبه فوري. ثم تنقل رافعات كهربائية القوالب إلى معمل يقوم بصقلها وجعلها في سماكات موحدة.

كل تلك العمليات تتم بدقة استدعت إلى ذاكرتي فيلم (الأزمنة الحديثة) لتشارلي تشابلن. لا بل إن الانطباع أمسى أكثر حدة عندما حاولنا الاطلاع على الأوجه المختلفة للعملية التكنولوجية. كل عامل أو مشغل آلة يعرف فقط ما يجري في قسمه، وأحيانا لا يعرف إلا جزءا منه. هناك الكثير ممن عمل هنا لأكثر من عشرة أعوام ولا يعلم ما يجري أو ما يتم فعله في القسم التالي من خط الإنتاج. هذه الحال بالطبع تلقى كل التشجيع من الشركة، إذ أنها بهذا الشكل تتمكن من استغلالهم بشكل أكثر سهولة. إضافة لإبقائهم في مستوى ثقافي وسياسي هو أقرب ما يكون إلى الحقيقي. لقد خاض قادة نقابة العمال نضالا جبارا لجعل العمال يطلعون على مالهم وعيالهم من الاتفاقات التي تحاول الشركة جعلهم يوقعون عليها.

بل أن الشركة تستخدم وسائل مكر أخرى لمقاومة النقابة.

أخبرنا الرجل الذي يرافقنا كدليل، وهو ليس أكثر من مرتزق قذر. أخبرنا بأنه حينما تقرر النقابة اجتماعا مهما، فإنه وبعض من معاوني المنتدب المسؤول في المنجم يدعون عددا كبيرا من العمال إلى أحد المواخير، وبذلك يحرمون الاجتماع من اكتمال النصاب المطلوب لأعضائه. وكي أفصح قليلا عن عقلية هذا الشخص، يكفي أن أقول بأنه في إحدى اللحظات كان يخبرنا بأن مطالب العمال كانت زائدة عن الحد. وبعد ذلك بقليل أبلغنا بأن المنجم لو تعطل عن العمل يوما واحدا ستخسر الشركة مليون دولار. مبالغ كهذه عرضة للخطر ويتجرأ هذا العبد المفطور على العبودية على أن يسمي مائة بيزو، أي دولار واحد، مطالب زائدة عن الحد. كم كان بودي لو ألقي به في إحدى أوعية الأحماض الضخمة تلك!.

(تشوكويكاماتا) 15 آذار 1952:

ذهبنا اليوم لنرى مصنعا جديدا ودون مرشد رسمي، ويتم بناؤه من أجل تحضير كبريتات النحاس التي لم تختبر بعد، والتي تعطي ما يقارب الثلاثين بالمائة من الإنتاج. وهناك أفران ضخمة قيد الإنشاء. إحدى مداخنه يزيد ارتفاعها عن الثلاثمائة قدم- هي الأطول في أمريكا الجنوبية. كانت على وشك الانتهاء، ومن غير المتوقع أن يغادر (فيوزر) دون أن يصعد إلى أعلاها. ركبنا في مصعد ينقل عمال بناء الآجر. من الأعلى يمكنك أن ترى الامتداد الكامل للمنجم، وترى حجم الثروة المتبقية أمام شركة (برادن) لاستخلاصها.

عندما نزلنا التقينا أحد أعضاء النقابة شرح لنا بأن الشركة تدفع أجورا يومية زهيدة، لكنها تغري العمال بوهم أن مخزن الشركة يبيع السلع بأسعار أقل من المؤسسات الأخرى في المنطقة. واتضح بأن لديهم عددا محدودا جدا من السلع الرخيصة، لكن المواد الغذائية الأساسية غير متوفرة دوما، لذا يضطر الرجال لشرائها بأسعار خيالية من مؤسسات في أماكن أخرى تعمل بالتفاهم التام مع الشركة. بطبيعة الحال، حالما يستقر أي عامل هنا سيستمر أملا بأن مطالبه واحتياجاته سوف تلقى استجابة خلال عقد العمل التالي. وتمضي الأيام ويتزوج وينجب أطفالا، وفي النهاية وخلافا لمشيئته وهو يعلم بأنه يستغل، يبقى إلى أن يحل ولده الأكبر محله حالما يتم اعتباره عديم النفع مع مرور السنين والحرمان المتواصل هذا إن لم نفترض بأنه قتل في إحدى حوادث التفجير، أو بفعل التسمم أو بفعل استنشاق الغازات الكبريتية.

بعد ذلك، ذهبنا إلى الجزء الغربي من البلدة، حيث يوجد مصنع للبيوت مسبقة الصنع. هذا النوع من البناء بإمكانه حل مشاكل الإسكان ليس في (تشوكويكاماتا) وحدها بل في (تشيلي) بالكامل إذا تم تطبيق العملية بشكل صحيح، مع التشطيب الجيد والطلاء الجميل وما شابه. هنا كل شيء يتم بأقل كلفة ممكنة، فقط لتأمين مسكن للعمال يفي بأدنى

حدود متطلباته، وأحيانا يتعذر ذلك أيضا. فضلا عن ذلك، فإنهم يقيمون البيوت على شكل مجموعات في جزء ناء من البلدة ولا يؤثرون أية مصارف للمياه. اليانكي وأتباعهم طبعا لديهم مدارس مخصصة لأبنائهم، إضافة لميادين الجولف، وفوق ذلك فإن بيوتهم ليس مسبقة الصنع.

قمنا أيضا بزيارة إلى المنطقة التي من المقرر أن يحفر فيها منجم خلال السنوات العشر القادمة، لدى الانتهاء من إنشاء مصنع معالجة الكبريتات. وعندما عرفنا بأنهم يوما ما سيجنون الملايين فوق ملايينهم من هذه الأرض أيضا -وهم حاليا يستخرجون تسعين ألف طن من الخامات يوميا- عندئذ تذكرت أنا و(فيوزر) أننا عندما قرأنا كتابا عن النحاس في (تشيلي) ظننا بأن المؤلف كان يبالغ بقوله: أن عمل أربعين يوما يكفي لسد كامل استحقاقات استثمار رأس المال للبلد. لا شك أن الحياة معلم عظيم وما تراه فيها يعجز مائة كتاب عن فعله.

بعد الظهر، واستمرارا لجولتنا، قررنا متابعة رحلتنا والاتجاه صوب مكان آخر من الأمكنة التي أردنا مشاهدتها منذ أن قرأنا تقارير عن استخراج النترات في تشيلي الأرض التي ناضل فيها (لافيرته)[1]. عندما حان وقت وداعنا للشرطة، أقلنا الملازم -الذي كان دائما يوافقنا الرأي لدى انتقادنا المرشد بشكل مباشر أو غير مباشر- أقلنا بسيارته وصولا إلى الطريق المؤيدة إلى (توكوبيلا)، ثم عانقنا بحرارة متمنيا لنا رحلة موفقة.

في الطريق إلى أيكويكة 16 آذار 1952:

بعد وداعنا للملازم يوم أمس انتظرنا شخصا يقلنا على حافة الطريق، التي كانت تسير بمحاذاة هضبة. لا يزال المشهد يرسم صحراء لا نهاية لها. يمتد السهل المرتفع بعيدا أمامنا، وهو منبسط تماما، أما الشمس

---

(1) إيلياست لافيرته (Elias Laferlte): (1886-1961): نقابي شيوعي قاد النضال من أجل حقوق العمال في مناجم النترات بتشيلي قبيل الحرب العالمية الثانية. المترجم.

والغيوم فتجعله يبدو كسجادة بيضاء ضخمة تكلفها بعض اللطخ السوداء. المنظر بأكمله يقع ضمن ما يشبه المدرج الذي شكلته الهضاب، ورغم أن الريح كانت قوية نوعا ما في المكان الذي كنا فيه، استطعنا أن نرى جرارا يعمل بالديزل، بدا لنا من موقعنا وكأنه دمية، ومدخنته تطلق نفخات من الدخان بقيت بلا حراك فوق السهل.

بينما كنا نتأمل المنظر الطبيعي ونتناقش في حجم ما تعلمناه في ثمان وأربعين ساعة فقط، هبط الليل علينا دون أن نجد شاحنة تقلنا. لذا وكي لا نعود إلى مركز الشرطة الذي كنا قد ابتعدنا عنه عدة أميال، ذهبنا إلى مخفر الحراسة عند البوابة. وبعد أخذنا الإذن منهم استقر حالنا داخل أكياس النوم والجوع ينهشنا لأن العريف المناوب كان الوحيد بين رجال الشرطة الذي لم نعجبه، لذا وعلى الرغم من وجود فضلات متبقية بعد معركة الطعام، لم يقدم لنا أيا منها.

عندما أيقظني الضوء عند الفجر لاحظت أن مكان نوم (بيلاو) كان على شبه تماس مع جزمة العريف الذي كان جالسا على مقعد خشبي يكاد يغلبه النوم. لم أكن مرتاحا لهذا المشهد، لكنني لم أذكره لـ(فيوزر) خوفا من أن يضحك علي مستهزئا. ورغم ذلك لا يزال هذا المشهد في ذهني.

اليوم هو يوم رائع. يمكنني أن أستمر محدقا في المنظر وإلى الأبد. هضاب تبدو كحدبات غضنتها التجاعيد، وسماء بأعمق درجة من الزرقة وغيوم صغيرة متناثرة أظهرت حسن هذا اللون بشكل أكثر جلاء.

إنها الثالثة بعد الظهر. جلسنا في خيمة صنعناها من بطانية (فيوزر). هذا الصباح انطلقنا بشاحنة نقلتنا إلى الطريق الواصل من الشمال والجنوب. وصلنا إلى مفترق الطريق نحو الثانية عشرة، وتركنا سائق الشاحنة هناك. بعد أن أخبرنا بوجود مجموعة من الأشجار على بعد عشرة أميال وهي الوحيدة على مدى مئات الأميال هنا وهناك استرحنا إلى أن زالت حدة الشمس. وعلى الرغم من الشمس الحارقة، وحقيقة أنه الوقت

اللاملائم للسير بسهولة، لكن الحرارة التي لا ترحم، والثقل الذي نحمله على أكتافنا سرعان ما جعلت قوانا تخور، وحيث أن مجموعة الأشجار الموعودة لم تصرح بعد عن وجودها قررنا أن ننصب مخيما. نصبنا خيمتنا مستفيدين من وجود أحد أعمدة الهاتف- مؤشر الحضارة الوحيد في هذه الصحراء الشاسعة وهنا رحنا ننتظر إما سائق شاحنة طيّب القلب يظهر لنا، أو أن تضع الشمس حدا لقبضتها علينا كي نتمكن من الاستمرار في السعي وراء تلك المجموعة من الأشجار.

ومن قبيل الأهمية أود أن أدون بأن في هذا الإقليم أقل نسبة هطول للأمطار في العالم، إذ وعلى مرور أعوام وأعوام لم يشهد مليمترا واحدا من المطر.

ولكن أي قفر جميل هو! بل كم أتمنى لو أستطع وصفه أو رسمه على لوحة قماشية! الحرارة بالغة الشدة. والضوء شديد السطوع لدرجة أنه يحدث انعكاسات واهنة الضوء تشكل شبه غشاء يوحي بالقدم، يبهت صورة التلال عند الأفق، حيث تتوجها غيوم أبدية لا تجود بنقطة ماء على السهل المرتفع، بل فقط في الوديان على الجانب البعيد من تلك التلال. هذه الانعكاسات تتآلف مع الظلال التي تلقيها الغيوم لتشكل ظاهرة بصرية. أما الرمال فكما لو أنها تصعد وتهبط كموج في بحر.

الأرض التي ناضل فيها (لافيرته)

(إيكويكة) 20 آذار 1952:

أجلس في إحدى الساحات الرئيسية لهذه المدينة الساحرة. وبينما أتمتع في ظل الأشجار هنا، سادون آخر التفاصيل في مفكرتي وأروي أحداث الأيام التي مرت منذ السادس عشر من الشهر.

نحو الساعة الخامسة مرت سيارة وأقلتنا. ركابها الثلاثة كانوا مخمورين تماما. لم تكن الطريق التي قطعناها طويلة لكنها مليئة بالمشاهد. كانت السيارة ترسم بحركتها حرف (S) في سلسلة من المنحنيات المزعجة، بينما راح السائق يغني الـ(كيوكاس)[1] بمنتهى اللاتناغم الذي يمكن لبشري أن يؤديه. وكان من وقت لآخر يفلت عجلة القيادة ويقيس زمن الترنيمة بالضرب على جسم السيارة بكلتا كفيه. ما من شك أن (باخوس)[2] كان يراقبنا. فرغم كل ما كان يحصل بقيت السيارة ثابتة على الطريق. أخيرا وصلنا محطة سكة حديد، وعندما افترقنا عنهم، بعد خروجنا من السيارة أطلقنا تنهيدة ارتياح تنفسنا فيها الصعداء. بحلول ذلك الوقت، كان مضيفونا قد انتقلوا بمرحهم وصخبهم نحو مكان آخر تجمعت فيه غيوم العواصف فوق سمائهم الهادئة.

---

(1) ضرب من الموسيقى الريفية الشائع عند كبار السن في الجنوب الأمريكي- المترجم.

(2) باخوس (Bacchus): إله الخصب والخمر والعربدة في الميثولوجيا القديمة. يعرف أيضا باسم (دايونيسوس- Daonysus) عند اليونان، وعادة ما يقترن اسمه بعيد للقصف والسكر والعربدة. المترجم.

استعدينا لقضاء الليلة هناك وذهبنا إلى مبنى المحطة لنسأل عن ماء حار كي ننقع المتة. لم يمض وقت طويل حتى استجر حضورنا كشخصين غريبين كل سكان المحطة، وبدؤوا يلتفون حولنا كما تفعل طيور حول الجيفة، وهكذا إلى أن بادر أجرؤهم بسؤالنا فأجبناه. وجوابا تلو الآخر أدى بنا لتكوين تلك الصداقة السهلة النشوء بين شباب الجيل الواحد ولاسيما حينما ينشدها الطرفان. مع اشتداد العتمة، أحضر أحد الفتيان مصباحا زيتيا، وأحضر آخر جيتارا، وفي جو من الأغنيات والموسيقى وسرد أقاصيصنا عن الرحلة، سرعان ما أصبحنا أصدقاء حميمين. أحدهم دعانا لمشاركته العشاء واستمرينا في الحديث إلى ما بعد منتصف الليل. قدموا لنا غرفة للنوم وكانت سقيفة من الزنك استوطنتها الجرذان التي رأت فيها مرتعا جميلا دافئا لها. العشرات منها فرت مسرعة بين أسرة المخيم، ربما منزعجة بسبب تطفلنا.

بينما كنت أحاول النوم جالت في خاطري مرة أخرى الصورة شبه المنحوتة المتمثلة بمجموعة الشبان وهم جالسون حول عازف الجيتار. الضوء الخافت لقنديل الزيت طرح أصواتهم وكأنها لأشكال نحتت من الصخر. بدؤوا بعظام وجناتهم البارزة تماثيل تعكس إرثهم (الكيشوي)[1]. استلقيت هناك وأنا أفكر كل هؤلاء الناس الكرام الطيبين الذين مدوا لنا يد العون في تشيلي هم مزيج من الهنود والإسبانيين الفقراء. ورغم أن الآخرين جلبوا معهم الرذيلة وحمى الذهب في قادتهم، ألا أنهم جلبوا أيضا النبل وقوة الإرادة التي لدى العرق الإسباني، بعد ذلك غرقت في النوم على الفور.

وصلنا إلى (ساليتريرا دي توكو) بعد ظهر اليوم التالي. كانت مجموعة من العمال المبتدئين تلعب كرة القدم. وعلى الفور دعونا للانضمام إليهم.

---

(1) الصفة من كيشوا (Quechua) أحد أفراد الشعب الأصلي وسط البيرو. لغة الشعب (الكيشوا) وإمبراطورية (إنكا)- Inca ernpire يتكلمونها في البيرو وبوليفيا والإيكوادور.

ففعلنا بعد انتهاء اللعبة انطلقنا جميعا لتناول العشاء والنوم في جو من الحميمة السخية التي مكنتنا من أن نغدو أصدقاء أعزاء.

نمنا في مخيم عمال الطريق المؤلف من غرفتين شيدتا من صفائح الزنك. في كل غرفة كان هناك أكثر من ثمانية أشخاص. أما الأسرة فهي قطع خشبية ممددة على دعائم من جذل الأشجار. لكن أي شعور بالانزعاج أو الازدحام لم يجد إلا الطريق إلى الزوال أمام دفء ومودة الساكنين.

خلدنا إلى النوم مبكرا، لأنهم كانوا يعملون من الثانية ليلا حتى العاشرة صباحا كي يتقوا حر شمس الظهيرة الذي لا يرحم. قبل النوم خضنا مسابقة قوية ومقززة للضراط القوي وجدنا فيها أنفسنا وعلى الرغم من سمعتنا، نهبط وبشكل مخز إلى أدنى المستويات.

في اليوم التالي ذهبنا لمشاهدة معملين للنترات هما (ريكا آفنتورا) و(بروسبيريداد) تستخدم فيها طريقة (شانك) في الاستخراج، وهي أسلوب قديم يتألف من فصل العناصر المختلفة للقشرة الكلسية (التربة المحتوية على نسبة عالية من الأملاح الصخرية) بالماء الحار، نتيجة لأن الأملاح المختلفة لها مستويات متفاوتة من قابلية الانحلال عند درجات حرارة معينة. يسمح هذا لها أن تفكك نترات الصوديوم أولا، ثم نترات البوتاسيوم ثم ملح البيركلورات وأخيرا اليود.

حالما وضعنا قدمنا في أولى حقول النترات أدركنا بأن هذه شركة أجنبية، ليس بسبب استثمارها الشديد في استغلال الموارد. والذي سيمكنها من تسديد مستحقات استثمارات جديدة بعام واحد، بل لأن عقول الموظفين والعمال ممن تحدثنا إليهم كانت تخضع للاستعمار. إنهم لا يرغبون حتى أن يعرفوا بأنهم محرومون من ممتلكاتهم، وأنهم يتقاضون أدنى الأجور، بل وأنهم مسجونون في عمق أعماق الجهل على يد نفس الأشخاص الذين يزدادون غنى على حساب كدهم و حساب حقول (تشيلي) للنترات.

بعد أن قابلنا وسألنا منهم قدر ما استطعنا، عدنا أدراجنا إلى مخيم عمال الطرق. كنا نتلمس شيئا مختلفا في جوهم هو ما نأى بهم عن عمال حقول النترات لعل هذا الشيء المختلف كان الروح الرفاقية لديهم.

في اليوم التالي كانت هناك شاحنة، على ظهرها حمل من الخشب، تتجه شمالا، لذا ودعنا الفتيان ومضينا. وعند قرية صغيرة تدعى (لاجونا) اضطررنا لانتظار توصيلة أخرى وكانت الحرارة حينئذ لا تحتمل. كانت هناك مجموعة من الشبان الذين ارتدوا ثيابا أبلاها طول الاستعمال وقفوا يراقبوننا بشيء من الفضول ونحن نرتب حقائبنا الظهرية في ظل ممر بين المقهى وقاعة البلياردو، وقد استقرينا هناك إلى أن نتمكن من استئناف رحلتنا.

في فجر هذا اليوم، وبينما كنا نغسل وجوهنا عند خزان مياه قريب، تعرضت إحدى الشاحنات المحملة بالفضة لثقب بالعجلة. أسرعنا نحوها لعرض خدماتنا، وكان الثمن الذي دفعه لنا السائق هو التوصيلة.

بينما أستلقي مراقبا الشمس وهي ترتفع فوق الهضاب الرملية هذا الصباح، متدثرا داخل كيس نومي ونصف مدفون في الحشائش التي تنبعث منها رائحة عطرة، فكرت في نفسي بأن هذا كل ما كنت أتمناه دوما رحلة كهذه، لا هم آخر فيها سوى أن أرى وأتعرف على (أمريكتنا) بوسائلي الخاصة.

استلقى (فيوزر) بقربي مستظهرا أبياتا من شعر (نيرودا)[1] بصوت خافت اعتقد بأنه يحفظ كل القصائد في ديواني (مسكن ثالث في الأرض) و(عشرونُ قصيدة حب وأغنية يأس). يحفظها عن ظهر قلب. انضممت مشاركا إياه في الأبيات الوحيدة التي أحفظها وكانت:

---

(1) بابلونيرود: (Pablo Neruda) 1904-1973/ دبلوماسي وشاعر تشيلي. ديوانه نشيد الجنرال (Canto General) عام 1950 هو تاريخ ملحمي للأمريكيين. حاز جائزة نوبل للأدب عام 1971. المترجم.

(كتبت عن المياه وعن الزمان .

وصفت الحداد والتدرج في لون الأرجوان.

كتبت عن السماء وعن التفاح.

وهاأنذا أكتب عن ستالنجراد الآن).

فورتنا الشعرية قطعتها صورة مشهد فرض نفسه أمامنا إنه البحر. كنا على حافة الجبل، ومن حيث كنا جالسين على أريكة من حشائش الفصة في مؤخرة الشاحنة، تمكنا من رؤية الطريق وهي تتلوى وتنبسط كأفعى عملاقة حطمت الجبل بلفاتها، وفي نهاية الطريق تنبسط المرآة الزرقاء لخليج (إيكويكة) الحافل بالمشاهد، حيث نحن الآن.

آريكا 22 آذار 1952:

نمنا في (إيكويكة) ثم تدبرنا لأنفسنا شاحنة أخرى لتقلنا إلى (آريكا). الطريق هنا أيضا كانت تمر في صحراء، وكي تصل المدينة يتعين عليك أن تعبر ما يسمونه الناس هنا السهول السبعة. إنها سبعة سهول صحراوية مرتفعة تفصلها عن بعضها سلاسل جبلية مفرضة القمم. تمر الطريق ميلا إثر ميل في سهل صحراوي شاسع. ومن ثم كورنيش يعبر سلسلة الجبال التي ترتفع إلى نحو ستة آلاف وخمسمائة قدم. هذه الطريق ضيقة وشاهقة الانحدار، وهي تصعد الجبل وتهبط فيه بمسافة لا تزيد عن بضعة أميال، تلك الجبال المفرضة القمم تشكل وديانا ضخمة أشبه ما تكون بتلك التي في (كويستا دي ميراندا)، في (آنديز لاريوجا) في الأرجنتين، ولكن ما يختلف هو لون الصخور الحمراء الغامقة، أما هذا فلونها رمادي ضارب إلى الحمرة. في بعض النقاط تصل الطريق إلى ارتفاعات شاهقة حتى أن الغيوم ونسور الكندور كانت تطفو تحتنا. هنا وهناك كانت تظهر لوحات معدنية تحيي ذكرى الفاتحين الأوائل (ألما

جرو)[1] و(فالديفيا)[2] وقواتهم الذين زحفوا من البيرو إلى جنوب (تشيلي). عندما أفكر بمشقة الرحلة التي أقوم بها الآن في شاحنة وعلى طريق شقت لهذا الغرض، فلابد أن أصرح بإعجابي بشجاعة وتصميم أولئك الأسبان الذين شرعوا في رحلة فظيعة كهذه وهم مثقلين بدروعهم وبذاتهم المدرعة ووصلوا إلى هدفهم. ويا للأسف أن الشجاعة التي جاؤوا بها ليفتحوا أرض الأعداء. تحولت فيما بعد إلى وحشية وقسوة ضد سكان هذه الأرض.

على الطريق رأينا واديين أو ثلاثة فيها مياه، وهناك وجدنا زراعة مدارية وخضرة تختلف كثيرا عما نحن معتادون على رؤيته. كانت هناك أشجار جوافة، ومانجا وآفوكادو وعلى وجه الخصوص أشجار البابايا، والتي بدت لعيوننا الأمريكية الجنوبية كأنها أشجار نخيل تجمعت على جذوعها حبات البطيخ.

الذرة المزروعة في الحقول هي الوحيدة التي تشعرنا بأننا في أمريكا الشمالية قرب خط الاستواء. في واقع الأمر نحن قريبون جدا من مدار الجدي.

بعد سفر دام أربعا وعشرين ساعة تقريبا وصلنا إلى (آريكا). ألقينا نظرة على الميناء، وذهبنا على المشفى الوطني بعد الظهر وقدمنا أنفسنا إلى المدير الذي استقبلنا باحترام. إنه مهتم بأعمال المختبرات، فاتفقنا أن نقدم له عرضا نظريا وتطبيقيا لاختبار (نيلسن) لقياس الألوان باستخدام العدسة المزدوجة (80) عوضا عن الحرارة.

نمنا في المشفى ليلة أمس، واليوم أجرينا التطبيق، كما كان متفقا عليه، وصار الحديث بعد ذلك عن الرحلة أكثر مما هو عن العلم. بعد

---

(1) ديجو دي ألما جرو Diego de Almagro: فاتح إسباني ضم قواته إلى (فرانشيسكو بيزارو) في فتح البيرو. (المترجم).

(2) بيدرو دي فالديفيا Pedro de Valdivia (1500-1554) فاتح إسباني شارك في فتح كل من فنزويلا والبيرو وتشيلي. (المترجم).

ظهر اليوم ذهبنا إلى الشاطئ وبقينا في البحر حتى غياب الشمس. لم يتعرض (فيوزر) لأي نوبة ربو منذ أن غادرنا (فالباريسو)، لكنه وبعد هذه السباحة الطويلة، أصبح يشعر بقليل من التعب.

لقد سحرني منظر الميناء بالفعل. وبينما كنا نتجول هناك، عثرنا على مجموعة من المحار غير المعروفة مطلقا على الساحل الأطلنطي، ولم يقف الأمر عند حد العثور على تلك المحارات بل تعداها إلى التذوق. وأما النوع الذي أعجبني أكثر فكان نوعا يسمونه (لوكوس)، ونوع آخر من السلطعون الضخم. وكلاهما لذيذ ومغذ.

في الطريق إلى (تاكنا) 23 آذار 1952:

ذهبنا إلى مركز الجمارك في (تشاكالوتا). التي تقع عند الضفة الجنوبية لنهر (لوتا) وهي أقصى نقطة في شمال (تشيلي).

يبدو كما لو أنه أمس، لكنه يومنا الثامن والثلاثون منذ أن وطأت قدمنا تراب (تشيلي) في (كاسا بانجويه) على بعد ألفي ميل إلى الجنوب. رأينا البحيرات الجنوبية الجميلة بمناخها البارد وأمطارها المستمرة، ومررنا عبر الإقليم الأوسط الخصيب والمليء بالمدن الجميلة، وقد زرنا إحدى أكبر وأغنى الصحارى وأكثرها جفافا في العالم.

لعل أكثر من بين كل ما رأيناه أو أكدنا عليه هو أن الجانب الأكثر كرما في تشيلي هو في عامة شعبها، وأننا لم نخطئ إذا اخترنا الفقير دون الغني والثوري دون الرجعي ومن يعمل وفق العرف السائد.

بينما كنا نتحدث عن كل هذه الأمور، فاجأني (فيوزر) كالمعتاد باستظهار أبيات من الشعر عن الفقراء في الأرض والأنهار في الجبال.

سألته، أهي لـ(نيرودا)، فأجابني: لا، إنها لـ(مارتي)[1].

(1) خوسيه مارتي Jose Marti (1853-1895) ناشط ومفكر سياسي وكاتب وشاعر من (كوبا)، بطل لعدة محاولات استقلال لبلده عن إسبانيا والولايات المتحدة. مات في إحدى المعارك قرب (دوس ريو) شرقي (كوبا). المترجم.

في أرض الـ(إنكا)

(تاكنا) 24 آذار 1952:

حالما انتهينا من الإجراءات الرسمية للجمارك خرجنا لنتفرج على المدينة. إنها ملأى بالمناظر وتختلف بشكل واضح عن (آريكا)، هي على بعد أميال قليلة إلى الجنوب. وثمة تأثير بارز للكيشوا (Quechua) والآيمارا (Aymara) في مناحي الحياة اليومية هنا. مع تقدمنا نحو أطراف المدينة، تتحول الشوارع الرئيسة إلى أزقة تتلوى كالأفعى بين مزارع الخضراوات. وكتذكير بنظام شعب الـ(إنكا) لا توجد أية أسوار من الأسلاك بين المزارع. فقط خطوط من القصب، أو الرمان، أو شجر التين ترسم الحدود بين الملكيات المختلفة.

في طريقنا قابلنا نساء هنديات مختلفات يركبن الحمير ويرتدين الملابس التقليدية التي لم نرها إلا في الصور أو المهرجانات الفلكلورية تنانير عريضة، وعباءات قصيرة وقبعات واسعة تقليدية. كن ينقلن إنتاجهن من البطيخ، والقرع والموز والفلفل الحار والـ(أوكومو)[1] وما شابه إلى السوق.

ملأنا معدتنا بالتين والعنب، لكن آمالنا تبخرت حينما جاء دور الرمان، إذ أنه كان الحلوى المفضلة لدى الطيور المحلية. كانت تلتهم داخل الثمرة بالكامل من خلال ثقب بالغ الدقة تاركة الخارج وكأنه لم يمس.

---

(١) الأوكومو (Ocomo): نبات ذو زهور صفراء اللون وجذور تصلح للأكل. المترجم.

(سيكواني) 30 آذار 1952:

نحن ننتظر في مركز شرطة الحرس المدني البيروفي لنرى إن كنا سنتدبر شخصا ما يقلنا إلى (كوزكو). أشعر بسعادة ولكن بشيء من التوتر، لأنني متلهف للوصول إلى هناك ومشاهدة حياة هنود الكيشوا المستغلين كمصدر معلومات، وأن أرى بنفسي، وليس من خلال نثريات (إنكا جارسيلاسو)[1] أو روايات (سيرو آلجيريا) ما الذي بقي من مملكة (إنكا) وروعتها، الذي حطمه جشع الإمبراطورية الإسبانية، واستغله اليوم ملاك الأراضي البيروفيين. في محاولة لأن أهدأ قليلا اقتربت وجلست مع مفكرتي أدون ما حصل حتى الآن.

في يوم الرابع والعشرين، وبينما كنا على وشك أن نخرج السولات[2] المجعدة التي كنت أحرص عليها حرصي على مسدسي، جاءنا شاب هندي ليخبرنا بأن رقيبا كنا قد التقينا، يتألم ويطلب منا أن نقوم بفصحه. اعتنينا به وأعطيناه حقنة من المخدر والقليل من المعالجة النفسية، وسرعان ما شعر بالتحسن. بعد ذلك بقليل، وصل رقيب آخر ليأخذ مكانه. دعانا لأن نبقى هناك ونأكل وننام إلى أن يتمكن من إرسالنا إلى (كوزكو). اتضح بأنه شخص استثنائي. بدأ يتحدث عن النواحي الجمالية للـ(بيرو) وآثارها الإنكية، الأمر الذي ملأنا حماسة لكنه تكلم بطريقة مصطنعة، مزدانة ببعض التعبيرات الغريبة التي لا صلة لها بما كان يتحدث عنه، لدرجة أنه كان من الصعب متابعة قصته. أحيانا لم يكن بمقدوره إيجاد الكلمة المناسبة، فيتوقف ومن ثم يعاود الاستمرار بالحديث حالما يجد عبارة مناسبة

---

(1) إنكا جارسيلاسو (Inca Garcilaso): (ما بين 1540-1616 تقريبا) كاتب إسباني ولد في (كوزكو)، ابن لأميرة من الإنكا ولأحد الفاتحين كتب نثرا أشهره بعنوان تعقيبات (Comentarios). وهو وصف مؤثر لأساطير ومعتقدات شعب والدته. المترجم.

(2) السول Sole: عملة البيرو.

وينهمر علينا من جديد بوابل من العبارات الجونجورية[1]. تحملت أنا و(فيوزر) قدر ما نستطيع وكدنا أن نموت من الضحك. بعد ذلك خلدنا إلى النوم.

في يوم الخامس والعشرين أمضينا عدة ساعات طيبة بصحبة أختين، وهما بنتان لأسرة يابانية، تعرفنا إليهما هذا الصباح- ومنهما استخلصنا غداءنا- وكان هذا أثناء انتظارنا لسائق كان صديقا لهم كي يقلنا وصولا إلى (تاراتا)، وهي محطة رئيسة في الطريق إلى بحيرة (تي شيء كاكا).

في البداية ذكرنا الطريق بشمال تشيلي، ولكن بينما رجعنا نصعد للأعلى تحولت الجبال من رملية إلى صخرية متخذة اللون النحاسي الذي نعرفه في جبال الآنديز. كبداية، كانت جوانب الهضبة صحراء، ولكن ثمة شجيرات صبار بدأت بالظهور، تبعها في ذلك شجر الفلفل وبعدها بعض الشجيرات ذات الزهور الصفراء، ومن ثم وفي آخر المطاف تحولت كافة جوانب الهضاب إلى اللون الأخضر. ذاك اللون غمرني بسعادة ومرح لا يوصفان.

سرعان ما وصلنا إلى بلدة صغيرة تدعى (إيستاكويه). وإذا كان لحضارة الإيمارا الحقيقية بقية متبقية في أي مكان فهي هنا، متجلية في كل من فن العمارة. والملابس والأزياء لدى السكان.

الصعود الحقيقي بدأ حالما غادرنا البلدة. الجبال تطاولت أكثر فأكثر، وبدلا من الميلان الخفيف أصبح الحال هاوية سحيقة في قاعها سيل جارف من الزبد يندفع بقوة نحو الأسفل.

ظهرت شلالات ضخمة كانت تقطع الطريق كل بضعة أميال، وفي النهاية رأينا أولى سفوح الجبال الجانبية وقد زرعت، كانت هذه السفوح

---

(1) الجنجورية: (Gongorism): أسلوب أدبي يتسم بالغموض المتعمد وصعوبة التحليل والزخرف اللفظي. والجنجورية محاكاة للشاعر الإسباني لوي جونجورا إيارجوته (Luis de Gongora Argote) (1561-1627) صاحب هذا المذهب. المترجم.

منحدرات شبه عمودية، ولكن بفضل نظام المدرجات استطاع (الإيمارا) أن يزرعوا فيها البطاطا والذرة والفلفل الحار وسواه. والمدرجات هي أرصفة أفقية يحتفظ بالتربة فيها عن طريق ما يشبه الحاجز المصنوع من الحجارة التي صفت الواحدة فوق الأخرى. إنه جميل ومثير بالفعل أن ترى تلك المدرجات، كل واحد فيها يبرز صورة خضراء بدرجة مختلفة، مقطعة إلى درجات متسعة وبلمسة لون خاص أضافتها النسوة الهنديات بلباسهن البراق.

لابد أن الذرة التي يزرعونها هنا متطابقة وراثيا مع المحاصيل التي تزرع في أمريكا منذ ما قبل اكتشافها. إنها مميزة بقشرتها الأرجوانية الغامقة التي تحمي الثمرة، وكوزها الأبيض الذي يحتوي حبات ملطخة بالأرجواني.

بعد ذلك جئنا إلى القرية الفطرية التراثية، بمنازلها الخفيضة وشوارعها المختصرة، والتي قد يرتفع البعض منها أكثر بمائة قدم عن تلك التي تجري موازية لها. على بوابة القرية هناك بعض الأقنية الجارية التي تعلو عن مستوى الطريق، وفي النقاط التي يقطع الطريق فيها القناة أقاموا أنابيب من جذوع الشجر المفرغة التي تمتد فوق الطريق كالجسر.

من بين كل الرجال الذين كانوا على ظهر الشاحنة كنا الوحيدين المتحدرين من أصول أوروبية؛ فالباقون كانوا من الإيمارا الأصليين، ولدى النظر إليهم لم أكن أقوى إلا على التفكير برعاة البقر الأمريكيين الجنوبيين في لوحات (مولينا كامبو)، ببشرتهم النحاسية، وأنوفهم العريضة المنبسطة، وعظام وجناتهم البارزة، بعضهم بشوارب خفيفة، وأفواه عريضة، وعيون صغيرة كبعض الآسيويين، جميعهم كانوا يرتدون ثياب تفصح عن الفقر، وكانوا إما حفاة أو بصنادل مفتوحة. وجميعهم أيضا كانوا يمضغون أوراق الكوكا دون توقف طوال الرحلة.

رغم أن الناس يقولون بأنهم منكمشين وعدائيين، ألا أنهم كانوا يتحدثون ويضحكون معنا طوال الوقت. طبعا، لم يكن الكثير منهم

يتحدث الإسبانية، ولكن أولئك الذين يتحدثونها لم يكونوا بحاجة لأي تملق أو ملاطفة كي يجيبونا عن أي شيء نسألهم عنه.

وصلنا إلى (تاراتا)، وتعني بلغة الإيمارا (شوكة في الطريق) وصلنا نحو الخامسة عصرا. لبضع لحظات وقفنا نتأمل مفارقة مذهلة، بينما كانت البلدة الصغيرة التي تسطع بضوء الشمس التي احترقت على رؤوسنا، رأينا الثلج يسقط إلى ما بعد (الشوكة) ببضعة أميال. يا له من منظر غير مألوف!. بينما كنا نبحث عن مكان نأوي إليه ليلا، التقينا بمجموعة من المجندين يلعبون كرة السلة. ذهبنا إليهم، ورغم أن القرية ترتفع لأكثر من ثمانية آلاف قدم- وحسب رأي الخبراء ما كان من المفترض أن نكون قادرين على الحركة، ألا أننا انضممنا إلى اللعبة ولم نشعر بأي نقص في الهواء مطلقا، بل إن (بيلاو) لم يتذكر حتى بأنه يعاني من الربو.

غادرت الشاحنة- الحافلة إلى (إيلاف) في الثالثة صباحا. كان المحرك يهدر متشبثا بالحياة فيما راحت العربة تتقدم صعودا. كان البرد لا يحتمل، والملل يهيمن على مدى أول ساعتين، ولكن في الخامسة صباحا بزغت الشمس وبدأت تظهر الهضاب السفحية للآنديز مغطاة بالثلوج وزال منظر الخضرة مرة أخرى.

كان الجبل مغطى بنوع من الطحلب الذي اكتسب طبيعة الغابة، ويستخدم كوقود من قبل رعاة اللاما والفيكونا[1]. وصلنا أعلى نقطة بسرعة وكانت تسمى (لافة) وترتفع ستة عشر ألف قدم عن سطح البحر. كانت هناك ثلوج تمتد عبر الطريق. وكانت كسرات الجليد تتلألأ كعدد لا حصر له من الماسات الصغيرة. كان المنظر بأسره قد انزاح من الأزرق الباهت للثلج مرورا بالأزرق الأكثر غمقة في الغيوم التي شكلتها حرارة الشمس وصولا إلى الأزرق الفاتح في الهضاب، التي بلغت الذروة في الأزرق الغامق للسماء هذا التوافق والتدرج في اللون كانا منظرا يسرق الألباب.

---

(1) الفيكونة (Vicuna) حيوان ذو شعر أسمر مصفر وهو من ثدييات الآنديز المجترة يشبه جمل اللاما الأمريكي.

في الوقت الذي عبرنا فيه آخر الهضاب الثلجية كانت الغيوم التي شكلها تبخر الثلج قد أصبحت هائلة. زرقتها شكلت مفارقة مع الأحمر النحاسي في الهضاب التي لا ثلج فيها، وهذه بدورها أيضا كانت مرشوشة بخضرة الطحالب. كان منظرا مختلفا تماما عن المشهد السابق، ولكنه لا يقل جمالا.

في أعلى نقطة في الطريق رأينا رابية تشكلت بفعل آلاف الحجارة الصغيرة المتراكمة وقد اعتلاها معبر خشبي. معظم الركاب بصقوا إلى الخارج بينما مررنا هناك، وأحدهم رسم إشارة الصليب على نفسه، ملت نحو الأكثر ثقافة بينهم وسألته عن معنى ذلك. أخبرني بأن الرابية كانت معلما للآباتشي[1]، وأن كل مسافر يمر به يترك حجرا هناك، وبذلك يعني أنه ترك الأحزان والمحن والمرارات وراءه. وكوننا على ظهر شاحنة، فإنهم يبصقون عوضا عن الحجر، وبالبصاق يتخلصون من كل الشرور التي يحملونها معهم.

سألته، وماذا عن الصليب؟.

أجابني، الكاهن نصبه هناك كي يربك الهنود.

ثم شرح لي كيف أن الكاهن يمزج بين الأديان من خلال الصليب والمعلم الآباتشي، ويحاول إرباك الهنود، وفي النهاية يقدمهم وبشكل زائف على أنهم كاثوليكيون حقيقيون بهذه الطريقة يمكنه القول بأن آلاف المؤمنين يتبعون أبرشتيه، بينما هم في واقع الأمر لازالوا يؤمنون بـ(باتشاماما)[2] و(فيراكوتشا)[3] ولكن في هيئة مختلفة.

تابعت التفكير، ولمدة طويلة، بالجمال والإحساس الشعري لدى الآباتشي، وبالسلوك الإجرامي للكاهن، وبهذا الهندي- الذي ارتدى ثيابا

---

(1) الأباتشي Apatche: إحدى قبائل الهنود الحمر أمريكيين.
(2) باتشاماما (Pacchamama) آلهة خرافية عند شعوب الإنكا ترمز إلى الأرض الأم.
(3) فيراكوتشا (Viracocha) إله خرافي عند شعوب الإنكا يعتبر خالق الإنسان وكل المقدسات.

مهترئة ولم ينل ما يكفي من التغذية- والذي تمكن من شرح هذه الظاهرة التاريخية الاجتماعية ببضع كلمات، وبوضوح وعمق يحسده عليهما أستاذ مهندم وذو دخل مرتفع.

قلت لنفسي، هذا جانب من العملة، جمال المنظر ورجل قادر على الدفاع عن نفسه، أما الجانب الآخر فهو هؤلاء الهنود الذين كانوا معنا: كتلة من المخلوقات شبه النائمة، عرق بشري علموه على مدى خمسة قرون بأن يقتنع بأنه مهزوم، ومضيع ولا يصلح إلا للاستعباد، وعملوا بنفس الأثناء على تخديره بمضغ الكوكا وشرب الكحول.

إنهم معتادون كثيرا على المعاملة السيئة والإهانة حتى إننا عندما صعدنا إلى الشاحنة، غير قادرين على رؤية شيء بسبب العتمة، دسنا دون قصد فوق عدة أشخاص كانوا متكومين في الأرضية، ولم نسمع من أي منهم كلمة تذمر أو تنبيه.

في هذه الأثناء كنا في السهل المرتفع، الذي يشبه كثيرا تلك المنطقة التي تسبق الوصول إلى (باتاجونيا) أي جبال تشكل مدرجات رومانية حقيقية تحيط بالسهول المغطاة بالعشب الطويل، تنزل إليها قطعان اللاما والفيكونا والألبكة للرعي. هذه المنطقة -الملأى بالحيوانات، والتي يرويها نهر (هيونكة) الزاخر بالسلمون المرقط- جعلتني أتخيل لو أنني وأخوتي بذات الرحلة هذه في قافلة، ورأينا كل شيء واصطدنا الطيور والسمك لكانت رحلة رائعة.

في يوم السادس والعشرين بدأنا نتبع شواطئ بحيرة (تي شيكاكا). وصلنا إلى (بونو) نحو السادسة مساء وفي الحال هرعنا إلى البحيرة كما لو أنها كانت ستفر منا.

بادئ الأمر بدت لنا صغيرة جدا، ولكن ما كنا ننظر إليه لم يكن سوى فتحة، أو خليج صغير للبحيرة التي تمتد بين شبه جزيرتي (كابا تشيكا) و(تشوكويتو). تسلقنا الرعن الجبلي ل(تشوكويتو)، وهناك انبسطت

أمام ناظرينا البحيرة الشهيرة، فسيحة، صامتة صافية، لقد شكلت بالنسبة لي ولـ(بيلاو) إحدى المعالم البارزة في رحلتنا والمعلم الآخر قريب أيضا، وهو (ماتشو بيشو). شعرت بسعادة غامرة وكذلك (بيلاو). تصافحنا بصمت، ثم قال آرنستو، كما لو أنه يجيب عن سؤال: (بإخلاصنا لمبادئنا وتصميمنا، كل شيء يبدو بأحسن حال).

لم أعطه جواباً، فقد اختصر فيما قاله كل شيء، إلا أنني أنوي البقاء مخلصا لمبدئي وتصميمي.

يوم السابع والعشرين عدنا إلى البحيرة ثانية لنرى إن كنا نستطيع الخروج بحرا، كان ذلك مستحيلا لأننا لم نتمكن من جعل أي من الصيادين الذين التقيناهم يفهم لغتنا. عدنا بعد ظهر ذلك اليوم إلى مستوصف اليونيسيف، الذي كان يقوم بحملة تطهير للقضاء على الملاريا. ومن خلال حديثي مع الطبيب المسؤول، اكتشفت وجود أحد المختصين بالجذام وكان يعمل في (كوزو)- اسمه الدكتور هير موزا، و كنت قد التقيت به عام 1950 في مؤتمر للأمراض الجلدية والزهري عقد في (توكومان) بالأرجنتين لهذا سأقدم نفسي هناك وسنرى أي استقبال سنحظى به.

في السادسة من صباح يوم الثامن والعشرين ركبنا على ظهر شاحنة جعلت الطريق بين بونو و جولياكا تجري جريا. كانت الشاحنة محملة، ولكن حالما خرجنا من البلدة، وبفضل الفن الذي لا يمكن تقليده لسائقي الشاحنات -فهم رواد حقيقيون في علم التراص الذري- نجحنا في رص نحو عشرين كيس من البطاطا وحشر خمسة براميل وتحميل أربعة أو خمسة ركاب آخرين.

المنظر في هذه المنطقة جاف إذا ما قيس بذاك الذي يحيط بالبحيرة، وحيث أنه ينحدر باتجاه البحر، فالمطر شبه معدوم خلال الصيف؛ بينما تتجمد الدنيا في الشتاء، لكن دون أن تثلج.

كانت الرحلة قاسية، مررنا فيه ببلدات بنيت بيوتها من اللبن، وشوارعها كانت ضيقة لدرجة أن الشاحنة كانت تعبرها بصعوبة بالغة.

عندما وصلنا (جولياكا) قمنا بزيارة لمركز الشرطة كالمعتاد بعد ذلك خرجنا لإحضار شيء نتغذى به -وقد كلفنا ثلاثة سولات- وعندما عدنا عرفنا بأنه لم تكن هناك فرصة أمامنا لنتابع السفر ذلك اليوم.

لم يمض وقت طويل حتى دخل أحد الرقباء إلى المركز وهو يترنح مخمورا وقد أحضر معه شرطيا أشبع من شرب الكحول هو أيضا. وبعد أن أرعد و أزبد بالأيمان والشتائم على مرؤوسيه، توجه إلينا، لكننا احتويناه وأملناه إلى صفنا، وما هي إلا دقائق وكنا أعز الأصحاب. دعانا لتناول الشراب فوافقنا على ذلك بالإجماع. خرجنا إلى الشارع صوب مقهى لا يبعد عن مركز الشرطة سوى بضع خطوات. طلب الرقيب زجاجة بيسكو، وكي يظهر فقط أي نوع من الرجال هو، أستل مسدسه سدد طلقة فوق رؤوسنا، لكن الطلقة ارتدت عن أحد الجدران، ثم عن السقف وأصابت طاولة مجاورة لنا. بطبيعة الحال لم نجد في ذلك أمرا مسليا، وكذا كان حال صاحب المقهى. لم يمض وقت طويل حتى حضر نقيب في الحرس المدني وقام بالتحدث مع الرقيب على انفراد. نظر الرقيب إلي، وبلهجة تحمل إشارات مبالغ فيها على اشتراكي في الأمر ثم قال: أيها الأرجنتيني! ألم يتبق معك أية مفرقعات؟.

طبعا توجهت لنجدته وقلت له: (لا لم يبق معي المزيد، وقد كنت أنا من ألقى المفرقعة. بتلك اللحظة أومأت إلى النقيب بإشارة كما لو أنني كنت أقول له: لقد قلت ذلك فقط كي أنأى بمرؤوسك المخمور هذا عن المتاعب).

حينئذ فقط سمعنا شاحنة تطلق بوق التنبيه معلنة أنها على وشك الانطلاق، فاستغلينا الفرصة كي نلوذ بالفرار.

استقلينا الشاحنة التي كانت متجهة إلى (كوزكو). كانت الحمولة أكثر غرابة في منشئها عما كان الحال عليه في رحلاتنا السابقة. بالطبع معظم المسافرين كانوا من الهنود -غالبيتهم من الكيشوا وليس الإيمارا- لكن كان من بينهم مهجنون أيضا، إضافة إلى أناس من الساحل، أي أناس بنسبة أعلى من الدم الأوروبي.

لم يكن قد مضى على انطلاقنا وقت طويل حتى داهمنا المطر. على الفور تم فرد قماش مشمع فوق المسافرين، لأن جميع ذوي الأصول الأوروبية والمهجنين بدؤوا بالصراخ وإحداث الجلبة. في المقابل وحينما كنا في الطريق إلى (بونو) منذ بضعة أيام، كان المسافرون جميعهم من الهنود ومعهم نحن الاثنان فقط، وكان المطر ينهمر كالسيل الجارف، ولم يدع للانتقال إلى قمرة السائق سوى "أصحاب الجلالة البيض : "ميال " و "فيوزر "، على الرغم من وجود نساء هنديات كبيرات وصغيرات في السن يتعرضن للمطر مثلنا. ورغم كل ما أبديناه من اعتراض وامتناع إلا أننا اضطررنا للاستسلام في النهاية والانتقال إلى قمرة السائق وشعور بالعار ينتابنا أن أُعطينا الأولوية على النساء.

تحولت الريح المصحوبة بالمطر إلى عاصفة من البرد التي، ولحسن الحظ، لم تدم طويلا لأن حالة القماش المشمع لم تكن من المتانة لتصمد طويلاً في وجه وابل من حجارة البرد.

حل الليل سريعا. وبدأنا مع مجموعة من الفتيان من (آريكويبا) في ترديد بعض الأغنيات، وبعدها بدأ مفعول الـ(بيسكو) يدور ويقينا شر البرد، في النهاية بدأت أمضغ الكوكا كي أعرف ما هي.

طوال الطريق كان ينزل من الشاحنة أناس ويركب آخرون، معظمهم كانوا نساء هنديات يصطحبن أطفالهن. مشاهدتهن أكدت انطباعي الأول عن مدى حبهن لنسلهن. كانت معاملتهن لأطفالهن تفيض حنانا أكثر مما رأيت لدى الأعراق الأخرى. كن يلعبن معهم طوال الوقت،

ويقدمن لهم أي شيء يستطعنه ليأكلوا ليل نهار. الصغار منهم بدوا شديدي النهم.

المنظر هنا يشبه ذاك الذي في (باتاجونيا) إلى حد كبير، أي سهول مرتفعة ومنبسطة تحيط بها التلال. بضعة قطعان من الـ(الألبكة) يمكن مشاهدتها هنا مرة أخرى، ولكن إذا تحدثنا بشكل عام، فقطعان الـ(لاما) والنعاج توجد بشكل أكبر. وحسب ما روي لي فإن الـ(الألبكة) و(الفيكونة) تحتاج للعيش في مناطق شديدة الارتفاع حيث يكون العشب الذي تتغذى به قاسيا، فهي إن تغذت على النباتات الغضة ستطول أسنانها بشكل كبير مثلما قد يحدث للقنادس.

عند الفجر هطلت زخات أخرى من المطر الغزير، ولعل ما أزعجني كان الغثيان الذي كنت أشعر به جراء اختباري في مضغ الكوكا.

وصلنا إلى (سيكواني) كباقي البلدات في السلاسل الجبلية مثلمة الرؤوس، كانت تضم ساحة في وسطها وكنيسة على جنبها إضافة إلى المباني البلدية. بجانب الساحة هناك السوق حيث تجلس النساء الهنديات قرب أواني الطهي التي يتصاعد منها البخار، وفي ظل الفوضى الصاخبة كن يبعن الحساء، واليخنة الحارة، وأكواز الذرة والمنيهوت المغلي وكل الأشياء الأخرى القابلة للأكل معظمها لم يكن معروفا لدينا.

تناولنا الغداء ثم انطلقنا سعيا لتأمين مكان نهجع فيه في مركز الشرطة. وكما في الأوقات الأخرى، كان الشك يراودهم بنا بادئ الأمر، ولكن كلما سمحوا لنا بالتحدث أكثر، استحوذنا المزيد من ثقتهم لينتهي بنا الأمر وقد قدموا لنا العشاء ومكانا ننام فيه.

خرجنا في جولة مشاهدة للبلدة والتقينا رجلا كان أحمق بالفعل. ادعى بأنه سليل أسياد ذلك الإقليم ودعانا لتناول الشاي والاستماع ببعض المعزوفات التي ألفها على الفلوت. عزف لنا إحداها وكانت من الرداءة ما جعل حتى فيوزر يلاحظ ذلك. شربنا الشاي وتعجلنا الاستئذان

بالانصراف. استمرينا في جولتنا بالبلدة وصرنا نرسم الخطط لرحلة مستقبلية في عربة منزل متنقل.

مازلنا هنا في مركز الحرس المدني نتوقع المضي باتجاه (كوزكو) بأية لحظة.

أخيرا في (ماتشو بيتشو)

كوزكو 31 آذار 1952

غادرنا سيكواني نحو الساعة التاسعة صباحا. المنظر هنا شبه استوائي، ويمكنك مشاهدة ملكيات صغيرة تبرز قطع أرضها ذات المحاصيل المتنوعة بمنتهى الوضوح. ولعل الأمر الوحيد المثير للفضول في هذه المنطقة هو أنهم يزرعون كل الأنواع في نفس التوقيت. وهاهم الآن يحصدون القمح ويجنون الذرة ويقطفون الفول وكل ذلك في نفس الوقت.

تجري الطريق على طول الضفة اليمنى لنهر (فيلكانوتا) الذي يكتسب ضخامة وسرعة مع الازدياد المطرد في عدد الجداول التي تصب فيه، أما الجبال فقد اكتست حلة من زهر الوزال والطريق تمضي صعودا وهبوطا حسبما يفرضه هوى المنظر أحيانا يبلغ الارتفاع خمسمائة ياردة فوق المياه الهادرة، أحيانا أخرى يتعرض المسافرون لرشات رذاذ بارد.

كانت الحافلة الشاحنة تغص حتى أطراف مجنباتها بفسيفساء من الهنود والمهجنين والبيض. جميعهم إما عمال ذاهبون إلى مزارعهم، أو طلبة كي يمتحنوا في الجامعة أو خدم أو تلاميذ مدرسة وخلافه. كالمعتاد لاحظنا بأن المهجنين هم الذين يعاملون الهنود الأصليين بأقصى درجات القسوة.

كل فرد يدفع الثمن المتفق عليه، لكن عندما يحضر المهجن يعتقد بأن له الحق في إزاحة أي هندي عن مقعده -لا هم إذا كان هذا الأخير رجلا أم امرأة تحمل طفلا- وأن يجلس مكانه بارتياح. الكيشويون الفقراء، الذين طبع في أذهانهم ولأجيال عديدة اعتقاد بأنهم وضيعون ولا يصلحون سوى للعبودية، والذين يعلمون أيضا بأن أي عصيان من طرفهم سيواجه بالقمع الوحشي، تراهم يستسلمون و يجلسون كيفما اتفق.

بالنسبة للباقين كانت الرحلة ملأى بالسعود والنحوس كان الجو حارا ثم هطل المطر، وبعد ذلك أتت عاصفة البرد فشقت القماش المشمع فتغرقنا جميعا بالماء. انتقمنا من مالكة الشاحنة، التي كانت امرأة هجينة مستغلة تحتقر حتى دمها، انتقمنا بسرقة أكواز من الذرة ومن ثم الانصراف دون دفع الأجرة.

نحن الآن في سرة العالم، المكان الذي يسميه الهنود (كوزكو) بتنا الآن في السويداء من أرض الكيشوا والايمارا الأمريكية.

بدأنا اليوم في النظر إلى العمارة مباشرة. كانت الكنائس من العجائب، فهي تظهر وبجلاء مزيجا من فن الزخرفة والفن البلدي الفطري. لسوء الحظ، ومن خلال الجهل والخيال الديني اللاعقلاني لدى القساوسة الإسبانيين، إذ كانوا يريدون إثبات أن ألههم كان أقوى من (فيراكوشا) فقد بنوا كنائسهم على أنقاض معابد الشمس القديمة لل(إنكا) مدمرين بذلك إرثا تاريخيا وفنيا عظيما.

بعد ظهر هذا اليوم ذهبنا إلى المتحف. تعرفت هناك إلى فتاة مسؤولة عن قسم الخزفيات و قد كانت ذكية وجريئة. تظاهرت بعم الاكتراث جذبا للاهتمام، بيد أني أرى بأنه كانت الأحوج إلى ذلك مني بل وكانت تمارس الصوم ولعل في ذلك ما يفصح عن شيء ما.

التقينا في المكتبة الوطنية تلك الليلة. كنت أقرأ كتاب (تاريخ وفن العمارة في كنائس كوزكو) ل(مانويل كيوادرو)، ودونت بعض الملاحظات

كي أشرع بجولة في الكنائس غدا وبتقدير أكبر لأشكالها العمرانية. ويبدو أن (فيراكوشا) قد انتقم لنفسه من القساوسة، إذ أطاح زلزال عام 1950 بمعظم أبراج الكنيسة تقريبا.

كوزكو 1 نيسان 1952:

عاودت الذهاب إلى المتحف هذا الصباح بهدف مزدوج: أن أحسن معرفتي الثقافية وأن أحاول التأثير في الفتاة الهندية، وسوف أشغل نفسي فيما سأكتب الآن بالهدف الأول.

الفخاريات كانت تشبه كثيرا تلك التي صنعها هنود الـ(دياجويتا) في شمال الأرجنتين، وهو أمر لا يتعذر فهمه بما أن تلك المنطقة كانت خاضعة لهيمنة الـ(إنكا) ولعدة قرون. كل من الفخاريات و الأعمال المعدنية أظهرت أسلوبا أكثر جمالا من أي شيء رأيته قبل هذا اليوم.

هناك نماذج في قاعة علم دراسة الأجناس البشرية تظهر أن الـ(كيشوا) كانوا يمارسون عمليات نشر الجمجمة بنجاح، ما يعني بأن مستوى الحضارة لديهم كان مماثلا لما عند قدماء المصريين.

من بين المعروضات الأكثر جمالا سلسلة من الأشكال والتماثيل صنعت من معدن يسمى (تشامبيز) وهو مزيج زائف من النحاس والقصدير والفضة والذهب. الكثير من القطع كانت تمثل مشاهد فكاهية فاضحة فيها من البراعة والذوق ما يملأ مجلدات من الحديث عن حرفتهم ومواهبهم الفنية.

عرضوا لنا مجموعة من الزمرد ترسم أشكالا لسادة أو سلوك، إضافة إلى قطع ذهبية تصور حيوانات اللاما والفيكونا، وكانت هذه الأخيرة ذات قيمة أكبر ليس بسبب جماليتها وإنما بسبب المادة التي صنعت منها. ولكن هنالك أيضا بعض الأواني المزودة تمثل طيوراً أو حيوانات (بوما) كانت

غاية في الروعة. وقد وجدناها مشابهة لأشكال آشورية، ما قد يؤكد نظرية قدوم موجات هجرة من الآسيويين إلى أمريكا ما قبل الـ(إنكا).

ذهبنا لزيارة الكنائس بعد ظهر اليوم، وكانت ملاحظاتنا على أهبة الاستعداد. معظم تلك الكنائس تحوي ثروة لا تصدق من الهبات. وعاء القربان المقدس داخل الكاتدرائية والمصنوع من الذهب الخالص (حسبما أظهرت الدمغة الصغيرة عليه) يزن تسعة وعشرين رطلا وسبعة أونصات و يحوي ألفين ومائتين من الحجارة الثمينة.

أخبرتني ماريا ماجدولينا؛ الفتاة الهندية، أنه رغم وجود كل هذا الذهب قابعا هناك دون أية فائدة، هناك مدارس دون كتب بسبب الحاجة للمال اللازم لاستيرادها من الأرجنتين.

خلال وقت الغداء استخرجنا عنوان الدكتور (هيرموزا) من دليل الهاتف وبعد الظهر حينما كنت أتمشى مع ماريا ماجودلينا، طلبت إليها أن تأخذني إلى عيادته الجراحية، وكانت على مسافة من المناطق التي كنت قد ألفتها.

دخلت إلى غرفة الانتظار. كانت خالية، وعندما خرجت الممرضة أخبرتها باني أود لقاء الطبيب وأن تخبره بأنه طلب من الدكتور (جرانادو). سألتني الممرضة: (هل أحضرت رسالة منه؟).

اضطررت للشرح بأنه وعلى الرغم من بنطال رعاة البقر المرقع الذي أرتديه والسترة الجلدية القذرة، فإن الدكتور (جرانادو) الحائز على الدرجة الجامعية، ليس إلا الشخص الماثل أمامها.

أدخلتني إلى العيادة، لكن (هيرموزا) لم يعرفني. لحسن الحظ كانت هناك صورة على الجدار أخذت خلال إحدى رحلاته الدراسية إلى الأرجنتين. وظهر فيها عدة أصدقاء ومعهم مختصون في الجذام أمثال (أوملوز كاسترو) و(آرجويللر بت) و(جارزون) وآخرون. رحت أستعرض أسماءهم خلال تذكيري له بأننا كنا معاً في مؤتمر عام 1950 للأمراض

الجلدية والزهري الذي عقد في (توكومان)، و ذكرته بالليلة التي شربنا فيها الـ(جين) معا ونحن نستمع إلى أغنيات (أتاهوالبا يوبانكوي)[1].

بعد ذلك عرفني ووضع نفسه تحت تصرفي. وفي اليوم التالي، أي غدا، رتبت أمر العودة إليه ومعي آرنستو. بعد ذلك غادرت لأن المرضى بدؤوا يتوافدون إلى العيادة.

كانت الفتاة الهندية لا تزال بانتظاري حينما خرجت وقد أصابتها الدهشة للتحول الذي طرأ علي من رحّال إلى عالم. أعتقد بأنها، و مثل تسعين بالمئة من الناس الذين عرفناهم في (كوزكو)، تدّعي تحدرها من إحدى أقدم عائلات الـ(كيشوا).

كوزكو 2 نيسان 1952:

كان لقائي مع الدكتور (هيرموزا) مثمرا للغاية. لقد عرض مساعدتنا في الوصول إلى (ماتشو بيتشو) و أعارنا سيارته الـ(لاندروفر) كي نزور (أولانتاياتامبو).

كانت الطريق تتسلق بشكل شديد الانحدار في البداية ولم تكن مريحة، لكن سرعان ما تدخل وادي الـ(إنكا) حيث يتغير كل شيء. كتف الجبل بالكامل يخضع لأعمال الحرث والزرع، بل ويصل هذا إلى ارتفاعات يبدو معها الحراثون وثيرانهم كأنهم حشرات منتشرة على ظهر الجبل.

كلما ابتعدنا أكثر، اتضحت لنا عظمة سلسلة الجبال التي تشكل الجدار الآخر للوادي؛ لون الصخور والقمم الثلجية التي تلفها الغيوم ووفرة الخضرة في المنحدرات، جميعها جعلتني أتمنى و بمنتهى الحماسة لو كنا خمستنا آل جرانادو هنا كي ننعم بكل هذه الصور الساحرة معا. كنت بين

---

(1) أتاهوالبا ويوبانكوي (Atahualpa Yupanqui) (1908-1992) المغني وعازف الجيتار والمؤلف الأكثر شهرة للأغاني الشعبية في الأرجنتين.

الحين و الآخر أتخيل أن السيارة ملكنا وأننا نقوم بهذه الرحلة أنا والأسرة معا. المكان بأسره يفسح المجال لأن تجلس لوحة الألوان في يدك وألا تبرحه إلا والصورة قد اكتملت.

وصلنا قعر الوادي وكانت سيارتنا تشق طريقها عبر ممرات يحيط بها زهر الوزال المفتح و تظلله أشجار الكابيولا و الأوكاليبتوس. الهواء الدافئ النقي والأزهار الجميلة وهدير مياه الـ(فيلكانوتا) كل ما يتعلق بهذه الرحلة يجعلها لا تنسى. (حينما سنقوم بهذه الرحلة في البيت المتنقل سنرسل أبي وأمي بالطائرة إلى (كوزكو) وبعد ذلك نكمل هذا الجزء من الرحلة على الطريق معا).

تابعنا التقدم واللاما تهرب خائفة من أمامنا، والنساء الهنديات يسرعن لتحييد حميرهن العنيدة عن الطريق والتي كانت تراقبنا بعدم اكتراث رابطة الجأش. فجأة ظهر ما يوازي كل جمال الطبيعة هذا، إن لم يكن يتفوق عليه وكان من صنيع الإنسان؛ فقد شمخت أمام ناظرينا قلعة (أولانتيتامبو) التي بنيت فوق قمة صخرية مستدقة يكاد بلوغها يلامس أطراف المستحيل. قطع من صخر الجرانيت تزن الواحدة منها عدة أطنان رفعت إلى ارتفاعات شبه مستحيلة. أما إنشاؤها فقد أخذ في حسابه أن يستفاد منها أيضا في زرع الذرة أوقات السلم، وقابلية تحويلها إلى حصن منيع حينما تتعرض للهجوم.

بإعجاب وبهجة رحنا نستكشف كل شبر من القلعة ومخافرها الأمامية، بل وخططنا أين سنخيم حينما نأتي إليها ثانية مع الأهل.

في طريق عودتنا قدنا السيارة ببطء شديدة وألقينا نظرة على عدة قرى تغص بالمشاهد بما فيها (بوكويرا) و(تالكا) و(ايوكاي) الأجمل والأكثر ترحيبا، والتي كانت منذ قرون شبه منتجع لشعب الإنكا.

في كل مكان رأينا كيف يتعرض الهنود للاستغلال على يد البيض. أدركنا كيف تستفيد الطفيليات التي تعيش في المدينة من الهنود المجتهدين،

وكيف يجبرونهم على زرع المحاصيل في أعلى الأعالي من الجبال. روى لنا مزارع هندي، أقلناه في سيارتنا وبإسبانيته المتواضعة كيف كان أحد ملاك الأرض يسلبه عرقه بالخداع. منذ عشرة أعوام تقريبا تزوج وبنى لنفسه بيتا في الغابة على ارتفاع ألفي قدم تقريبا. أمضى نحو ثلاثة أعوام يقطع في الأجمات ويحرق بقايا الزرع ويحضر الأرض ليزرع فيها محصولا. طوال تلك الفترة لم يقل له مالك الأرض شيئا، وحالما أصبح المحصول جاهزا للحصاد، أرسل له الشرطة كي يطردوه من الأرض. حزم الرجل متاعه ورحل، آخذا زوجته والطفلين اللذين كانا له حينها. توجه نحو مكان أكثر ارتفاعا في الهضبة وأمضى ثلاث أو أربع سنوات في تحضير تلك البقعة من الغابة، وحينما اعتقد بأنه أوشك على جني ثمار جهده، قام مالك الأرض بطرده مرة أخرى. تبادلت و(بيلاو) النظرات حائرين فيما إذا كنا سنروع أم سنثور في وجه هذا الخضوع الجبري. أي خنوع كان في هذا الرجل حينما أخبرنا عن قصة هذا الجور الهائل المنفلت من العقاب!.

ماتشو بيتشو 5 نيسان 1952:

نحن في المحطة ننتظر القطار الذي سينقلنا عائدين إلى (كوزكو) وإلى القرن العشرين. مازلت مستحوذا بما شاهدت، ومدركا قلة ما نعرفه عن أمريكتنا الأصلية وأي نبوية تكشفت في كلمات (فيوزر) حينما قال لي عندما كنا في (رابلان): وجه و قفا يا صديقي، كل شيء وجه وقفا.

سوف أمر الآن على أحداث بضعة الأيام الأخيرة. انطلقنا صوب (ماتشو بيتشو) يوم الثالث من الشهر. كانت المنطقة شديدة الانحدار وكان على سكة القطار أن ترتقي صعودا وبشكل متعرج فوق سكة معلقة. في جزء من الطريق كانت القاطرة تسحب العربات، وفي آخر كانت العربات تدفع القاطرة. كان الخط يجري على طول الـ(بوماتاليه) وهو أحد روافد نهر (فيلكانوتا). كلما ارتفعت أكثر، تحولت الخضرة إلى مدارية وأكثر خصوبة. جوانب الهضبة يكسوها زهر الوزال، وسفح الجبل أشجار

الكابيولا والشجر المثمر. مررنا بعدة قرى مثل؛ (بوكويرا) و(أيراكوتشاكا) و(هيواكوندو) وسواها. وفي كل قرية كانت النسوة الهنديات يهاجمننا بأطباق الطعام على اختلافها. كانت هناك أكواز الذرة، وأجبان الماعز برائحتها الشهية والمنيهوت المغطى بالصلصات الساخنة والتي كانت مثيرة لنا.

سرعان ما يصب الـ(بوماتاليه) في الـ(فيلكانوتا) وتصبح كل الجبال المحيطة أكثر ارفاعا و أعظم انحدارا. تظهر أشجار السفرجل مع الكثير من نباتات السرخس وكذلك عشبة البيجونيا الاستوائية الأكثر جمالا. (أمي كانت ستملأ المتنقل بحشائش كهذه في مثل هذا الوقت) يتحول النهر بهمة إلى سيل جارف ويدخل سلسلة منحدرات وبأمواج ترتفع حتى عدة ياردات مسببة ذلك الصوت الهائل الذي يطلق عليه الهنود اسم (الهدير الجبار).

خرجنا على الرصيف في (ماتشو بيتشو) واتجهنا إلى الآثار نحو خمسة أميال في الطريق صعودا. اتبعنا خط سير قديم للبغال أكثر انحدارا ولكنه أقصر طولا من الطريق.

وصلنا فندقا قرب الآثار كان خاليا، وهو فأل خير لنا كان المسؤول هناك يلعب كرة القدم مع مجموعة من الموظفين وأهل الجوار فوق أرض شبه ممهدة يسمونها (السهل) هنا. سألنا أن كان بمقدورنا اللعب فوافقوا على انضمامنا إليهم وكانوا مندهشين قليلا لمجيئنا. عندما انتهت اللعبة عرفناهم بأنفسنا. كان المسؤول كاتبا. ربما من أولئك اليساريين الذين اضطروا للهرب تجنبا للاضطهاد تحت حكم (أودريا)[1]. وعلى الفور عرف قدرنا، ونظرا لأنه لم ينقصنا الذكاء والمعرفة كما كان حال ثيابنا، فقد قدم لنا المنامة والمأكل.

---

(1) مانويل اودريا (Manuel A. Odria) (1897–1974) دكتاتور بيروفي حكم البلاد ما بين عامي (1950 و1956).

خرجنا لنلقي نظرة حول الآثار. كان المشهد وحده يستأهل الرحلة. أما الأبنية فكانت من الجرانيت الأبيض وتنتصب على رعن جبلي بارتفاع نحو ألفي قدم فوق النهر الذي يجري خلال ممر ضيق على مجنبتيه هضاب مرتفعة، بعض منها قد دفنها الثلج. كان وقت الغسق وكانت مجموعة من الغيوم المنخفضة تدأب في حركتها لإخفاء القمم، كما لو أنها كانت تكفنها بشاش رمادي اللون. بضعة عروق مائية تنقلب برشاقة نحو شلالات استكملت رسم هذا المشهد الرائع.

ولكن إذا ما كانت الطبيعة تقدم مشهدا رائعا هنا، فإن صنع الإنسان لم يكن بأية حال ليتخلف عنها. ففي ظل (هواينا بيتشو) تختبئ إحدى أعظم أعمال الحضارات الفطرية في أمريكا الجنوبية.

قمة (ماتشو بيتشو)، التي وهبت اسمها للمدينة (ويعتقد بأنها (فيلكاباما القديمة)، محاطة من ثلاث جهات بنهر (فيلكانوتا)، ولسبيل الوحيدة إلى هناك هي طريق غير معبدة تدنو من جهة الجنوب. سوف أصف القلعة ابتداء من هناك، حيث تصل أولا إلى مخفر أو برج مراقبة بني بقطع من صخر الجرانيت الأبيض. وهذا المخفر يستطيع احتواء عشرة إلى اثني عشر رجل. من هناك تنزل إلى المنطقة المحتوية على البقعة الملكية. معبد الشمس على الوادي الشرقي، ويرتفع فوق كهف منقسم في الصخر، والذي لابد أنه الضريح الملكي. وباستخدام نوع الصخر ذاته، بنوا هذا المعبد كأنه قطعة واحدة بقطع الجرانيت التي تتلائم مع بعضها بشكل كامل ودون أي أثر لانفصال بينها. وكلما ارتفعت الجدران إلى أعلى، صغرت قطع الصخر مكسبة المعبد مظهرا من القوة ولمسة من الجمال الشفاف المذهل. شكله نصف دائري، ما أعطاه اسم (البُريج) لدى الزوار. يحتوي على عدة نوافذ، إحداها لها قطعتان منزلقتان في الأسفل بأقنية أسطوانية بقطر بوصتين تنزلق جلالها، حيث يتوضع القرص الذهبي الذي يمثل الشمس. نزلنا من هناك مع حلول الليل ودعانا مسؤول الفندق إلى العشاء.

قبل أن أخلد إلى النوم، كنت أقرأ كتابا أعطاني إياه المرشد، إنه مجموعة من الرسائل كتبها (بوليفار)[1]، ولعمق مضمونها ودقة موضوعها فقد ألهبت مخيلتي. فكرت في نفسي بأني كنت محقا حينما اتبعت الصوت الملح الذي سرى في داخلي ودعاني أن أجوب أنحاء أمريكا إلى أن أجد شيئا جديدا يمكنني عنده أن أطور قدراتي العقلية والعلمية والجسدية.

يوم الرابع استيقظنا عند الفجر وبدأنا النزول من (هواينا بيتشو)؛ أو القمة الفتية، كمقابل لـ(ماتشو بيتشو) أو القمة الهرمة. ترتفع القمة الفتية إلى نحو ألف ومائتي قدم عن قلعة (فيلكابامبا) الطريق شديدة الانحدار، لكنها سهلة المسلك. وصلنا آثار الحصن الصغير وأخذنا بضع صور وتركنا قصاصة ورق عليها توقيعنا داخل زجاجة بحيث يمكننا البحث عنها حينما نعود إذا قدر لنا ذلك.

عثرنا على حقل فراولة في الطريق نزولا وأقمنا لأنفسنا احتفالا. بعد ظهر ذلك اليوم ذهبنا إلى غرفة القرابين، وهي داخل البريج. أخرجنا الإبريق والمتة، وقمت بإشعال النار ووضعت الإبريق فوقها كي يسخن وتمددت على صخرة القربان. تحولت أفكاري إلى رسائل (بوليفار)[2] فقرأت آخر واحدة فيها. جلس (فيوزر) على صخرة مجاورة وقام بتخمير المتة بينما يقرأ كتابا لـ(بينجهام) المكتشف الجديد لـ(ماتشو بيتشو).

صحوت من حلم يقظتي وقلت لـ آرنستو: أتعرف ماذا أنوي أن أفعل؟ سأتزوج ماريا ماجدولينا. بما أنها سليلة (مانكو كاباك الثاني) فسأكون كاباك الثالث. سأشكل حزبا مؤيدا للهنود، وسآخذ كل هؤلاء إلى الساحل كي يصوتوا، وستكون هذه بداية الـ(توباك آمارو ريفوليوشن)؛ أو (ثورة الهنود الأمريكيين). نظر آرنستو إلي بجدية لا مبرر لها أمام

---

(1) سيمون بوليفار Simon Bolivar (1783-1830) جنرال ورجل دولة فنزويلا حرر سبع دول في أمريكا الجنوبية من الحكم الإسباني.

(2) مدينة الإنكا لعالم الآثار الأمريكي (هيرام بنجهام (1875-1956) Hiram Bingham الذي أعاد اكتشاف ميتشو بيتشو عام 1911.

جيشاني الفكاهي، ومرة أخرى فاجأني بإحدى أجوبته اللاذعة قائلا: (ثورة دون أن تطلق طلقة؟! أنت مجنون يا صديقي.

كل ما سبق كتبته وأنا أجلس فوق حقيبة السفر. رحلة العودة أبطأ بكثير من رحلة القدوم، فالقطار يمضي وقتا طويلا في توقفه مما في حركته. الناس تركب وتنزل لأخذ الزهور من أجل الاستعاضة يوم الاثنين. غادرنا روعة حضارة الإنكا) منذ تسع ساعات، وما زال الأمل غائبا في الوصول إلى (كوزكو). لقد أمضيت الوقت أفكر في الجمال الذي رأيته، وفي كل ما تعلمته، وما يتعين علي أن أتعلمه.

أتأمل في فقر أولئك الناس، نصف المختفين وراء البخار المتصاعد من قدور طهي الحساء بأنهم يناضلون لكسب بضع قطع نقدية لأجل أطفالهم، وكذلك في ما قاله (بيلاو) إذ لم أنس كلماته التي لم تزل تطن في رأسي: (ثورة دون أن تطلق طلقة؟! أنت مجنون يا صديقي).

عندما تفسر مغزاها، تراها مشابهة تماما لجواب أعطاه منذ عشرة أعوام تقريبا عندما طلبنا من طلاب الثانوية العامة أن ينظموا تظاهرة احتجاج يطالبون فيها إطلاق سراح المئات من طلبة الجامعة الذين اعتقلوا. حدث هذا في كانون الأول من عام 1943. كنت مشتركا في إضراب طلاب جامعة قرطبة، عندما تم الاستيلاء على الجامعة بأوامر من الحكومة الفعلية للجنرال (فاريل) وكنت قد اعتقلت مع كافة أعضاء اتحاد الطلاب.

أثناء فترة اعتقالي، كان أخوتي يحضرون لي الطعام، وكنا نجمعه مع المؤن التي كانت تصل للآخرين من أقربائهم ولجنة الإضرابات كي نعوض به عن القمامة التي كان يجود بها علينا مركز الشرطة حيث احتجزنا دون محاكمة. وحدث أن جاء آرنستو مرة مع أخي في إحدى الزيارات. وأثناء توزيع الطعام كنا نمنح مهلة عشر دقائق للزيارة. استغليت الفرصة لتوضيح الفكرة التي كنا قد أعطيناها لعدد من الزوار أصلا- لتنظيم طلبة الثانوية للمطالبة بإطلاق سراحنا، أو على الأقل كي نسلم إلى المحاكم. فحتى ذلك الحين كنا في حكم المختطفين ولم تدرج أسماؤنا من بين المعتقلين.

عندما انتهيت من التماسي، قال أخي (توماس) بأنه يرى في ذلك فكرة جيدة لكن (بيلاو) خرج بإحدى إجاباته اللاذعة قائلا: (اخرجوا وتظاهروا دون سلاح وسيشبعونكم ضربا. لا وبكل تأكيد! أنا لن أخرج دون سلاح).

عشرة أعوام بعدها والمشهد لم يختلف- لا تنتصر الثورة إلا بقوة السلاح. فترتان مختلفتان، إنما موقف واحد من الحياة.

إلى مشفى الجذام في (هوامبو)

كوزكو 6 نيسان 1952:

حضرنا اليوم مراسم تدشين أحد أبراج الكاتدرائية الذي أعيد بناؤه بعد أن دمره زلزال عام 1950. ويحمل هذا البرج أحد أضخم الأجراس في العالم وهو (ماريا أنجولا) يقال بأن الجرس يحتوي على مقدار كبير من الذهب ما يجعل دويه أكثر رنينا.

لعل الشيء الأكثر إثارة -لنا على الأقل- أن الفرقة الموسيقية لم تعزف السلام الملكي الإسباني، بل ترنيمة الجمهورية الإسبانية. وكانت محاولات القنصل الإسباني اليائسة لإسكاتهم مشهدا جديرا بالمشاهدة. كدت و(بيلاو) أن نموت من الضحك ووصلنا إلى نتيجة أن هذا لم يكن إلا انتقام الهنود الأمريكيين والكيشوا والشعب الإسباني من الكنيسة والفاشيين من أتباع (فرانكو).

بعد ظهر ذلك اليوم عدنا لمشاهدة (ساكسا هوامان) ثانية إنها دون شك قلعة لا تقل أهمية عن ماتشو بيتشو. ولكن لسوء الحظ كونها قريبة من الأرض، لم يكن هناك ما يمنع الإسبانيين من سرقة الحجارة التي تشكل جدرانها كي يبنوا بها كنائسهم. تتألف القلعة من قسمين؛ في أحدهما ينتصب عرش الـ(إنكا). هناك مجموعات من السلالم التي ترتقي إلى العرش، كان في بعضها ثلاث درجات أو أكثر نحتت من قطعة واحدة من صخر

الجرانيت. أما القسم الآخر من القلعة فضم عدة نوافير، وبناء مستديرا حمل الـ(إنتيهواتانا) أو بيت الشمس.

هناك قطع تزن الواحدة منها أكثر من طن، ولعل الشيء الأروع فيها طريقة تداخلها. ثمة نظريات حول هذا الأمر، بما فيها تلك التي مفادها أن طريقة رصفها وتنظيمها تعني أنه لو سحبت إحدى الصخور منها، أمكن استبدالها دون يؤثر هذا على ثبات الجدار. بعض تلك الحجارة، لها ما يزيد عن اثني عشر سطحا، وفي (ماتشو بيتشو) أرونا واحدة لها اثنان وثلاثون سطحا.

تقول إحدى الأساطير بأن شعب الـ(إنكا) تعامل مع الصخور بسهولة لأنهم كانوا يعرفون عشبة يمكن لعصارتها أن تلين الصخر فتجعله كالصلصال. وهناك طائر يبني أعشاشه في الصخور، حسبما أخبرنا دليلنا. ويمكنه ذلك من خلال معرفته بتلك العشبة، وهو يأتي حاملا أجزاء منها بمنقاره كي يفتح فجوة في الصخر ليبني فيها عشه.

إنها أسطورة جميلة، لكني و(بيلاو) متفقان على أن جهد الإنسان وإبداعه هو تلك العصارة التي تلين الصخر وتسمح له أن يبني تلك العجائب.

أكلنا في السوق اليوم وقد طلبنا ذلك الحساء المسمى (آجياكو) والذي يقوم في طبق فوق الذرة أو أوراق الملفوف. بعد ذلك ذهبنا لمشاهدة استعراض (سيد الزلازل) إنه مهرجان وثني بكل معنى الكلمة؛ تكاد تتوقع من الـ(كيشو) أن ينزعوا عباءاتهم النصفية ويبدؤوا الرقص حول التمثال، ثم يصرخون ويهتفون وأياديهم على أفواههم كما في أفلام (هوليود).

بعض الهنود المسحوقين، تتبعهم مجموعة من رجال الجيش المشاكسين، يحملون تمثال المسيح المصنوع من المعجون الأسود والذي أعطاه اللون النحاسي الداكن. تتقدم من خلفهم سلسلة من الشخصيات الرسمية المتفاوتة الأهمية، ومن ورائهم حشد ضخم من الهنود بملابسهم الرثة،

ونساؤهم اللواتي يحملن أطفالهن على ظهورهن، وجميعهم يتكلمون ويمضغون الكوكا أو ينهشون أكواز الذرة، بينما أسدلت على رؤوسهم خيوط الزهر التي أعدت من أجل المسيح.

كان سكان (كوزكو) يلحقون بالموكب، إما مكرهين من قبل أسيادهم، أو بفعل الخوف الذي زرعه القساوسة في عقولهم، لكن حالة الهنود تجعلني أعتقد بأن إيمانهم بالمسيح هذا كإيماني به أنا و(فيوزر).

آبانكاي 11 نيسان 1952:

نحن بالقرب من جدول يجري عبر أحد الأخاديد الكثيرة في هذه البلدة. المكان أشبه بجنة عدن بمناخ دافئ لكن ليس بمداري، يتوسع الجدول ليتخذ شكل بركة يمكن للمرء أن يسبح فيها، وأشجار المشملة[1] والتين تمنحنا الظل والفاكهة. لا شيء ينقص المكان سوى وجود حواء والأفعى بل حواء على وجه الخصوص.

سأعود إلى بضعة أيامنا الأخيرة في (كوزكو). بعد أن حصلنا على رسالة تعريف من الدكتور هيرموزا إلى الطبيب الذي يدير مشفى الجذام في (هوامبو)، وبما أننا أنسحبنا استراتيجيا من المأوى الذي كنا فيه مع (ماريا ماجدولينا)، فقد بدأنا المناورات التنظيمية اللازمة لاستئناف الرحلة. أمضينا عدة أعوام نقوم بجهود كانت بين التصميم والتريث. بعد ذلك حططنا رحالنا في ثكنة الحرس الوطني.

وضعونا في ذات الغرفة التي وضع فيها أحد الضباط المعتقلين، والذي اتضح بأنه يستأهل أن نكون جمهوره من الأفراد اللامعقولين. إنه أفضل تعليما وبشكل لا بأس به من الضباط العاديين، و يمتلك خيالا جامحا ومشبعاً بنفس الروح الإمبريالية كسائر العسكريين البيروفيين تقريبا.

---

(1) المشملة (Medlars) شجر يعيش في المناخات الاستوائية وهو من الفصيلة الوردية.

تناقشنا في مواضيع شتى، ولكن كنا وباستمرار نعود إلى موضوع الذهان (فقد الاتصال بالواقع) لدى الجندي البيروفي.

حاول إقناعنا أن على البيرو أن تعلن الحرب على تشيلي. وكما لو أن هذا لم يكن كافيا، فقد كان يسبح بعيدا عن الواقع لدرجة أنه تحدث عن قصف مراكز الإنتاج وشل محطات الطاقة الهيدرو كهربائية. رددنا عليه بالقول: (ماذا تقصد بشل؟) سلاح تشيلي وعتادها مستورد من الولايات المتحدة، وكل ما تفعله محطات الطاقة هو توفير الإضاءة الضعيفة لبضعة شوارع، ولا يمكنها تزويد أية منشآت صناعية. فضلا عن أنه، كي تفعل البيرو ذلك فهي تحتاج لطائرات قادرة على التحليق مسافة تزيد عن الألفين وخمسمائة ميل- وهذه لن يبيعها لهم أسيادهم من اليانكي، بل ولن يسمحوا لهم بامتلاكها.

لم ندحض كل جدلياته وحسب، بل أيضا جعلناه يواجه حقيقة أنهم وعوضا عن تكريم أبطال التحرير، يكرسون أنفسهم للتغني بمديح جنرالين أو ثلاثة هزموا في حرب اقتتال الأخوة ضد إخوانهم التشيليين.

بعد هذه المناقشة الأخيرة، حاولنا أن نقتصد في الحديث معه إلى أبعد حد. أمضيت الوقت أقرأ داخل المكتبة، بينما عاد (فيوزر) إلى المتحف، الأمر الذي تجنبته للأسباب التي أسلفت ذكرها.

عندما كانوا يطردونني خارج المكتبة، كنت أعود إلى الثكنة وأقرأ الكتاب الوحيد الذي كنت أراه مسليا هناك، (نابليون) لـ(ميريتشكوفسكي)[1]. ليس بمستوى كتاب ليوناردو دافنشي، إنما جدير بالقراءة ويسلط الضوء على جوانب معينة لم تكن معروفة لدي من شخصية (بونابرت).

---

(1) ديمترى ميريتشكوفسكي (Dimitri Merezhovski) (1865-1941) مفكر صوفي مسيحي من روسيا له مؤلفات في الرواية التاريخية وكتب عدة نصوص فلسفية ودينية وكذلك عمل في التراجم وكتب عن نابليون بونابرت وليوناردو دافنشي. المترجم.

أخيرا تدبرنا أمر نقلنا بسيارة متجهة إلى (أبانكاري) وهي على الطريق إلى (هوامبو) كالمعتاد لم يبخل الطريق علينا ببعض مفاجآته الرائعة. فهي ترتقي في صعود مستمر من (كوزكو) حتى تبلغ مكانا يدعى (أبرا). ارتقينا قمة مكسوة بالثلج، وبعد بضع دقائق كنا نسير في سهل مرتفع لا يقل ارتفاعا عن القمم الأخرى المكسوة بالثلوج. عند الغسق بدأنا النزول وكنا نتقدم عبر ضباب خفيف أضاف مسحة جديدة من الخطر على رحلتنا.

لدى مشاهدته من الطريق، بدأ نهر (أبوريماك) كخيط رفيع من الماء يمتد بين رعون هي في واقع الأمر هضاب ضخمة. الطريق شديدة القساوة وكثيرة المنعطفات التي تساير حوافا جرفية شاهقة، لكن المشهد جميل لدرجة أنك تنسى كل الأخطار فيما بعد، وبينما كانت الشمس تميل إلى المغيب، كانت آخر خيوطها تضيء القمم المعتمرة بالثلج وتمنحها ومضة من الفضة. ولعل روعة التلال والثلج الذي يغطي قممها، جعلني أتثبت من حقيقة مفادها أن الجمال لا يعرف الحدود.

سطع القمر ونحن في بداية نزولنا، ورسم هالة حول قمم الهضاب الأكثر ارتفاعا. ولعدة مئات من الياردات عبر الطريق كانت الغيوم تتمدد تحتنا. كنا نمضي بسرعة تسبب الدوار، ونختبر الظاهرة النادرة في السفر تحت سماء كان حالها متبدلا بين صحو وغائم.

وصلنا (أبانكاي) وخلال أقل من الساعة انتقلنا من برد شبه قطبي في (آربا) إلى المناخ الحار في الوادي. عرّفنا بأنفسنا في المشفى ودعينا لتناول العشاء وبعد ذلك مباشرة خلدنا إلى النوم.

اليوم -الحادي عشر من نيسان- استرحنا قليلا في الأخدود الذي حفرته الأمطار، ثم عدنا إلى المشفى. تناولنا الغداء غسلنا ثيابنا وشرحنا للممرضات قليلا عن الأساليب السريرية والمخبرية، وكما في مناسبات الأخرى، انتهى بنا الحديث عن مغامرات رحلتنا، وفي النهاية مضى كل منا يتسامر ويتسلى مع إحدى الممرضات.

التقينا ثانية عند الغسق وألقينا نظرة في أرجاء البلدة إلى أن قادتنا أقدامنا إلى الجدول. حاولت وأنا مستلق على ظهري، محدقا في السماء، أن أفكر ببعض الأمور التي حصلت، لكنني لم أستطع الانسياق بعيدا لأن المشهد الذي أمامي كان من الجمال بحيث لم يدع شيئا يشغلني سوى الإعجاب به. أمام عيني تحولت زرقة السماء إلى ظل صار يبهت شيئا فشيئا. إلى يساري السلسلة الجبلية، التي تحيط بها حاشيتها الدائمة من الغيوم، كانت تخلع على نفسها لباسا من لون رمادي سبغته العتمة. لو أملت رأسي إلى الوراء قليلا، لتمكنت من أن أرى بقعة من السماء كانت لا تزال في ثوبها الأزرق مقطعة إلى أشكال غريبة بفعل أشجار الأوكاليبتوس التي نمت على ضفاف الجدول الجاري. بدأت أولى النجوم تتلألأ وانصهرت سمفونية الألوان في ظل رمادي وحيد.

انطلقنا عائدين. وبعد جدال بسيط، حيث أن فيوزر يؤيد سلوك طريق مختصرة عبر كتف الهضبة، وأنا أريد العودة من نفس الطريق، اتخذنا طريقا عشوائية. سرعان ما اختفت هذه الطريق بين الشجيرات الدغلية وبدأنا نتسلق في العتمة بحثا عن الطريق التي تمتد على طول المسيل.

بدأ التسلق يصعب أكثر فأكثر، وأصبح علينا أن نتمسك بالعليق والأشجار كي نرفع أنفسنا للأعلى إلى أن وصلنا في النهاية إلى بقعة أرض مزروعة وبعدها جدار من الحجر. تسلقناه فوجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام المزارع الذي لابد أنه اعتبرنا شيطانين إذ هرب مسرعا وهو يصرخ (فيراكوشا) عدة مرات. لحقنا به وشرحنا له بأننا كنا نحاول بلوغ الطريق. وبعد أن استعاد هدوءه أرشدنا إلى الطريق.

لدى دنونا من البلدة، صادفنا مشهدا غريبا لصف من المشاعل الذي اتضح بأنه كرنفال خميس الغسل؛ صف طويل من الفتيات من مدارس كاثوليكية وفرقة الرب المحلية.

عندما عدنا إلى المشفى ألقينا محاضرة عن الجذام نجم عنها وكأنه نتيجة طبيعية إصابة آرنستو بنوبة حادة ما اضطره لأخذ حقنتين من الأدرينالين الواحدة تلو الأخرى تقريبا.

هوانكاراما 13 نيسان 1952:

بما أن الطبيب الذي حملنا له توصية الدكتور (هيرموز) لم يكن يعرف شيئا عن الجذام ولم تكن زيارتنا للمشفى تهمه، فقد قررنا متابعة طريقنا دون عون من أحد.

تدبرنا شاحنة تأخذنا إلى هذه البلدة الصغيرة حيث تعرضت لخوف عظيم أوشك أن يجهز علي. لم نكد نصل البلدة عندما اضطررت لإعطاء حقنة لـ(بيلاو) إثر نوبة ربوٍ بالغةِ الشدة كان مهيأ لها نفسيا بما أنه لم تكن في البلدة أية صيدلية أو عيادة، ولم يكن قد تبقى لدينا سوى أنبوبتين من الأدرينالين.

نحو الرابعة صباحا أيقظني (آرنستو) بحالة من اليأس، إذ أن نوبة الربو عاودته وبشكل أكثر ضراوة و حيث لم يتبق لدينا أي من الأدرينالين قررنا أن أعطيه حقنة من كلور الكالسيوم في الوريد كي تحدث لديه حالة من التوتر ما سينشط بدوره الغدة الكظرية كي تفرز الأدرينالين.

خرجت إلى الشارع وجمعت بعض الماء من الجدول الجاري وراء المزرعة التي وصلنا إليها تلك الليلة. استخدمت الماء لتعقيم الإبرة ثم أعطيته الحقنة. هدأ قليلا وأنا استغرقت في النوم.

فجأة أيقظتني تأوهات. أشعلت عود الثقاب، لكن منظر آرنستو جعلني أقفز منتصبا على قدمي. بدا وكأنه يعاني آلام نوبة كزاز. جسمه بالكامل كان منقوشا فوق الأرض لا يسنده سوى رقبته وكعباه، وفمه ووجهه في حالة تقلص. تلك المؤشرات كانت من عوارض الكزاز.

لم أعرف ماذا أفعل. خطر لي أن ماء الجدول كان يحتوي على أبواغ الكزاز التي ربما هي ما سبب النوبة. لكنني قلت في نفسي: (لا فذلك مستحيل الحدوث في وقت قصير كهذا). لحسن الحظ أن حالة التقلص تراجعت، وبدأ جسم آرنستو يستعيد وضعه الطبيعي وحل محل تأوهاته شخير، طالما كنت أتضايق منه في السابق، إلا أنه وقع على مسمعي ليلة أمس كأنما موسيقى آتية من السماء.

بعد هذه الليلة البالغة السوء، استيقظنا متأخرين وتفاوضنا مع حاكم البلدة كي نحصل على حصانين لنقلنا إلى (هوامبو) جيء بالحصانين نحو الساعة الحادية عشرة صباحا، وبصراحة لست أدري إن كانا يستحقان هذا الاسم. كانا بحجم حمارٍ عادي، ونحيلين لدرجة أنهما بدوا وكأنهما سيعجزان عن تحمل ثقلنا.

بصحبة شاب هندي يقودنا في الطريق انطلقنا صوب (هوامبو) كان الحيوانان يسيران بخطى أبطأ من سير الآدميين ولم يغيرا سرعتهما مرة طوال الرحلة.

لدى مرورنا بالقرى الصغيرة المتعددة كانت تصاحبنا أصوات احتفالات الهنود. بدأت الطريق تبدو طويلة وأخذت تزداد وعورة بشكل مطرد، لا بل بدت أحيانا وكأنها ترتقي مجموعة سلالم حقيقية في الصخور، ولم يكن سوى الخيول تستطيع متابعة الدرب دون أن تخطىء موقع حوافرها، كونها صغيرة الحجم ومعتادة على المنطقة.

خلال كل ما مضى من وقت كان شخصان هنديان يتبعاننا في سيرنا- امرأة متوسطة العمر وفتى، هو نفسه الذي ساعدنا في أول رحلتنا. كانا بين الفنية والأخرى يتحدثان إلينا بلغة الكيشوا، وبما أن المرأة كانت تحمل سلالا، فقد ظننا بأنهما يعرضان علينا شيئا نبتاعه فلم نعرهما أي انتباه.

بعد أن مضى على تقدمنا نحو ثلاث ساعات، وإثر عبورنا سلسلة هضاب كنا نظن كل واحدة منها هي الأخيرة، بلغ فينا المطاف آخر أحد الأودية. وجدنا أنفسنا في سهل يتمدد فيه مسيل عريض إلى يميننا، وعلى مجنبتيه سلسلتان جبليتان، جزء منها كان مزروعا. كانت هناك قطع من الأراضي الخضراء، تشرف عليها عزبة سقوفها حمراء اللون، ظهر لنا من ورائها وفوقها بقية الجبل مغطى بما بدا لنا غابة لا يمكن اختراقها. إلى يسارنا، وعلى مسافة بعيدة بانت لنا (هوامبو) أخيرا.

وبينما توقفنا هناك لوهلة جاء إلينا مرافقانا، وشرح لنا الفتى الهندي بإسبانيته المتخلفة بأن أحد الخيول التي نمتطيها كان له، والآخر للمرأة، وأن الملازم، حاكم البلدة، سلبهما إياهما وأنهما كانا يلحقاننا بحيث يمكنهما العودة بالفرسين إلى بيتهما بعد أن نكون قد بلغنا وجهتنا. كانا يعيشان في (أبانكاي) أي على بعد سبعة أميال من حيث انطلقنا ولكن في الاتجاه المعاكس.

بحالة مفعمة بالأسى، كوننا تسببنا ودون قصد بإهانة أخوة لنا في الإنسانية، ترجلنا عن الفرسين وأعدناهما لأصحابهما. وكي نخفف عنا وخز الضمير، أعطيناهم سولا وعرضنا أن نأخذ لهم صورة وقف الفتى الهندي أمام آلة التصوير وهو يرسم ابتسامة عريضة، لكن سليلة (ماما أويللو) اكتفت باستعادة فرسها وانطلقت تنزل الهضبة عبر طريق ضيقة تتجه نحو المسيل مباشرة، دون أن تنتظر أية تعويضات أخرى.

تابعنا السير مشيا على الأقدام ونحن نتحدث عن السلوك الشائن لأولئك الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون القدرة على التصرف بحياة الناس وممتلكاتهم فقط لأنهم يحتلون مناصب رسمية.

توقفنا لنستريح قليلا في ظل شجرة إجاص شائكة، وبما أنها كانت محملة بالثمار، فقد أرضينا جوعنا وعطشنا بملء معدتنا من ثمرها بعد دقائق، وفي نهاية درب رطبة ومظللة حيث لا يمكن لشعاع الشمس اختراق

كثافة أوراق شجر الكابيولة، وقفنا وقدمانا تغوص في الوحل و أمامنا مشفى الجذام في (هوامبو).

من الصعب أن أصف ما شعرت به حينما رأيت مشفى الجذام على الرغم من أن الأكواخ التي رأيناها على طول الطريق- وفضلا عن حقيقة أنها قد اقتلعت من الحضارة- قد هيأتني لرؤية شيء لا يتناسب مع طبيعة الغرض منه، فإن كل ما تخيلته أمسى صورا باهتة أمام الحقيقة. نظرت إلى (فيوزر) فاستطعت من الصورة التي ارتسمت على وجهه أن أفهم أنه كان يفكر بالشيء ذاته.

هذه التي يسمونها مشفى قسمت إلى قسمين. وكما حال كل المؤسسات المشابهة، أحد الأقسام كان يعرف بالمنطقة الصحية، وهنا كان يتألف من غرفتين بمساحة خمسين قدما مربعا بجدران طينية وسقف من القش. كانت الغرفة الأولى تستخدم كمستوصف وحجرة طعام ومكتب للقبول والإدارة. أما الغرفة الأخرى فكانت كصيدلية وغرفة معاينة وحجرة عناية إضافة إلى مكتب سجلات. لو قدر لمبتكر النظام أن يكون موجودا، لما استطاع أن يوجد نظاما في هاتين الغرفتين لذا لم نعجب حينما رأينا مماسح على الأرض، وكبسولات بودرة تعقيم في إحدى الزوايا، وفي زاوية أخرى السجلات الطبية للمرضى، ومجموعة من المآزر والكفوف الجراحية معلقة على مسمار. بشكل عام كان كل شيء مرتبا إذا ما قورن بالظروف.

كانت هيئة العاملين تتألف من أخصائي صحي مسؤول وثلاثة ممرضين. استقبلنا من قبلهم بمودة بالغة، واقترحوا علينا زيارة المرضى في اليوم التالي. اليوم سيأخذوننا إلى عزبة قريبة نظرا لأن المصحة لم تكن تمتلك أسباب الراحة.

هوامبو 14 نيسان 1952:

اليوم شاهدنا القسم الآخر من المشفى وهو شعبة المرضى. إذا كان شعور بالأسف قد تولد لدينا حيال القسم الذي يؤدي فيه الموظفون أعمالهم، فإن المنطقة التي يقيم فيها المرضى ولدت لدينا من الشعور بالأسف ما لا يرضى بأن يكون أقل مرارة من سابقه. كان هناك جدار يفصل ما بين القسمين، وكان قسم المرضى يتكون من أربعة أجنحة؛ كل منها يتألف من عدة أكواخ طينية بلا نوافذ. وكل واحد من الأكواخ الثلاثة التي تؤلف الجناح كان يضم ثلاثة مرضى.

كان المرضى المساكين مزروعين فوق فرش محشوة بالقصب داخل تلك الزرائب التي بالكاد بلغ ارتفاعها ستة أقدام، وتفتقر بالكامل إلى المراحيض والوسائل الصحية.

على مسافة ليست بالبعيدة إلى الأمام كانت هناك قطعة أرض مسورة بجدار من اللبن يمكن للمرضى القادرين على تدبر أمورهم أن يخففوا عن أنفسهم الملل بزرع المنيهوت والبطاطا والذرة. هذا كل ما كان عليه حال مشفى الجذام في (هوامبو).

بينما كنا عائدين من جولتنا، كانت إحدى الحالات الجديدة تدخل مكتب القبول. كانت امرأة شابة أصلها من (إبكويتو) وقد شخصوا حالتها في (كوزكو) على أنها مصابة بالجذام. وعندما وجدت نفسها في هذا الحيز الضيق الذي تصعب تسميته بالغرفة، لم تقو إلا على الاستسلام لنوبة انفجار عاطفي مبرر، تبعتها حالة من اليأس التام. حاولنا مواساتها ببضع كلمات ودية، وجلسنا على حافة السرير، وبشكل أبوي حاولنا إقناعها أن قبول العلاج سيمكنها من العودة إلى بيتها بسرعة. بعد ذلك تركناها متأسية إلى حد ما.

بعد ذلك ذهبنا لمقابلة مريض آخر، وكانت معلمة سابقة في مدرسة مجاورة. وقد تأثرت كثيرا حينما حييناها مصافحين، وجلسنا على نفس

الكراسي التي جلست عليها، لكن دموعها -وكانت مزيجا من الألم والأسى والسعادة- فقد أثرت بنا أيضا. أخذنا صورة معها، ثم تابعنا جولتنا.

لم تخف عنا زيارتنا مفاجأة حزينة أخرى. في آخر الأكواخ كان هناك أربعة أطفال، جميعهم دون سن السادسة، يعيشون مع والديهم الذين يعانيان الجذام الورمي. تحققنا فيما إذا كان الأولاد قد اخذوا حقنة الـ(بي، سي، جي) المضادة لأمراض السل كي تحفز مقاومتهم، وطبعا لم يأخذوها. ومن خلال الاستعدادات الموروثة عن أبويهم، والعيش معهم والاتصال المباشر بهم، فقد حكم عليهم باحتضان المرض.

في ختام زيارتنا تجمع بعض المرضى ليعرضوا علينا مواهبهم الفنية. كان من بينهم ثلاثة يعزفون على آلة بوتر واحد تشبه الكمان، وكانت من صنعهم.

ثم التقينا الأبطال المجهولين الحقيقيين الذين يناضلون للحفاظ على المشفى وجعله يستمر السيد (مونتيجو) ومساعديه الثلاثة (فيفاكونا) و(مونتويا) و(فالديفيا). أخبرونا عن النواقص التي يعانون منها والحاجة إلى طبيب منتظم، لأن الطبيب الحالي يغيب شهرين أحيانا دون أن يأتي لزيارة مصحة الجذام.

سألناهم عن الأطفال، وأخبرونا أنه كان من المحال إقناع أبويهم بالابتعاد عنهم، وأنه إذا تم فصلهم بالقوة، سيفر الأبوان من المشفى. وسألنا أيضا أن كان قد أعطي الأطفال لقاح الـ(بي، سي، جي) الذي، مع أنه معني بمقاومة السل، إلا أنه يمتلك القدرة على تكوين جسيمات مضادة تحمي من مرض (هانسن)[1] أيضا. اخبرونا أنه رغم كثرة ما تحدثوا بهذا الأمر، إلا أنهم لم يتمكنوا من جعل السلطات الوطنية تزودهم بالعقار،

(1) هانسن (G. H. Hansen) (1841-1912) طبيب نرويجي اكتشف داء الجذام.

ورغم الطلبات الملحة للدكتور (بيسسيه) الذي، وحسب ما قالوه، العالم الوحيد في البيرو الذي يهتم بالمرضى الذين يعانون داء (هانسن).

مع ذلك أرى أن الصورة هنا ليست قاتمة بالكامل. بداية العلاج هنا بأحدث أنواعه، فهم يعطون المرضى مواد كال(بورومانيد) وال(سولفترون) وهي الأكثر فاعلية في علاج البكتريا الجذامية. كبريتات الحديد الثنائي يستخدم في مقاومة فقر الدم. الغذاء جيد والمرضى يدعمون غذاءهم بالخضراوات التي يجمعونها بأنفسهم، وللبروتين يتناولون الخنازير الهندية، التي تستخدم عادة في المختبرات، والتي تنمو هنا لتصل إلى أوزان وأحجام كبيرة.

لكن الشيء الأعظم هو أسلوب السيد (مونتيجو) ومساعديه في التعامل مع المرضى والذي يتميز بالكثير من التعاطف والحنان، وهذا ما يعوض شيئا من النقص الشديد الذي تعاني منه المشفى.

بعد ظهر ذلك اليوم قمنا بزيارة مصحة أخرى بنيت على بعد ميل أو نحو ذاك عن المصحة القديمة. الطريق هناك ملأى بالمشاهد، الأمر الوحيد المتوقع في هذه المناطق. تجري الطريق في واد على طول ضفاف نهر صغير، ثم ترتقي جنبات الهضبة أو تقطع حقل ذرة لأحد المزارعين لسوء الحظ فقد كان الناموس يلاحقنا طوال الطريق، تاركا إيانا مشبعين لسعا و أوراما. كان لهذه الرحلة أن تكون رائعة، لولا حقيقة أن فيوزر كان لا يزال يعاني آثار نوبة الربو الحادة في الليلة الماضية، والتي لم تهدأ إلا عقب حقني له بإبرتين من الأدرينالين.

وصلنا إلى المشفى الجديد. إنه أضخم من المشفى السابق، لكن مسافة تفصل بينه وبين أن يكون مؤسسة مقبولة. لا توجد فيه غرفة عمليات، ولا مختبر ولا غرف معروفة للمرضى. باختصار، إنه مستودع يخزن فيه المرضى، بسعة أكبر من المشفى الآخر، لا شيء أكثر من ذلك.

عندما انطلقنا في طريق العودة، شعر فيوزر بأن نوبة الربو عنده تزداد سوءا، فاضطر أن يجلس وينتظر. بينما ذهبت لإحضار إبرة وبعض الأدرينالين. عرض أحد الممرضين العودة على ظهر الحصان ظنا بأنه بهذه الطريقة سيصل إلى فيوزر بشكل أسرع ويعطيه الإبرة. بعد نحو خمس وأربعين دقيقة ظهر فيوزر على العتبة شاحبا منكمشا وغير قادر على النطق بكلمة تقريبا. سألني بعينيه عما حدث، فقد قطع مع الممرض دروبا طويلة في الطريق.

عندما تعافى، والفضل للحقنة، عدنا إلى العزبة لتناول العشاء. كانت مزرعة هائلة تمتد من هنا إلى نهر (فيلكانوتا) أي إلى (ماتشو بيتشو) تقريبا. فيها مناطق واسعة زرعت بالفصة، وتؤمن مرعى لمئات الأبقار التي تتم معالجة حليبها. كما أنهم يزرعون قصب السكر أيضا على طول ضفاف الـ(فيلكانوتا) ويقطرون من عصارته البراندي السم والحليف لملاك الأراضي.

عندما علم مالك العزبة أننا متخصصان بدأ يعاملنا باحترام ومودة، ويقدم لنا كل أسباب الراحة. تكاد لا تصدق أن في داخل هذا الشخص عينه من الشر ما يكفي لأن يمارس أبشع صور الاستغلال اللاإنساني تجاه أشخاص آخرين لا يقلون لحما أو دما عنا.

طريقته في الحصول على الأرض الصالحة للزراعة لا تختلف عن تلك التي يستخدمها كل المستغلين الآخرين. فهو يسمح للمزارعين المجاورين أن يأتوا ويعيشوا في أرضه. يمنحهم جزءا من الغابة البكر ليستقروا بها. وكل سنة يقومون بتطهير قطعة أرض ويسمدونها ثم يزرعونها، وعندما تصبح المنطقة المزروعة بحجم لا بأس به، يطردهم منها. وإذا أرادوا البقاء، عليهم أخذ قطعة أرض أخرى غير مستصلحة وفي مكان أكثر ارتفاعا في كتف الجبل. ويستمر في دفعهم هكذا وصولا إلى القمة، حيث تكون الأرض أقل خصوبة.

أخبرنا بكل تلك الطرق المهينة ونحن مجتمعون على طبق من حساء الدجاج الذي يتصاعد البخار منه، وإلى جانبه نبيذ تشيلي غني النكهة. ولكن لا الطعام اللذيذ، ولا الخوف من المبيت في العراء منعنا من أن ننقد أساليبه بشدة. لم يصدق الرجل ما كان يسمعه، و (مونتيجو) المسكين، الذي عرفنا إليه، ظل يومئ لنا بأن نصمت. انتهى العشاء أخيرا وذهبنا للنوم.

على الرغم من المطر الخفيف المتواصل، كانت الخيول والمرشد الذين عرضهم صاحب المزرعة علينا جاهزة في تمام الخامسة صباحا. وبينما كنا على وشك المغادرة، خرج سيد المكان وهو لا يزال عابسا، واقترح علينا البقاء إلى أن يصبح الجو صحوا. شكرناه على اقتراحه، لكننا رفضناه.

نزلنا إلى المصحة، ودعنا كلا من المرضى والموظفين وانطلقنا قاصدين (هوانكاراما).

نحو الغابة الاستوائية البيروفية

هوانكاراما 15 نيسان 1952:

كانت الرحلة بطيئة جدا بسبب الحالة المزرية للطرقات إثر هطول الأمطار. عندما وصلنا وجدنا عددا كبيرا من الهنود يقيمون كرنفالا لهم. غالبيتهم، من رجال ونساء، كانوا مخمورين ويعزفون على آلات الفلوت خاصتهم ويؤدون رقصات كرنفالية. كانت النساء، وربما بفعل الكحول، أكثر جرأة من المعتاد ورحن يصرخن علينا ويؤدين حركات داعرة، ربما بسبب شكل ثيابنا، لكنها حركات لم تثر فينا أي شهوة.

وصلنا البلدة نحو الرابعة عصرا. كان بيلاو يتعرض لنوبة ربو حادة. ذهبنا إلى مخفر الحرس المدني، لكنه كان مقفرا. فرجال الشرطة أيضا كانوا في حفلة صخب خاصة بهم. تكوم آرنستو في إحدى الزوايا، بينما خرجت بحثا عن الماء كي أعقم الإبرة. صادفت إحدى النساء فطلبت منها الماء، وما أدهشني كان قولها إنها كانت تبحث عني. كانت قد سمعت بقدوم طبيبين إلى البلدة وأرادت منا أن نفحص لها والدها. ثم جرتني بالفعل ولم يكن لدي خيار إلا الذهاب وفحص الرجل، وبينما كنت أقوم بذلك تجمهرت حولي مجموعة من الناس ومعهم أطفال مرضى. كتبت لهم وصفات لأدوية ربما يجدونها في صيدلية مشفى الجذام المكان القريب الوحيد للحصول على الدواء. بعد ذلك طلبت الماء كي أعقم الإبرة.

كان الماء الذي قدم إلي بلون التربة وبدا ملوثا. كان بحاجة لأن أغليه وقتا طويلا. لحسن الحظ أنها بدأت تمطر لذا تخلصت من الماء الذي لدي وملأت الآنية بماء المطر. عندما عدت بعد نحو ساعة كان فيوزر قلقا ولم يكن يدري ما الذي أخرني. وبينما كنت أغلي الإبرة قصصت عليه ما جرى. حقنته بأمبولة سائل مع نصف كمية من الكورامينا كانوا قد أعطوننا إياها في المشفى. في غضون دقائق كان مفعول الأدرينالين قد استجاب وغط فيوزر نائما.

آنداهوايلاس 16 نيسان 1952:

هذه البلدة كبيرة بما يكفي لأن يكون فيها مشفى، لذا سنتمكن من الحصول على بعض العلاج لآرنستو.

الطريق هنا، كباقي الطرق الأخرى في الإقليم، ترتفع بشكل حاد. منتصف النهار توقف سائق الشاحنة التي كنا نركبها للغداء في إحدى المزارع. كنا قد روضنا أنفسنا على الصيام، لكن شهرتنا كانت قد سبقتنا ميلا أو ميلين إلى هذه المزرعة المرتفعة، واستدعينا للاستشارة. قمت بفحص طفل ذي صحة جيدة وامرأة ربما كان لديها ورم في المبايض. لذا لم أصف شيئا للطفل، وقلت إن على المرأة زيارة الاستشاري في المدينة. دعوني للجلوس إلى الغداء معهم، وأرسلوا لـ(فيوزر) طبقين من الـ(موته) وهو الاسم الذي يطلق على الذرة المغلية في هذه الأرجاء.

رغم الربو الذي يعاني منه، أكل فيوزر جيدا، والمتبقي من الطعام أشركنا فيه بعض الهنود الصغار الذين كانوا يحملقون بنا أثناء الأكل. يبدو من المستحيل أن أطفالا بهذا اللطف والبهجة والمرح سيؤول حالهم، بعد بضعة أعوام من الازدراء وسوء المعاملة والتدين، إلى أناس لا يصلحون لأي شيء سوى أن يكونوا خدما. والأسوأ من كل ذلك أن مضغ الكوكا، وشرب براندي قصب السكر سيجعلهم خنوعين ومتبلدين وعديمي الثقة.

في الوقت الذي وصلنا فيه البلدة، كانت نوبة جديدة من الربو قد بدأت تداهم آرنستو. اضطررنا للتوقف في كراج سمحوا لي فيه أن أعقم الإبرة. وبعد أن حقنته بالأدرينالين ثانية، وجعله يستلقي فوق مقعد خشبي، خرجت أبحث عن مأوى. وبعد عدة غزوات باءت بالفشل التقيت رجلا يدعى (روميرو). رافقني بأناة إلى كل المقاهي والمواخير بحثا عن الطبيب رئيس المشفى، وحاول أن يؤمن لنا غرفة في المشفى. وقد دعانا إلى العشاء تلك الليلة.

آنداهوايلاس 17 نيسان 1952:

منتصف الصباح جاء الطبيب لرؤية فيوزر. من الواضح أن الرجل يعرف القليل عن الطب العام، بل وأقل من ذلك عن الربو. ودون رغبة منه، أجاز لنا البقاء ليلة أخرى. تغدينا هناك لكن نوعية وكمية الطعام لم تكن لتكسب المرضى صحة جيدة.

قابلنا الطبيب الألماني المشرف على حملة منظمة العالمية للقضاء على الجدري. ووعد بأن يأخذنا في سيارته إلى (هوانتا).

آنداهوايلاس 18 نيسان 1952:

ذهبنا اليوم لنشكر صاحب الكراج على مساعدته. وعندما عرف بأمر الأسلوب غير المتعاون الذي عاملنا فيه الدكتور (مونتيس) عرض علينا كل القليل الذي كان لديه. كما هو الحال في تشيلي و الأرجنتين، هنا أيضا في البيرو، أكثر الناس فقرا هم الكرماء. الأثرياء عموما، والأطباء خصوصا، تراهم كارهين لأن يظهروا أبسط صور الإنسانية. ويدعون أنفسهم أطباء! عادة كما في حالة (مونتيس)، هم من أولاد المليونيرين الذين يثرون من استغلال الهنود. أما لقب (دكتور) فلا يتعدى كونه زخرفا يزيدون به ثروتهم. وليس وسيلة لتخفيف معاناة الإنسان.

آنداهوايلاس 19 نيسان 1952:

أمضينا هذا اليوم بأكمله في مركز الشرطة، لأن الـ(دكتور) كان قد طردنا خارج المشفى. قررنا ألا نأكل من مطعم الثكنة، وقمنا عوضا عن ذلك بطهي البطاطا والذرة والصلصة. بعد الظهر نقعنا المتة واضطررنا أن نطلب من السجناء شيئا نسخن الماء فيه، وهكذا تسنى لنا التحدث معهم. معظمهم كان من الجنود الذين دفعهم الحنين إلى البلد للفرار من الجندية. وبمنطق لا عيب فيه يعتقدون أن من السخف قضاء ثلاثة أعوام في الجري لتأمين احتياجات الضباط وزوجاتهم أو عشيقاتهم، بينما يتركون أرضهم ليتناهشها العشب الضار.

بينما كنا نرتشف متتنا لاحظت أن القرعة قد أصابها شق. حاولت إصلاحها بلفها بشريط لاصق، ولكن عبثا. ذهبت لأحضر خرقة من حقيبتي كي لا أحرق أصابعي، وهناك عثرت على منديل طرزته أمي. أي ذكرى جميلة جاءني بها هذا المنديل. أخبرت بيلاو أنه عندما ننتهي من التجوال، ونكون في الوطن نشرب المتة، سنتذكر هذه المتة التي شاركنا فيها السجناء والفارون من الجندية ونحن نقاوم عث الفراش بضراوة.

كانت لحظة الهدوء قصيرة. السجن يقع داخل مقر الشرطة، وكان يوم الزيارة. طوابير طويلة من الهنود، معظمهم من زوجات السجناء، كانوا جميعا بانتظار السماح لهم بالدخول. كانوا يصطحبون معهم الأطفال والماعز، بل والحمير أيضا. كان على كل زائر الخضوع للتفتيش. أحد الحراس، وبسوء استخدام منفر لصلاحياته، كان يقوم بأكثر من مجرد التفتيش. كان يتحسس صدور النسوة و أفخاذهن، ويتباطأ عمدا حينما يلمس محاشمهن. لم تسلم من شهوته المثارة هندية واحدة، حتى لو كانت طفلة في العاشرة من العمر. كان ذلك بالنسبة لنا القشة التي قصمت ظهر البعير.

بخطا سريعة توجهنا إلى الحارس نطلب منه احترام النظم، لكن الرقيب الذي كان جالسا بجواره كان مستمتعا بالتهريج الذي كان يؤديه مرؤوسه. نظرت أنا وفيوزر إلى بعضنا، وقد أسقط في يدنا، ثم لملمنا أشياءنا وغادرنا المكان.

آياكوتشو 22 نيسان 1952:

مر بنا يوم التاسع عشر من هذا الشهر ليجدنا مغمومين نحتر عجزنا في وجه سوء استخدام السلطة ضد أولئك الفتيات الهنديات المسكينات. لكن عناية السماء أنقذتنا بظهور أحد العمال، إنه الممثل الحقيقي لقدرة الإنسان الكامنة، وصانع الثروة التي يتمتع بها الآخرون، وهو الذي يجب يوما ما أن يحكم هذا العالم الجميل الذي يخضع لأسوأ حكم حاليا.

كما كنت أقول؛ صادفنا عاملا مسكينا من مزرعة مجاورة قدم لنا العشاء وزاوية ننام فيها. وفي اليوم التالي رتب لنا أمر شاحنة نقلنا إلى (هوانكايو). ذهبنا إلى (هوانتا) أولا، مع حلول الليل، نحو الساعة الثامنة، تابعنا طريقنا نحو (هوانكايو) لم تكن الرحلة الليلية تختلف عن مثيلاتها. رتب الهنود أنفسهم بأفضل وضع ممكن، وانتهى بنا الأمر نائمين بينهم بطريقة تبادل الأرجل مع الرؤوس. وكان من حسن الحظ أن عصب حاسة الشم لدي سرعان ما استقر وغططت في النوم.

نحو منتصف الليل مررنا ب(آياكوشو)، وقد أبلغنا بأن انزلاقا في الصخور أدى إلى قطع الطريق، لذا كانت هذه المدينة، التي ختمت هزيمة الأسبان في الأمريكيتين، مستقرا لنا ليلة أمس واليوم.

طريق آياكوتشو لاميرسيد 23 نيسان 1952:

بحلول الساعة الثانية شاهدنا جرارا يزيح الحجارة من الطريق، وقد استخدمت ثلاث شحنات من الديناميت لإزاحة الجلمود الصخري الذي كان يقطع الطريق.

أثناء فترة الانتظار ذهبنا للسباحة في نهر (موتارو) القريب وفي الساعة السادسة تم فتح الطريق. فتابعنا سيرنا. لم نقطع مسافة ميل أو ميلين إلا وكنا في مواجهة انزلاق آخر، ولكنه كان من التربة هذه المرة. بدأ السائق ومعاونوه والركاب العمل بنشاط وسرعان ما تم فتح الطريق مرة أخرى. صحيح أن الوحدة قوة. علق بيلاو، لكن لابد أن تكون قوة العمال. لو أن أيا منهم قال إنه لن يستخدم معولا أو مجرفة، لانكسرت تلك الوحدة. مؤكد أن الحالة ستكون كذلك لو أن بعضا من المتخصصين الذين التقيناهم خلال الأيام القليلة الماضية كانوا هنا الآن، عوضا عن هذا الطابور من الفلاحين وسائقي الشاحنة وغريبين أمثالنا.

كوني أتفق معه فيما قال، فقد دونت هذه الكلمات.

تابعنا السفر بعد ذلك. أصبحت الطريق شديدة الانحدار. كانت درجة الحرارة تنخفض كلما ارتفعنا أكثر. في الثانية صباحا أصبح البرد لا يحتمل. كانت قدماي قد تجمدتا وأصابعما الخدر، لذا نزعت جزمتي ولم يكن هذا سهلا بين هذه الكومة من الأجساد ورحت أحك قدمي ببعضهما بقوة. هكذا كان حال وصولنا إلى (هوانكايو)؛ مكان استراحتنا الحالي.

لاميرسيد 25 نيسان 1952:

بعد ظهر أمس دخلنا ما يسميه الناس هنا الجبال. وهو في الحقيقة لا يتعدى كونه سهلا غابيا مرتفعا. طريق (هوانكايا) (بالكا) هي كباقي الطرق التي سرنا بها. لكن طريق بالكا- لاميرسيد أكثر خطورة بكثير.

قبيل مغادرتنا (بالكا) شاهدنا استعراضا كرنفالياً معظمه نساء يرتدين أقنعة ويرقصن على أنغام الكمانات والطبول والمصافير ويتدربن لأجل مهرجان أيار.

قبل رحيلنا تناولنا بضعة كؤوس من خمر الذرة مع السائق، الذي طيب لنا مزاجنا بيد أن هذا المزاج تبخر حينما وجدنا أنفسنا، وبعد بضعة أميال، ندخل في دوامة من المنعطفات بالغة الحدة، وفي طريق ضيقة لدرجة أن الآليات العابرة بها تكاد بالفعل أن تفترس الواجدة منها الأخرى. وفي أحد المنعطفات قام السائق بمناورة تجمد الأوصال فوق حافة جرف، وذلك ليتجاوز شاحنة أخرى. وفي وضع معين كانت إحدى عجلاتنا تتدلى خارج الحافة. وعلى مسافة خمسمائة قدم إلى الأسفل كان هناك نهر جار.

قبل دخولنا في لاميرسيد، استوت الطريق، ودخلت في غابة حقيقية. مئات الهكتارات فيها كانت مزروعة بالبرتقال والموز وبساتين من الأفوكادو. كان المناخ قد تغير من البارد الجاف قبل بضع ساعات، إلى الحار الرطب.

لم نتمكن من إيجاد مأوى، وأخيرا عرض علينا صاحب نزل سريرا مقابل سولين، متضمنا فنجانا من الشوكولاته الحارة والخبز. لم نتناول طعاما منذ يومين، ومعدتنا كانت قد بدأت الاحتجاج. لحسن الحظ أننا اكتشفنا، بطريق التجسس من النافذة، بضعة أشجار برتقال، لذا ملأنا هذه الفجوة الفارغة بداخلنا بالفاكهة.

بحقيبته وسترته الجلدية وساقيه الطويلتين، بدا لي فيوزر صورة مطابقة تماما لبطل رواية (بينيتو لينتش)[1]، (الإنجليزي والهيكل العظمي)، بينما كان وزني الزائد بفعل الحقيبة الظهرية والبطانيات يجعل حصاني المسكين يصهل بصعوبة.

كي تصل هوامبو ينبغي أن تلتف حول سلسلة من الهضاب المكسوة بالخضرة والمزينة بزهور الوزال الذهبية وأنواع أخرى لا أعرفها. كانت الطريق وعرة وأحيانا تحاذي جروفا شاهقة يتلوى فيها النهر نزولا إلى قعر الوادي، وأحيانا أخرى نصل مستوى الماء ونعبر منه. كنا نمر بمناطق مقفرة أحيانا،

---

(1) بينيتو لينتش (Benito Lnch) (1885-1957) كاتب أرجنتيني، روايته الشهيرة (الإنجليزي والهيكل العظمي) تصور المفارقة بين الروح الأوروبية وتلك التي للشخص ذي الدم الأسباني الصافي المولود في أمريكا الجنوبية.

وأحيانا أخرى نمر بهنود قد بدؤوا احتفالاتهم بعيد الفصح كالمعتاد. تلك الاحتفالات كانت تدوم أسبوعا بأكمله، يقوم الجميع، من رجال ونساء وأطفال، خلالها بتناول عصير الذرة والبراندي المحضر من قصب السكر، ويرقصون على إيقاعات طبولهم المتنوعة والمصافير والفلوت إلى أن يتغلب الشرب والتعب عليهم وينتهي بهم الحال وقد انبطحوا إما في إحدى أكواخهم، أو على قارعة الطريق إذا داهمهم النوم وهم في طريقهم لزيارة أحد الأصحاب.

لاميرسيد 26 نيسان 1952:

قمنا اليوم بزيارة إلى مشفى الملاريا. وقدمنا شرحا مختصرا عن الجذام، وعن حملة مكافحة الملاريا التي تنفذ في (توكومان) بالأرجنتين. بعد ذلك دعينا إلى وجبة و أكلنا بسخاء.

بعد ظهر ذلك اليوم انطلقنا إلى (أوكسابامبا). كانت الطريق، برياحها المعتادة، تمر بين هضاب صغيرة، لكن المنحدرات كانت الآن مغطاة بغابات من الأشجار القيمة، كالأرز والبلوط والماهوجاني وما شابه. كانت هنالك أيضا مزارع بن وموز ومجموعات من أشجار الأفوكادو، والبابايا الطويلة والمانجا المورقة.

تناولنا العشاء في سان لوي. كان على طاولتنا رجل بدا مزيجا متساويا من الأعراق، خمسون بالمائة من ملامحه أسبانية، وخمسون بالمائة أفريقية. كان مزارعا على نطاق ضيق من مدينة مجاورة. وبكلماته بالذات أوضح أنه كان فخورا بـ(حديثه المثقف اللطيف)، والذي كان في جوهره عبارة عن تكديس عشر صفات في الجملة الواحدة. بدأنا نقلده بسخرية، مستحضرين أغرب العبارات التي يمكن توقعها، ورحنا نسخر بهدوء من التأثيرات العامية في لغته. في المستهل اعتبر أننا زوجا من الكاذبين. إلا أنه، ومع مرور الوقت، وبينما رحنا نجيبه بأمانة، وبأفضل ما لدينا من إجابات

على أسئلته، بدأ يهدأ وفي آخر الحديث لم يعد يستخدم أي صفات في جملة على الإطلاق.

ما بين أوكسابامبا وسان رامون 27 نيسان 1952:

كانت البقية من رحلة الأمس عبر الغابة الاستوائية. جوانب الطريق كانت مكتظةً بالأشجار الطويلة التي تتعانق مع النباتات المتعرشة الجميلة التي ينبغي لها أن تعرض في معرض ما.

كانت آخر زخات المطر قد جعلت الطريق متعذرة العبور بالفعل. لقد استغرقت الأميال الخمسين، الفاصلة بين لاميرسيد وأوكسابامبا، منا اثنتي عشرة ساعة من السفر. ولكن بالنسبة لي فقد كانت رائعة. أشعر بالابتهاج هنا في الأقاليم المدارية لأنني طالما حلمت بذلك.

بعد غطة نوم قصيرة تحت الشاحنة وصلنا أوكسابامبا نحو الثانية بعد الظهر. في الثامنة ذهبنا لزيارة عائلة صديق بيروفي عزيز، هو دافالوس، ويدرس مع أخي في جامعة قرطبة.

كنت آمل أن أجد رسائل من الوطن بانتظاري، بما أن هذا أحد الأماكن المتفق على زيارتها مهما كلف الأمر. لكن لا شيء قد وصل. وعلى الرغم من حسن الضيافة الغامر لشقيقة دافالوس وزوجها، وتوسلاتهما لنا كي نبقى، كنت مصمما على متابعة الطريق إلى (ليما).

بالمصادفة، كان أحد جيرانهم مغادرا إلى تارما بعد ظهر ذلك اليوم، لذا اتفقنا معه. قبل مغادرتنا قمنا بزيارة للبلدة، التي تقبع في واد مليء بالغابات. الطقس هنا مقبول أكثر بكثير من طقس لاميرسيد فضلا عن عدم وجود الملاريا.

جميع البيوت مبنية إما من شجر البلوط أو الأرز، ومصممة بشكل جذاب، لكن مع غياب واضح للتنظيم المديني. وفي المنحدرات الدنيا

زرعت أشجار البن والبرتقال والموز. وإلى الأعلى كانت هناك الذرة والبطاطا الحلوة وبينهما الأرز. إنها منطقة شديدة الخصوبة، لكن الإنتاج فيها عشوائي ولا توجد طرق لنقل الإنتاج إلى خارجها. وجها العملة الحاضران دوما.

سان رامون 28 نيسان 1952:

لحظة وصولنا، أعلن سائقنا فجأة أنه لن يستطيع الاستمرار وتركنا واقفين وسط الساحة الرئيسية للبلدة وذلك في الساعة الثانية صباحا.

تصرفه الغريب جاءنا على حين غرة، لكننا توجهنا نحو ضوء في إحدى الزوايا قليلة الإضاءة في البلدة، وهناك وجدنا ثلاثة من السهارة الطافحين خمرا، وقد راعهم منظرنا حين بدونا لهم بستراتنا الجلدية وحقائبنا الظهرية وما نحمل من متاع. لابد أنهم ظنونا طليعة جيش من سكان المريخ.

بعد صحوتهم من الصدمة، وبعد أن أقنعناهم بأننا لسنا مظليين أو أي شيء من هذا القبيل، قدموا لنا شرابا. وسرعان ما صرنا نتحدث كأصدقاء حميمين. بعد ذلك جاء المزيد من السكارى، وهذه المرة كانا اثنين. بعد تبادل مختصر للتحية بدأنا جميعا نردد سلسلة من أغنيات الفالس والتانجو بأعلى ما امتلكنا من أصوات.

عندما أغلق المقهى أبوابه، أخذونا إلى مقهى آخر، واستمرينا في شرب البيرة و إطلاق الأصوات التي كانت تناهز صوت التانجو. استخدمت أنا وفيوزر كل ما لدينا من مهارة في التلميح لمضيفينا أننا كنا أكثر جوعا مما كنا عطشا. وبينما لم تجد إشاراتنا من يبالي بها، طلب فيوزر طبقا سخيا من الخبز والجبنة وقمنا بالتهامه على الفور. وكما يتوقع المرء، رغم أننا حاولنا دفع ثمنه، إلا أنهم لم يعيروا بالا أيضا، وجاء المبلغ ليزيد

ضخامة على فاتورة مضيفينا الضخمة أصلا. طلع الفجر علينا ونحن هناك بين البيرة وأغنيات التانجو.

ودعنا أصدقاء المصادفة الودودين وذهبنا للنوم في منزل مهجور، وحسب أهل البلدة مسكون، لكن ما من شبح واحد جاء ليقطع علينا نومنا. ما شعرنا به فعلا كان وخزات الجوع بما أن معدتنا لا يمكن التحايل عليها ببعض السوائل وقطع الجبن الصغيرة.

عبرنا النهر في بحثنا عن شيء جامد نأكله. وبينما كنا نمسح النوم عن أعيننا أدركنا أن سكان البلدة المحظوظين قد وردت لهم فكرة زرع البرتقال والكريب فروت على ضفاف النهر. وما هو أكثر من ذلك أنه لم يخطر ببالهم الحاجة إلى أسوار من الأسلاك، أو أي من المبتكرات الحديثة التي لا نفع منها سوى إفساد المنظر.

وهكذا بعد ساعتين، وبعد أن أكلنا أكثر من أربع دزينات من البرتقال ودزينة من الكريب فروت، رحلنا والفرح يتملكنا. لكن هذا لم يدم طويلا. فقد بدأت المعدة تفرز عصارتها، تبعتها الكليتان بعنف، وسرعان ما تحول عيدنا الرائع إلى قليل من الفيتامين (سي) والكثير من البول.

منتصف النهار تناولنا غداء لذيذا؛ المتة مع الخبز والخبز مع المتة.

تارما 30 نيسان 1952:

نحو الخامسة من بعد ظهر أمس تدبرنا توصيلة على ظهر شاحنة إلى تارما. ومرة أخرى على طرقات مرعبة في خطورتها. كانت الطريق حتى أكثر ضيقا من تلك التي تصل بين بالتا و سان رامون، الأمر الذي يفصح عن شيء بالفعل. مررنا على الأقل بثلاثين تقاطع تظهر أمكنة انزلقت فيها شاحنات بمنتهى السرعة إلى أسفل الجرف، آخذة معها أرواح من كانوا على ظهرها.

بينما أخذت الطريق بالصعود، بدأ المسيل يزداد عمقا. كانت الطريق في الواقع منحوتة في كتف الهضبة. وإذا ما انزاحت آلية عن الطريق، فلن تسقط على الطريق في الأسفل، إنما ستهوي متجهة، وبشكل عمودي، إلى النهر مباشرة.

فجأة ضرب السائق بحفرة وسط الطريق. عندما سألناه لماذا لم يتجنبها، اعترف بأنه لم يكن يبصر جيدا لبعض الوقت. لم يكن لهذا أن يهدئ مخاوفنا حيال مهارته في القيادة.

كان الوقت ليلا حينما وصلنا إلى (كويلابامبا)، حيث كان عشاؤنا على القهوة بالحليب، الطعام الوحيد الذي تمكنا من العثور عليه. ورغم الدمدمة المتذمرة داخل معدتنا، ألا أننا ذهبنا للنوم داخل مقصورة الشاحنة. كان الجو شديد البرودة.

آرنستو لا يستطيع أن يكذب

ليما 1 أيار 1952:

أخيرا نحن في عاصمة نواب الملوك. لقد منحتنا رحلة الأمس نظرة الطائر من الأعلى لمنطقة مناجم مهمة. حالما ينطلق المرء من تارما يفقد الريف حسه المداري، وعلى أعتاب (لاأورويا) أصبحنا في منطقة هضبية من جديد. مرة أخرى السهول المرتفعة، والأنجاد المغطاة بالشجر وقطعان الـ(لاما) المثيرة، والتي يستخدمونها كحيوانات للنقل، إذ تحمل اكثير من الأكياس المحتوية على البطاطا المختلفة الأنواع.

تابعنا إلى ارتفاع خمسة عشر ألف قدم في (تيكليو) حيث القمم تعتمر الثلوج.

عبرنا عدة مواقع للمناجم، لكننا لم نزرها. السائق الذي أقلنا توقف على مشارف العاصمة وبقينا هناك ونمنا في الشاحنة.

أيل رانتشو 19 أيار 1952:

غادرنا (ليما) اليوم، بعد بقائنا واحدا وعشرين يوما وبانطباع جيد عن الناس والأشياء التي واجهناها.

سوف لن أصف المدينة بذاتها، بل فقط الأشياء التي أثرت بنا. أحد تلك الأشياء كان متحف الآثار وعلم الأجناس البشرية، صنيع الدكتور (تيللو). كان جمال ما صنعه الإنسان من الحضارات المختلفة لمملكة الإنكا القديمة شيئا مذهلا بحق. فعلى سبيل المثال، مهارة شعب الـ(بارا كاس) في النسيج، وفن الرسم الزيتي عند أل (تشانكا)، الذي ينافس بسهولة حسن التعبير والألوان الجميلة لفن الخزف عند الـ(موتشيك) أو الـ(تشيمو).

كانت شعوب الـ(إنكا) متقدمة علميا أيضا. فقد رأينا دليلا على عمليات نشر الجمجمة التي كانت تجري بأسلوب ومهارة فائقين، ولعل النمو اللاحق للعظم أظهر أن الفرد كان يعيش لسنوات طويلة عقب الجراحة.

أثار إعجابنا أيضا الحجر عند الـ(تشيفان) ومجموعة من المسلات التي نقشت بشكل جميل. توصلنا لنتيجة مفادها أنه وعلى الرغم من أن الـ(إنكا) كانوا مهندسين ومعماريين أفذاذ، ألا أن سكان الساحل كانوا أكثر فنية، لقد ألفوا ما بين الشهوة الجنسية المنتقدة و جمال الشكل الطبيعي. فالعديد من الحيوانات التي نعرف من عالم (والت ديزني) قد تكون مستلهمة من البيرو ما قبل الأسبانية. وفي المكتبة الوطنية زرنا معرضا للفن الإيطالي وآخر ضم نسخا مطابقة لأعمال امتدت ما بين (مايكل آنجلو) و(بيكاسو).

أيضا، ومن جديد فاجأني آرنستو باتساع معرفته، والذي لا يظهره إلا في اللحظة الملائمة. بينما كنت أتأمل بعض أعمال الفن الحديث، قلت له: لا أستطيع أن أميز في هذه الأشكال المشوهة بين الواحدة والأخرى.

أجابني بتلك النبرة الملأى بالجدية المصطنعة، التي يوظفها حينما يكون على وشك إظهار معرفة لا أحد يعتقد بوجودها لديه، وقال: (لا أوافقك الرأي. أولا، لست بحاجة دوما لأن تفهم الشيء كي تحبه. ثانيا إذا نظرت بالفعل إلى ما تسميه أشكالا مشوهة، سترى بأنك معجب بالبعض

منها دون الآخر، وأكاد أجزم لك بأن تلك بالذات هي الأفضل). ثم تابع القول وهو يصطنع هيئة المتخصص، وصوت المحاضر: (إذا أيها الفتى، لاحظ بكل عناية، ثم اختر الشكل الذي أعجبك أكثر).

فعلت ما اقترحه علي، وشيئا فشيئا استطعت تمييز المفارقة في اللون والشكل والتأثير بالفعل. نظرت وقارنت وحللت وأخيرا حددت له أي شكل أعجبني أكثر.

بأسلوبه اللطيف المعتاد، وبعد تقليبه صفحات الدليل، قال: (حسنا يا صديقي، أنت لست بطيء الفهم كما يبدو عليك! من بين اللوحات الخمس، أربعة ل(بيكاسو) وواحدة ل(بيسارو)[1] الذي، كما تعلم، أحد أعظم أساتذة الانطباعية، والذي يكتب أسم عائلته بحرف الـ(أس) وليس الـ(زد) كذلك الرجل الذي استعمر هؤلاء الـ(إنكا) المساكين.

زيارة أخرى مثيرة قمنا بها إلى (سان ماركوس) عميدة جامعات أمريكا الجنوبية. وقد وجدنا فيها صخبا ثوريا شديدا، ولاسيما في كلية الحقوق، القسم الوحيد بهيئة طلابية منظمة. بقية الطلاب تركوا الحكومة تزرع في صفوفهم الفوضى وبذلك منعتهم من أن يصبحوا قوة سياسية قادرة على توجيه الرأي العام، المعارض لنظام الحكم الحالي بشكل عام.

زرنا عدة مشافي، بما فيها (جويا) والتي هي أيضا مصحة للمجذام، وأخيرا زرنا الدكتور (هوجو بيسيه) الذي تركته للآخر عن قصد، لأنني أريد الإسهاب قليلا في التحدث عنه. إنه الشخص الأكثر أهمية ممن التقينا بهم على مدى رحلتنا حتى الآن.

لقد أتى الناس على ذكره في (هوامبو) وفي (كوزكو)، وقد حملت رسالة تعريف إليه من الدكتور (أرجويللو بت)، لذا مضينا للقائه حالما وصلنا (ليما). لم تكن هيئة العالمين تبدو علينا. كان فيوزر يرتدي رداء

---

(1) كاميل بيسارو Pissarro Chaielle (1830-1903) رسام فرنسي من زعماء المدرسة الانطباعية.

ميكانيكي سروالي، وسترة جلدية مرقعة ومهترئة، وأنا بنطالي الذي كان ذات مرة أبيض اللون وسترتي الجلدية، وعلي لطخ من الشحم والغبار كندوب بطولية أصابتني إثر عراكي مع الطريق.

لم نستطع أيضا أن نعوض عن مظهرنا البائس بما لدينا من ثروة في المعرفة العلمية، إذ اتضح أنه يمتلك من المعرفة ما يفوقنا بكثير. وعلى الرغم من ذلك فقد تعامل معنا بكياسة فائقة، وقدم لنا العون، مستخدما نفوذه في الحصول لنا على سكن في مشفى (جويا) رغم المعارضة الشديدة للراهبات المسؤولات هناك. كما أن معاونه (زور أيدا بولوارته) حرص على أن نستقر بشكل مريح. وفوق كل ذلك، كان يدعونا للعشاء معه كل ليلة تقريبا.

لقد لقبه (فيوزر) بالمعلم، وهو كذلك بحق. ففي كل حديث كنا نجريه معه كنا نتعلم شيئا، سواء كان هذا الشيء متعلقا بالجذام، أو الطب أو السياسة أو الفلسفة. ومن خلاله لم نكتشف فقط (سيزار فاليجو) الشاعر العظيم الذي كان يتكلم بالصوت الحقيقي للإنكا)، وإنما أصبحنا على معرفة أيضا بفيزيولوجية هنود المرتفعات.

لديه الكثير من الأتباع، وأعتقد أنه يدللهم بعض الشيء. ولكن في عملهم يمكن للمرء أن يلحظ اليد الصارمة للأستاذ الذي يأخذ بيد تلاميذه المتدربين بحنان إلى أن يكتسبوا الثقة بالنفس. من الناحية السياسية كان ماركسيا وذا حساسية مفرطة، إضافة إلى مقدرة في اللهجات حين المناقشة أو التعامل مع المشكلات. وقد أظهر لنا بأن على الرغم من أن الإنسان هو ابن البيئة، إلا أن بمقدوره تغييرها.

لقد أجبر على ترك (ليما)، ورئاسته لمركز الطب الاستوائي بسبب كونه عضوا في الحزب الشيوعي. فاستقر في (آنداهوايلاس). ولكنه وعوضا عن أن يصبح زبونا مترددا على المقاهي المتعددة التي تملأ المكان، فقد كرس نفسه للعلم. وقد اكتشف المناطق التي يستوطن فيها مرض التيفوس حيث لم يكن يعرف عنه سوى الأعراض. كما اكتشف نوعين من البعوض

الناقل للملاريا. واكتشف أحد مصادر عدوى الجذام، وأنشأ مركزا للعلاج من ذلك البلاء. وكما قام أيضا بدراسة فيزيولوجية (البنية الجسدية) للهنود. وبالفعل، تلقى وأرسل الكثير من التقارير العلمية وأوراق البحث لدرجة أن (آنداهوايلاس)، وحسب تلاميذه، تلقت من المراسلات أكثر من كلية الطب في (ليما).

أصبح الوضع صعب الاحتمال ما حدا بالحكومة أن تدعوه للعودة إلى منصبه بالفعل.

ألف كتابا عن تجربته في منطقة السهول المرتفعة أسماه (مناطق الصمت). وفي أول أيامنا هناك أهدى نسخة لكل واحد منا. وهذا أدى إلى مشهد مأساوي ومضحك معا، أثبت مدى الصدق الذي لا يقبل المساومة لدى آرنستو.

في يومنا الأخير دعانا (المعلم) إلى عشاء وداعي. لاحظت أن الدكتور (بيسيه) كان يقدر عمق معرفة بيلاو في المواضيع الكثيرة والمتنوعة التي نوقشت. وبنفس الوقت، يكن فيوزر للدكتور (بيسيه) احتراما كبيرا بالفعل، لا بل كانت فكرته بأن ناديه بالـ(المعلم)، وهو ما جعلني أقدر موقف آرنستو أكثر.

وصلنا منزل الدكتور. وكانت زوجته قد بلغت في اجتهادها بتحضير عشاء رائع. الطبق الأول كان الحساء الآنديزي، والذي همنا بتناوله باستمتاع شديد. وبعد بضع لقمات سألنا الدكتور: ما رأيكم بكتابي؟ هل أعجبكم؟.

تبادلت وفيوزر النظرات. كنا قد عقبنا على الأوجه السلبية والإيجابية للكتاب فيما بيننا. وجاء نقدنا العام، ولا سيما نقد فيوزر، في غير صالحه. أجبت على الفور: إنه دراسة واضحة للجبال البيروفية، وهو يصور أيضا نفسية الهندي بشكل جيد.

آرنستو لم يقل شيئا. تابعنا الأكل. خلال تناول المحليات، قال المعلم ل(بيلاو): أخبرني يا آرنستو، ما هو رأيك في كتابي؟ رفع آرنستو عينيه من الطبق ونظر إلى الدكتور لبرهة، ثم تابع أكله.

خلال ذلك الصمت الذي طال قفزت إلى الحديث قائلا: (بالمناسبة، أعتقد أن وصف فيضان (يوروبامبا كان رائعا).

شاطرتني زوجته الرأي وتركنا الحديث عند تلك النقطة. ولكن بينما كنا نغادر المنزل، وأثناء الوداعات التقليدية على عتبة الباب، أخذ (بيسيه) بيد آرنستو وعاد إلى الهجوم من جديد. (لا يمكنك أن تتركني دون أن تدلي برأيك في كتابي).

شعرت قشعريرة تدب في أوصالي. هز فيوزر إصبعه قائلا: (إسمع يا دكتور! إنه ليس كتابا جيدا. وصفك للمشهد لم يأت بجديد، وبالنسبة لي، من غير المعقول لمثقف ماركسي مثلك أن يأتي على وصف الجانب السلبي فقط من النفسية الهندية. إنه كتاب متشائم لا يدل على أن من يكتبه عالم أو شيوعي).

بينما راح يتحدث، بدا لي أن فيوزر صار يرتقي إلى منزلة أرفع والطبيب يتقلص تحت تأثير جدليات آرنستو. وفيما بدا مدة زمنية لا تحتمل، استمر في نقده الحاد بينما راح الطبيب يومئ مرة، ويتمتم أخرى قائلا: هذا صحيح، هذا صحيح!.

هكذا انتهى وداعنا، وانطلقنا لنقطع أربعين عمارة حتى نصل إلى حيث نقيم. بالكاد كنا نتحدث حتى وصلنا فوق نهر (ريماك). ونحن متكئان على سور الحاجز، رأينا تدفق الماء الأسود الذي يعكس ضوءا خافتا من شعاع ضوء القمر.

(أنت قليل أدب فيوزر). قلتها إذ لم أعد أطيق كبتها في داخلي. (المعلم المسكين أشبع لنا جوعنا، ودفع لنا ثمن الانتقال إلى (سان بابلو)

وأعطانا المال والحنان، فتهاجمه في نقطة الضعف الوحيدة لديه وهي طموحاته الأدبية.

(ولكن ألم تلاحظ يا (ميال) بأني لم أكن أريد قول شيء؟) قال آرنستو وهو يبدو متألما.

إثر ذلك زال غضبي.

في اليوم التالي ودعنا المرضى في مشفى الجذام، كنا قد أصبحنا قريبين جدا منهم، بل حتى كنا نلعب معهم كرة القدم. أعطونا ظرفا جمعوا بداخله مائة سول. تأثرنا كثيرا بتلك الحركة منهم. إضافة لذلك، اتصل لنا أحدهم بنقيب في الجيش يمتلك أسطولا من الشاحنات التي تنقل البضائع من (ليما) إلى (بوكالبا).

اضطررنا للوصول إلى ذلك النقيب كي نعرف أين ومتى سنغادر. وجدناه في اجتماع ماسوني بأحد المطاعم الصينية في الحي الصيني بـ(ليما). كانت تجربة غريبة. فقد تعين علينا المرور بسلسلة إجراءات معقدة، نسأل عن الأخ (دي) أو الأخ (إكس) أو (زد)، ونجتاز أشكالا متعددة من الموانع والأبواب الموصدة، إلى أن وصلنا في نهاية المطاف إلى الرئيس الأكبر. كان مذهولا أن استطعنا اجتياز كل تلك المسافة دون أن نكون أعضاء. واخبرنا أن إحدى شاحناته ستغادر يوم السابع عشر من أيار وستأخذنا معها.

الأمازون و أهله
على متن (لاسينيبا) في نهر (أوكايالي)

عن طريق (إيكويتوس) 25 أيار 1952:

اليوم حالتي النفسية متدنية نوعا ما. ليس فقط لأن اليوم هو عطلتنا الوطنية في الأرجنتين، ولكن أيضا لأنه عيد ميلاد (جريجو). ما يزعجني ليس كوني بعيدا عن أهلي، وإنما الاعتقاد بأن غيابي سيرخي بظلاله على الحفلة. آمل أن أكون قادرا على تعويضهم عن هذا بجعلهم يقومون بهذه الرحلة أيضا، وهو ما يتعدى بروعته حدود أحلام أي منهم.

ولكن يجب أن أعود إلى اليوم الذي تركت فيه (ليما).

غادرنا نحو الساعة الثانية من يوم السابع عشر من الشهر. كانت الطريق التي امتدت موازية لنهر (ريماك) كتلك التي تتلوى أعلى الساحل التشيلي الشمالي. أي، بمعنى آخر، كانت تحف بها التلال المسطحة الجرداء، ولكن كلما صعدت إلى الأعلى، ظهرت الهضبة البيروفية القارصة الكئيبة، محاطة بمدرجات من القمم التي تكسوها الثلوج.

تتبعنا جزءا من طريق (ليما- تارما)، ومن جديد تقدمنا عبر ممر (تيكليو) حيث ترتفع الطريق إلى قمة تبلغ نحو أربعة عشر ألف قدم في ارتفاعها، وفيما بعد عبر منطقة مناجم (أورويا).

ومن هناك تابعنا رحلتنا نحو قمة (باسكو)، عابرين سهول (جونين)، وهي موقع المعركة التي أخذت الاسم نفسه وفيها أظهر (سوكر)[1] عبقريته العسكرية عندما قام بسابقة قاتل فيها الجنود الفنزويليون والأرجنتينيون والتشيليون والبيوفيون جنبا إلى جنب.

عبرنا ثانية المزارع الهندية الصغيرة المبعثرة عبر التلال. لم تتوقف بنا الشاحنة تلك الليلة لأن السائقين الشابين، وهما فتيان مسليان يكنيان بالـ(كامبالاتشيه)، كانا يتبادلان النوم والسياقة.

صباح يوم الاثنين في التاسع عشر من الشهر وصلنا (سيرو دي باسكو)، أهم مركز للمناجم في البيرو- وبأيدي اليانكي طبعا. ويستخرج منه القصدير والحديد والذهب و النحاس.

على مسافة ميل أو ميلين من (سيرو دي باسكو) دخلنا واديا ضيقا كان ينحدر تدريجيا إلى أن انتهى بنا إلى ما يعرف هنا بحافة الجبل، حيث تبدا الخضرة الاستوائية.

منتصف النهار وصلنا إلى (هوانوكو). وبعد الغداء تابعنا الرحلة. بعد أن قطعنا خمسة عشر ميلا من الطريق، وفي مكان يدعى (إيل رانكو)، وكنا نمضي بأقصى سرعة لنا على حافة المنحدر، لاحظنا أن شاحنتنا كانت تميل بشكل خطير، وراحت تتسارع رغم كل جهود السائق لكبح جماحها وإبقائها في خط مستقيم. وبعد عدة ياردات من الخوف الذي تقشعر له الأبدان، وفقط بسبب احتكاك الشاحنة بالطريق استطعنا أن نتوقف في نهاية الأمر.

قفزنا خارج الشاحنة وفي الحال استطعنا تحديد سبب تصرف الشاحنة الغريب وملامستنا للخطر. كان محور ارتكاز العجلة اليسرى قد

---

(1) الجنرال انتونيو خوسيه سوكر (General Antonio Jose De Soucre) (1793-1830) عسكري فنزويلي محب لوطنه. كان معاونا ل(بوليفار) في عدة حملات. أصبح رئيس لبوليفيا بين عامي 1826 و1828.

انكسر وأفلت، ما جعل الشاحنة تنحرف وكنا على وشك أن يقذف بنا إلى الهاوية السحيقة في الأسفل.

كانت الشاحنة بهذا الوضع تقطع الطريق، ولهذا، وكوننا مازلنا تحت تأثير الصدمة، رحنا نشغل أنفسنا بإزاحتها. دفعنا الشاحنة إلى الحافة مستخدمين جذع شجرة. أمضينا فترة ما بعد الظهر محاولين سحب ما بقي من محور العجلة. قمت أنا وفيوزر بغارات متفرقة إلى داخل أدغال أشجار الفاكهة المحاذية للطريق كي نقطف السفرجل والموز.

تلك الليلة احتفلنا بنجاتنا الموفقة بشرب ثلاث زجاجات من البيسكو. تبين فيما بعد أن الكامبلاتشه -وهو لقب السائقين الشابين- قد جاء لكثرة ما كانوا يغنون التانجو، فغناؤهما كان جميلا جدا. أنا وفيوزر، نحن من كنا نعتقد دائما أننا نعرف الكثير من أغنيات التانجو، أخذنا شعور من الخزي أمام مجموعتهم الواسعة من هذا الضرب من الموسيقى.

ذهبنا إلى النوم ونحن بحالة من الفرح التام، وفي اليوم التالي تابعنا رحلتنا.

كنا الآن في منطقة جبلية، أي داخل الغابة التي كانت تغطي هذه التلال. الطريق تتلوى صعودا ونزولا، وتجعلك تتساءل كيف تصف الخضرة المحيطة؟ مهما يرغب المرء في تجنب العبارات التقليدية، فإن عبارة (الخضرة الثراء) المبتذلة يقفز إلى الذهن، وهي في حقيقة الأمر الوصف الأكثر ملائمة لهذه الوفرة من الأشجار المتشابكة والمتسلقات البرية والسرخس.

كانت الرحلة مبهجة للغاية، وكان السائق الأكبر سنا قد ذهب لينام فوق الحمولة التي كانت مؤلفة من المئات من جلود الماعز المجففة تحت الشمس. جلست وفيوزر في قمرة القيادة بجانب السائق لنشكل ثلاثيا غنائيا، أو بالأحرى مذبحة اختلطت فيها أنغام التانجو الأرجنتينية والفالس البيروفية.

طالما كانت الشمس والغابة الاستوائية مصدر رفع لمعنوياتي. هذه الأماكن تملؤني نشاطا وحيوية.

تلك كانت حالنا عندما وصلنا إلى (تينجو ماريا). كان أمامنا بضعة أميال حتى نصل إلى الحسناء النائمة؛ سلسلة الجبال التي تتمدد كامرأة عارية على الأرض.

ببيوتها الخشبية الصغيرة المرفوعة على أعمدة، والمحاطة بأشجار ذات أوراق كبيرة، وبمروج خضراء، كانت المدينة أنموذجا للمدن الاستوائية. كان الوقت موسم حصاد الشاي، وكما الحال في أماكن أخرى في الأمريكيتين، كان مئات العاطلين عن العمل، ومنهم من يجر عائلته خلفه، يأتون بحثا عن عمل هو بمثابة فرج مؤقت لفقرهم، وهكذا يكون لدى شركة الشاي مخزون كبير من اليد العاملة في هذا الوقت.

تابعنا رحلتنا، خلال الليل عبرنا جسر (آجويتيا)، والذي حتى ذلك التاريخ كان الأطول في أمريكا الجنوبية. لم نقطع سوى بضعة أميال على هذا الطريق حتى اضطررنا للتوقف بسبب المطر المستمر الذي جعل الطريق متعذرة العبور.

تابعنا مسيرنا يوم الخميس، ولكن ببطء. اضطررنا لوضع السلاسل حول العجلات خشية الانزلاق.

كنا في غابة مطرية منخفضة، وكانت الخضرة تزداد كثافة بكل ما فيها من نباتات وشجيرات من أنواع السوكوس، والكابيرونا والباليسانجريه، جميعها كانت متعانقة مع أذرع النباتات المتعرشة في حالة حب أزلي.

يمكن للمرء فقط أن يرى بقعا من التربة الحمراء اللامعة، أما ما تبقى فقد اتخذ له لحافا مطرزا بأنواع لا حصر لها من الأعشاب ونبات الزينة والسرخس. على الطريق مررنا بمزارع صغيرة للقهوة والشاي والمنيهوت. وفي كل مكان كانت هناك مناصب الموز والبابايا.

على بعد أربعين ميلا من (بوكالبا) قابلنا قافلة ضخمة من الشاحنات يفوق عددها عن الستين، جميعها كانت موقوفة بأمر عسكري. كانت قد أمطرت في الشرق، وفي مثل هذه الظروف فإن المرور مدمر للطرقات، ويعرض حياة السائقين والركاب للخطر.

سرعان ما أحاط بنا أصدقاء سائقينا. قررنا أن نطهو وجبة رغم أن كل ما لدينا، لسوء الحظ كان اللحم المجفف. ليس من عادة بيلاو أن يتحدث، وكان حينما يفعل فإنه يستحق الإصغاء. (دعونا نوقد نارا أو نشوي قطعة من اللحم) قال، (ستجذب الرائحة الآخرين وتتم عملية تبادل). لحم الماعز سيؤمن لنا مقلاة وبطاطا وسباجتي، بل وحتى طباخا. وفي غضون وقت قصير تحلق عدد كبير من سائقي الشاحنات حول النار. كنا نقطة جذب رئيسة، ناهيك عن الرائحة المرق الشهية.

طال الحديث والغداء حتى وقت متأخر بعد الظهر. كانت الأجواء مفرحة، على الرغم من الإيسانجو المزعجة، وهي حشرات تحفر تحت الجلد مسببة حكة لا تطاق. فتحت الطريق في السادسة، وتابعنا طريقنا شطر (نيسكويلا) حيث نمنا.

يوم الجمعة، الثالث والعشرون من الشهر، جلب معه فجرا ماطرا، ولذلك لم نستطع التحرك طوال الصباح. عرفنا السائقان، اللذان كانا فخورين بتلاميذهم، على قائد الحامية المحلية، الذي دعانا عندئذ للغداء.

بينما كنا نتحدث على مائدة الغداء، جاء بعض الناس بحثا عن (الطبيبين الأرجنتينيين)، لأن فتى في السادسة عشر من العمر كان قد سقط من شاحنة وآذى وجهه. كان ينزف من فمه. ورغم أن الجرح في البداية بدا سيئا، إلا أنه أتضح فيما بعد بأنه ليس خطيرا. بعد أن تبادلت النظرات مع فيوزر، ألححنا عليهم بضرورة نقل الفتى إلى المشفى في (بوكالبا) من أجل التصوير الشعاعي، والتأكد من عدم وجود نزيف داخلي. حصلنا على ورقة السلوك الآمن للمرور من كل نقاط التفتيش، بغض النظر عن حالة الطرقات. غادرنا في الحال، وما هي إلا خمسة أميال

حتى واجهنا رتلا طويلا من الشاحنات أوقفتها السلطات بسبب وضع الطرق المخيف. لوحنا بورقة إذن العبور -السلوك الآمن- ولكن بينما كانت شاحنتنا تناور في خضم الرتل، طلب منا أحد السائقين الذين نعرفهم أن نفحص أحد مساعديه، الذي كان مريضا. عرفنا أنه في بداية الإصابة بذات الرئة. بعد تدبر أمر الحصول على بعض أمبولات البنسلين من النقطة الصحية المحلية، حقناه بجرعة أولية وتابعنا رحلتنا، وأي رحلة كانت!.

كانت الطريق المشبعة بالمطر زلقة كالصابون. انحرفت شاحنتنا عن الطريق مهددة بقذفنا إلى قعر الوادي، أو أن تصطدم متحطمة في الغابة الكثيفة من شجر الصنوبر و الكابيرونا أو في شجيرات الياجروما والسيبونا. رياح مفاجئة هبت فدفعتنا. عشرات المرات أو أكثر غرقنا في الطين وكان علينا في كل مرة أن نترجل لنقوم بدفع الشاحنة في النهاية بلغنا من التسلية قدرا يساوي آكلة لحوم البشر وهم يلتهمون أحد المبشرين.

وصلنا (بوكالبا) مع حلول الظلام. أخذنا الفتى إلى المشفى، وحيث أن الطين كان يغطينا من رأسنا إلى أخمص قدمينا، أخذنا سائقا الشاحنة إلى البيت كي نستحم ونبدل ملابسنا. بقينا من أجل العشاء. وبعد ذلك شربنا نخب الوداع. ومع مضي المساء، واستمرار الشراب، بدأت الكآبة تجد لها منفذا إلينا. ومعها بدأ الحنين إلى الماضي، ورحنا نقسم على الصداقة الأبدية، ونفرط في تقديم الشكر. كل ما نحتاج إليه كان الجيتار، ومعه سنجهش بالبكاء على أنغام التانجو.

في ليلة الرابع والعشرين، وبعد عشاء لذيذ في منزل السائقين، وأخذ بعض الصور التذكارية، انطلقنا كي نرى البلدة. كانت أنموذجا من بلدات المنطقة؛ ففيها البيوت المنتشرة والشوارع الطينية والأرصفة التي تكثر فيها العوائق.

كل خشب إقليم (لوريتو) كان يتجمع في ميناء (بوكالبا). في هذه المدينة يتبادل الغنى الفاحش المصالح مع الفقر المتجذر فيها؛ فبيوت الدعارة

والمواخير تقيم تجارة رابحة مع المئات من العمال الذين يشتغلون في صناعة قطع الأشجار من الغابات، والذين يسحبون شجر الأرز، والماهوجاني والكوبال، وكذلك يسحبون سائل المطاط الثمين من أعماق الغابة. ثم هناك رجال النهر، الذين يقطعون نهر (أوكايالي)، وبعد شهور في غابات الـ(بيرتشا)، لا رفيق معهم سوى الناموس وسكاكينهم الحادة، يأتون إلى هنا كي يرتاحوا من المال الذي جنوه بعرقهم وكدهم، ويلقوا به على غانيات بيوت الدعارة وأصحاب المواخير.

بعد ظهر هذا اليوم تكلمنا مع قائد الزورق (لاسينيبا)، ورتبنا أمر السفر معه. أثناء انتظار موعد المغادرة ذهبنا للسباحة في نهر (أوكايالي). إلى جانبنا كان هنالك دلفين يقفز. يعتقد هنود الـ(تشونكو) أن هذا المخلوق هو شيطان يخطف النساء اللائي يستحممن في النهر ويعاشرهن. ويقولون أيضا إن أنثى الدلفين لها أثداء وأعضاء تناسلية شبيهة بتلك التي للمرأة العادية، وأن الصيادين يقومون بمعاشرتها، وعند بلوغ لحظة القذف، على الرجل إما أن يقتلها، أو يبقى أسيرا لها إلى الأبد.

قمنا بزيارة للمشفى المحلي. رأينا بعض الأمراض المريعة، على الرغم من أننا دهشنا أيضا بعالم الأدوية الاستوائية، ووجود الكثير من الأشياء التي تستأهل الدراسة والاكتشاف.

اليوم هو الخامس والعشرون، وقد مضى على إبحارنا بعض الوقت، زورق (لاسينيبا) يتألف من طابقين، ويجر قاربا آخر أصغر منه، يسحب حمولة من الخشب والخنازير والمسافرين من الدرجة الثالثة.

في الطابق السفلي هناك غرفة المحركات، ومستودع الخشب والمطبخ. في الطابق الأعلى توجد حجرة القيادة والقمرات وسطح مفروش يستفاد منه كغرفة طعام وغرفة استجمام وناد وغرفة تمريض.

المسافرون هم تجّار أخشاب، وزارعو مطّاط وحفنة من المغامرين، واثنان أو ثلاثة سياح. من الجنس الناعم كانت هناك فتاة تربعت على

العرش. كانت جميلة وكانت تعلم ذلك. كان (دون جوانات) الزورق يحومون حولها، ما أثار حفيظة راهبتين، وثلاث أو أربع سيدات سيئات السمعة كن، فيما أظن، جريحات في كرامتهن بعض الشيء.

من بين المسافرين كان هناك موظف شاب من (ليما) تميز بصراحته. كان في إجازة، ومثله مثل مئات الأرجنتينيين الذين عرفناهم، لم تكن قدمه قد وطئت خارج الغابة المحسوسة بعد. كانت الرحلة من (ليما) بالنسبة له مصدرا دائما للمعاناة وسوء الطالع لا يمكن مقارنته سوى بملحمة الأوديسة لـ(يوليسيس). خوفه الظاهر جعل منه هدفا لسخرية عددٍ من المسافرين الآخرين، ولم يكن له من محام سوى فيوزر. ومثلما هو الحال دائما، فالأجوبة الجارحة لـ(فيوزر)، والتي تصدر في وقتها المناسب عميقة ولاذعة، ردعت المسافرين الآخرين، فتركوا صاحبنا الشاب وشأنه.

نهر الأمازون 26 أيار 1952:

بينما كنا ننحدر إلى أسفل النهر، بدا شيئا فشيئا بأنه يشبه نهر الـ(بارانا). هذا التشابه أثار ذكريات من طفولتي في (فيلا كونستيتيوسيون)، والعطلات في مدينة (بارانا)، عاصمة إقليم (إنتر ريو)، مسرح رقصاتي الأولى وقصص الحب التي عشتها صبيا في المدرسة.

مع التقدم شمالا، بدأ النهر يصبح أعرض وأعرض. على طول الطريق كانت هناك سلسلة من الموانئ المتناثرة التي لا رابط لها بالعالم الخارجي سوى العمر المائي. أبحرنا مارين بجزر لا يمكن اختراقها، كان المطاط والخشب يستخرج منها وينقل إلى (بوكالبا) فوق أطواف خشبية.

أمضينا النهار نقرأ ونلعب الورق. كان الموظف الشاب قد أحضر معه مجموعة من ورق اللعب وأحجار النرد. كانت وقفاته المسرحية تذكرني بشخصية (لويس ساندريني)[1] الكاريكاتيرية للاعب الورق المحتال المتمرس.

بناء على رغبة بعض المسافرين، لعبنا لعبة ألـ (21) ربح فيوزر ستين سولا، وأنا عشرين. لعبنا مرة أخرى فخسرت ثلاثين سولا، ولأن بيلاو خرج متعادلا فقد كنا رابحين بالمحصلة.

نهر الأمازون 27 أيار 1952:

مع انقضاء كل يوم يصبح تقدمنا أكثر بطئاً. فالنهر ضحل وتجنب الارتطام بالقاع كان يتطلب مهارة كبيرة. كان لا بد في بعض الأحيان من إرسال قارب تجديف صغير لتحري عمق القناة. وعندما يتم تحديد الطريق، كنا نتقدم بحذر وبطء إلى الأمام بين الجزر الملأى بالمناظر والمكتظة بالخضرة.

شريحة واسعة من نباتات وزهور المنطقة كانت تعبر أمامنا وكأنها كانت في استعراض، فتلك شجرة الرودا المستخدمة في صنع العطر، وتلك هي الـ(هوكابي)، العصية على الحشرات، ولهذا فهي مثالية لبناء المنازل، وهناك ترى الـ(ريمو كاسبي) ذات الخشب الصلب، إلى جانب الـ(لاجارتو كاسبي) المستخدمة في بناء القوارب والأعمدة، وأخيرا هناك الـ(بونا بالمرز) التي يستخدمها هنود الـ(تشاما) لصنع أقواسهم النشابة.

هذه المعلومة أتت من صاحب دكان متقدم في السن من (إيكويتو) لديه من المعرفة في نباتات المنطقة ما لدى أستاذ متخصص في علم النبات. ردا على أسئلتنا تابع مشيرا إلى تشكيلة النباتات الطبية الواسعة، والتي، كما قال، لها مواصفات علاجية هائلة؛ فالخبيز والـ(لانسيتيللا)، على

(1) لويس ساندريني (Luis Sandrini) (1905-1974) ممثل مسرح وأفلام كوميدية أرجنتيني شهير.

سبيل المثال، تستخدمان كنقوع لمعالجة القلق، والـ(فيربانا) للحمى، والـ(نونيو بيكانيللا) هي مسهل قوي، ووردة الـ(سيسا) تستخدم من اجل التهاب القصبات والـ(تشوتشواسا) لعلاج نوبات الربو (لا بد من أخذ بعض منها من أجل فيوزر)، أما عصارة الـ(كوتاهو) في الغابة فتستخدم لوقف نزيف الدم، والـ(تشيريسانجو) لرأب الفتوق وما شابه. وقد أرانا أيضا نباتا متسلقا وهو الـ(كابر وفيلا)، والذي يستخدم لمعالجة لسع الحشرات.

أدركنا الليل ونحن نستمع وندون الملاحظات. لقد سرق مشهد غياب الشمس اهتمامي بالكامل. كانت كالطير الجريح الذي يسقط في النهر فيضرب في مياهه لونا قرمزيا. لم يقطع علي تأملي هذا سوى سرب وقح من الناموس مصاص الدماء جعل نومنا بأسوأ حال.

نهر الأمازون 29-30 أيار 1952:

لم تكن الحياة على متن الزورق عرضة للتغيير. فالفتاة السمراء الجميلة لا تزال تثير الفوضى لدى الجنس الخشن بتغييرها المستمر والجريء لثوبها وخدودها ورموشها المرفوفة. بالطبع لم نكن أنا وفيوزر استثناء، فأنا بالذات شديد التأثر بالجمال الاستوائي، وهي بدورها كانت شغوفة، ومندهشة بما كانت تسمعه من قصص عما شاهدنا، وما كان بانتظارنا من عجائب. كانت عازمة على أن تجرب الطريق بنفسها. نتيجة لهذا أنا وفيوزر، ودون أن يضايق أحد منا الآخر، قمنا بإرشادها. أما الرسوم فيجب دفعها سلفا، بضاعة مقابل بضاعة.

النهر بضفتيه يصبح أكثر جمالا كل يوم، الآن، وفي السابعة مساء، وبعد غياب شديد الحمرة للشمس، اتخذ المنظر صبغة رمادية اللون تزداد عتمة كلما نحت صوب الأشجار. وبالتدريج بدأت أولى النجوم بالظهور. وتحت تأثير سحر هذا الجمال كله، حملتني أفكاري إلى الوطن من جديد. آمل ومن كل قلبي أن يكون أهلي سعداء قانعين كما أنا الآن.

نهر الأمازون 30-31 أيار 1952:

إيقاع حياتنا لم يتبدل. الآنسة الشابة تغازل كلا من المتحدثين الجيدين مثلنا، والدافعين بسخاء مثل ذلك الرجل الجالس إلى رأس طاولة اللعب. موظف المكتب الشاب مروع على الدوام من العناكب السامة المزعومة، والمليونير الريفي المتخلف يحطم بثروته جمهور المستمعين إليه.

قارب التجديف يستخدم كمرشد لزورقنا، وأيضا لصيد السمك من أجل دعم وجباتنا. أخرج أنا و فيزور دوما لنرمي شبكتنا، بعد ظهر اليوم، وإضافة إلى سمكتنا المعتادة، اصطدنا تمساحا صغيرا.

أقضي الأمسيات والأحلام تجاذبني تحت تأثير سحر المشهد، ومع قدوم الليل تبدأ المعركة اللامتكافئة مع أسراب الناموس.

إيكويتوس 1 حزيران 1952:

أرسى زورقنا في هذا الميناء الأمازوني بعد ليلة مضنية حاصرتنا فيها ملايين النواميس. مدينة الخمسين ألف نسمة هذه عرفت أوقات الازدهار عندما كانت هناك حاجة للمطاط من أجل الحرب. الآن وقد تضاءلت تلك الصناعة المزدهرة ترى السكان والمدينة في صراع مستمر وهم في حالة أشبه بالفقر، وهو وضع لا يستحقونه لأن مناخ المنطقة، وأرضها الغنية، وكل شيء آخر يشير إلى العدد الهائل من الفرص المتوفرة، والتي يمكن لها أن تحول المكان إلى أحد أغنى البقاع في البلاد. وكي يصبح ذلك حقيقة واقعة، على الحكومة أن تقدم الدعم المالي والإرشاد.

منذ لحظة نزولنا من الزورق -وكان فيوزر تحت وطأة نوبة حادة من الربو- بدأنا نبحث عن مكان للإقامة. لحسن الحظ أننا كنا مسلحين برسالة من (المعلم بيسيه) في غضون ساعة استطعنا الاستقرار في غرفة بمركز

الوقاية من الحمى الصفراء، كما أثبتنا حضورا في المشفى العام حيث تمكنا من الحصول على وجباتنا. بعد إعطاء آرنستو حقنة أدرينالين، قصدت مكتب البريد بحثا عن رسائل، لكنني لم أجد حتى رسالة واحدة . أطلقت العنان لنوبة من الغضب العارم؛ كان بالإمكان وبسهولة أن اضرب أي شخص. طلبت من الموظف أن يكرر البحث في الرسائل، كما تحدثت أيضا مع مدير البريد. ولكن في النهاية كان علي الامتثال لما فرضه الواقع؛ فليس هناك أي رسالة على الإطلاق.

عدت إلى مكان إقامتنا. كنت أريد إرسال برقية، لكن فيوزر لفت نظري بأن من شأن ذلك أن يقلق أهلي، وهو في الواقع لن يحل المشكلة. محاكمته للأمر هدأت إحباطي وانزعاجي تدريجيا. مزقت رسالة اللوم والتقريع التي كنت أهم بكتابتها، وبدأت أخط أخرى أكثر عقلانية. ولكنني قلقت؛ فهذا سيعني أنهم لم يتلقوا أية رسائل مني، وبدوره سيمكن القلق منهم بأن مكروها قد أصابني.

وقت الغداء ذهبنا إلى المشافي إنه جزء من سلسلة مشافي تديرها المجموعة الأمريكية الدولية للخدمات (SICA). كان البناء يضم ثلاثة أجنحة. أحدها كان للأمومة والطفولة والثاني كان للرجال والإسعافات الأولية، أما الثالث فكان للمختبرات الطبية، ويضم أيضا صيدلية ومقصفا للعاملين فيه.

العناية الصحية مجانية، ولكن على المرضى أن يدفعوا مقابل الفحوص والأدوية والتصوير الشعاعي وما شابه. كانت المشافي في (تينجو ماريا) و(بوكالبا) مشابهة له. المحزن في الأمر أن كل التكاليف كانت تقع على عاتق الحكومة البيروفية. بمعنى آخر، كل ما تقدمه المجموعة الأمريكية هو أن تظهر للبيروفيين عدم قدرتهم على إدارة الأشياء بأنفسهم دون وصاية العم سام.

أثناء الغداء قابلنا طبيبا كان في غاية الحماسة حيال رحلتنا، وهذا أمر غير شائع في مهنتنا. اصطحبنا في جولة بأرجاء المشفى، وشاهدنا

بعض الحالات لأمراض نادرة. ما أثر بنا كثيرا كان صبيا في الرابعة عشر من عمره، مصابا بالفقاع[1] المميت. كان جلده مغطى بالبثور التي كانت تتفتق وتنقشر تاركة العضلة دون غطاء. كانت تبدو كالحروق. لم يكن المريض يشعر بالألم، لكنه يذبل إلى أن يموت. إنه لأمر مريع!.

"إيكويتوس" 2-5 حزيران 1952:

كانت بضعة الأيام الأخيرة مملة للغاية. كنت في قسم الجذام أعمل على سلسلة من العصيّات المجهرية. قمت بعدة زيارات غير مثمرة للبريد، و حيث أن فيوزر كان متعباً بعض الشيء بفعل الربو، و أنا بدوري لم أشعر بميل لفعل شيء، فقد بقينا خاملين ولم نشاهد الكثير من مدينة "إيكويتوس".

(1) الفقاع Pemphigo ضرب من أمراض الجذري يعتبر طبيا من الجدري الفتاك. إذ تظهر فقاعات كبيرة وبثور عميقة في الجلد يتعذر معها على المريض منابعة العلاج لعدم التمكن. حديثا يعتبر من الأمراض المنقرضة لأن الطب تمكن من القضاء عليها بفضل المعالجة بالليزر. المترجم.

في الطريق إلى مشفى الجذام في "سان بابلو"

على متن " إيل سيزنه "، مبحرين في الأمازون، 6 حزيران 1952:

بعد عدة تأجيلات و تأخيرات أبحرنا أخيراً باتجاه " سان بابلو ". نحن في زورق آلي يدعى " إيل سيزنه"

وهو مناسب لحمل أربعة أشخاص، لكنه طبعاً يحمل ستة عشر شخصاً.

كان من الغريب بما يكفي أن القائد الثاني شقيق إحدى الممرضات في مشفى " جويا "، لذا تم الاعتناء بنا بشكل جيد.في هذه اللحظة بالذات أشهد نزالاً عنيداً بين الشمس، التي لم تختف بعد، و القمر الذي يحاول التغلب عليها بضيائه. المشهد رائع لدرجة أنني أرغب لو كان لي قوة "يشوع[1]" لأوقف النجوم و أستمتع بما أرى أمامي أطول مدة ممكنة. إنني لست " يشوع " لذا سأحاول أن أعزّي نفسي مع معلمة مدرسة جمالها ملائكي. (يبدو أنني أميل إلى استخدام اللغة الإنجيلية اليوم) .

---

(1) يشوع بن نون : من سبط إفرائيم. خادم موسى و خلفه. أدخل العبرانيين أرض كنعان و قاد جيشهم في محاربة العمالقة . عبر الأردن و دخل أريحا حيث يقال أنه نفخ مزاميره التي تسببت بانهيار الجدران. المترجم

الأمازون،7 حزيران 1952:

كان القمر جميلاً جداً ليلة أمس. و قد تمكنّا من تمييز أنواع من الأشجار على حافة الماء. لسوء الحظ غادرت معلمة المدرسة الزورق في الموقف التالي و ضيعت علي إلهامي القمري.

عند الفجر، تحولت الليلة الهادئة إلى سيل مطر جارف. و بدا أنها تمطر داخل قمرتنا الصغيرة من الخارج. تجمعنا في مواجهة المطر، و صار القائد الأول يروي لنا قصة حياته – و كانت كأنما من " جوركي[1]" مباشرة. ماانفكت هذه الرحلة تثبت أن في الحياة أشياء تتخطى حدود خيالنا.

كان راوي القصة يدعى "كازانوفا" و ينحدر من عائلة من الطبقة الوسطى. أمه، وكانت أرملة لها بعض الموارد المالية، لم يُرُقها ذوقه الموسيقي و طريقته البوهيمية في العيش، و كذلك رغبته في التجوال في أنهار الأمازون. نزولاً عند رغبتها، و احتراماً لها، درس المحاسبة. و حصل على عمل في نفس المصرف الذي عمل فيه والده و ارتقى في المناصب إلى أن أصبح مديراً لأحد أضخم الفروع.

منذ نحو عشرة أعوام، ماتت أمه وفي ذات اليوم، كما قال- و هنا أنقل كلماته حرفيّاً- " عدت من المقبرة و نزعت ربطة عنقي إلى الأبد. بالقميص فقط، و الجيتار معلق على كتفيّ، ذهبت إلى مكتب المدير الإداري مباشرة لأسلّمه استقالتي. كان مندهشاً إلى الحد الذي لم يستطع فيه أن ينبس ببنت شفة. "

بعد ذلك باع أثاث منزله و ثيابه و كل ما كان بوسعه بيعه، واستخدم المال في شراء حصة له في " إيل سيزنه " . و منذ ذلك الحين و هو في أنهار " الأوكايالي" و"المارانيون" و " الأمازون" و " النيجرو"

---

(1) مكسيم جوركي Maxim Gorky (1868-1936) روائي روسي أشتهر في كتاب له تحدث فيه عن سيرة حياته – المترجم

يذرعها جيئة و ذهوبا. و حسب الفصول يسافر في العمق نحو البرازيل و كولومبيا و الإكوادور، لكن قدمه لم تطأ " ليما" ثانية. إنه وبكل تأكيد رجل سعيد لأنه حقق ما كان يحلم به. ربما كان لرجل آخر،أقل تصميماً منه، أن يستقر و يحيا حياة سلبية وتعيسة يقضيها في البكاء على حلم لم يقو على تحقيقه.

ذلك الصباح توقفنا في واحدة من تلك القرى الكثيرة المنثورة على ضفة النهر والجزر كالنقط، لكن هذه كانت مختلفة. أحد سكانها كان بارعاً ومجتهداً، وقد نجح في تطعيم البرتقال مع الليمون لينتج فرعاً من الحمضيات لا يتأثر بالفيضانات الدائمة التي تجعل أشجار الحمضيات الطبيعية تتعفن. للأسف كان الجشع دافعه في ذلك، و لأنه الوحيد الذي يمتلك سر هذا النوع من التطعيم، فقد كان يبيع فاكهته بسعر غال. فضلاً عن ذلك، كان يعيش هاجس الخوف من أن يسرق أحدهم إحدى شتلاته و يصبح منافساً له. سخر "فيوزر" منه، و أخبره بكل ثقة أن موقفه الأناني أفسد كل شعور بالإعجاب لدينا بجهده و فطنته.

بعد هذه المحادثة، و كي نجعل مشاعرنا أكثر وضوحاً، غُصت أنا وفيوزر في الأجمة بحثاً عن الثمار البرية و الأفوكادو و التفاح. لدى عودتنا إلى الزورق، قدّم لنا "كازانوفا" نصف كيس مليء بالبرتقال و الليمون، أرسله ذلك الرجل إلى فيوزر.

تابعنا رحلتنا. طوال فترة ما بعد الظهر و المساء من ذلك اليوم كنا نستمع إلى " كازانوفا" يعزف على الجيتار و يغني أغنيات بيروفية، و لاسيّما الفالس. نسخت كلمات إحداها و كانت بعنوان " القلب و الروح و الحياة "، كي أتعلمها بنفسي و أحتفظ بها كشيء يذكّرني بتلك الأوقات الرائعة و أولئك الرجال غير العاديين.

العِلْم في الغابة

مشفى الجذام في "سان بابلو"، 18 حزيران 1952:

المطر ينهمر بغزارة. ثمة حجاب رمادي اللون يخفي أشكال الشجر، وأما الحزن فقد بلغ مني مبلغاً.

أعذب نفسي بحثاً عن تفسير لعدم تلقيّ رسائل من الوطن. لا المطر المنهمر بغزارة, و لا المنظر المهيب للنهر يستطيعان تشتيتي، لذا لجأت إلى الكتابة كي أخفف توتري. سأستغل هذه الفرصة كي ألخص الأحداث منذ وصولنا.

كانت الساعة الثالثة من صباح يوم الأحد، الثامن من الشهر حينما نهض الدكتور "بريسياني" من فراشه، وقد عرف بقدوم " العالمين الأرجنتينيين"، نهض كي يلقي التحية علينا. دعانا إلى منزله ريثما يتم تجهيز غرفة لنا. كان من محاسن تلك الليلة المقمرة أن أظهرت لنا شكل المباني والمستعمرة بوضوح.

كانت تتألف من عدة أبنية خشبية منتصبة على ركائز تتناثر في أرجاء الأرض المقطوعة الأشجار. بمعزل عن قاعة الطعام، كانت الأبنية من طابق واحد طويل و ذي سقف عال، فيه صف من الغرف الواحدة تلو الأخرى. ترتبط هذه الأبنية ببعضها عن طريق معابر خشبية ترتفع قرابة ثلاثة أقدام عن الأرض، ما يمكن ساكنيها من الحركة فيما بينها دون

الغوص في الوحل، إذ أن هطول الأمطار غزير و شبه دائم تقريباً، ولا سيما خلال الفصل الذي يعتبرونه شتاء، والذي يحل في أشهر فصلي الربيع و الصيف.

بينما كنا نتحدث مع المدير و نتأمل البلدة، أخبرونا ان غرفتنا أصبحت جاهزة. دخلناها بصحبة شبه غيمة من الناموس كانت ترحب بنا على طريقتها المقيتة.

نمنا بعمق و حتى الحادية عشرة من اليوم التالي. دعانا المدير إلى الغداء، و دار الحديث عن الدكتور "بيسيه" والمساعدة التي يقدمها لهم من " ليما "، ولا سيما الدعم العلمي، حيث أن الإمكانات المادية كانت ضعيفة لديهم.

بعد الظهر دُعينا للعب كرة القدم. وعليك الذهاب بالقارب إلى الملعب وهو عبارة عن قطعة أرض مقطوعة الأشجار على بعد نحو ميل في مجرى النهر. وتمت الرحلة في قارب آلي.

كنت سعيداً إلى حد الجنون و أنا ألعب كرة القدم وسط الغابة، ولكن كعادتها راحت أفكاري تتساءل عن مدى روعة هذا الأمر لو كان معي "جريجو" و"ماسو" أيضاً. أثناء اللعب كنت أكثر انتباهاً إلى ما حولنا منه إلى الكرة، لذا كنت ألعب بشكل سيئ. عقب اللعبة ذهبنا للسباحة في إحدى الفتحات النهرية الصغيرة. كانت حرارة المياه معتدلة. ومن يدري كم كنا سنبقى هناك في حالة استجمام لو لم يظهر سرب الناموس الذي لا سبيل إلى تجنبه في المشهد. ركضنا باتجاه المقصف الرئيس و نحن نلوح بأذرعنا كطواحين الهواء كي نبعد عنا تلك الحشرات التعيسة. العديد من شركائنا في اللعب كانوا بانتظارنا هناك وقداشتروا لنا البيرة.

يوم التاسع من الشهر زرنا المصحة العقلية. كانت الجولة اليومية تسير على النحو التالي: الأطباء و طبيب الأسنان و المساعدون يبدلون

ملابسهم في غرفة صغيرة فوق طوفٍ خشبي راسٍ عند عتبة النزول إلى المستعمرة. في الداخل هناك غرفتان للتبديل يفصل بينهما ممر فيه حمامات.

في الغرفة الأولى ينزعون ملابسهم بالكامل وفي الأخرى يرتدون الأثواب الخاصة بأقسام المرضى. وعندما جهزنا جميعاً، أخذونا في قارب آلي إلى المصحة، وهي على بعد نصف ميل في النهر.

أول انطباع لي عن المشفى كان كما لو أننا وصلنا إلى قرية عادية أخرى بجانب النهر. كانت البيوت مبنية من خشب البونا، ومنتشرة بشكل عشوائي، والمحلات مفتوحة للمارّة، وكانت الزوارق والقوارب الآلية تأتي وتذهب محمّلة بأقراط الموز وثمار البابايا والسمك الطازج والمملّح.

ولكن سرعان ما استرعى انتباهنا مشهد مؤلم. كانت الأغلبية من النساء والرجال مصابين بآفات وتشوهات.أيديهم وأرجلهم معاً أظهرت علامات لا يمكن محوها من الشر المبتلين به، إضافة إلى فقدان سلاميات أو أصابع بأكملها.

كانت نسبة المصابين بتلك التشوهات مرتفعة إلى الحد الذي جعلني أغتنم أول فرصة لي مع الطبيب المرافق لنا كي أحدّثه بالأمر. وقد أكد لي صحة انطباعي الأول، وأخبرني أن مختصين آخرين في الجذام، مثل "سوزا ليما" و"فرناندیز"، قد أبدوا نفس الملاحظات، ولكن دون إعطاء تفسير إذ لم تكن الظاهرة قد اكتشفت بعد.

وصلنا إلى الإدارة حيث تستدعى الجراحات وجراحات الأسنان هناك. جميعهم في نفس المبنى الذي يرتفع فوق دعائم خشبية. هناك غرفة عمليات عامة للأمراض ذات الصلة، وأخرى للمدير، حيث يمكن لمداولات الاستشاريين والعمليات الصغرى أن تُجرى فيها. هناك أيضاً غرفة معالجة و أخيراً، هناك مساحة كبيرة تضم غرفة الانتظار و عيادة جراحة الأسنان والمستوصف.

بعد ملاحظة عدة حالات مثيرة، ومشاهدة كيف يقوم المدير بجمع المعلومات لإحدى الصحف عن " المتلازمات العصبية في داء الجذام"، حيث كان الإرشاد عن بعد للدكتور "بيسيه" واضحاً، قمنا بنزهة حول المصحّة.

الأبنية القديمة التي بنيت من خشب البونا، وهو نوع من النخيل كثير الشيوع هنا، كانت مبنية بشكل رديء. وعلى العكس من ذلك كانت الأبنية الحديثة أفضل بكثير وقد شيدت من خشب الأرْز.

جميع المرضى يعيشون كعائلات مع زوجاتهم وأبنائهم. من الصعب جداً أن تفصل الأبناء عن آبائهم.جميع المرضى أتوا من مجتمعات تمتد على طول ضفاف نهري " أوكايالي" و"يارافي"، حيث يستوطن مرض الجذام. نتيجة لذلك، وكونهم معتادون على رؤية المصابين من حولهم، فالناس هنا يرون من الطبيعي أن يكونوا معاً، ومن السخف أن يُفصلوا عن أبنائهم.

مع ذلك، كان أسلوب التفاهم يعمل تدريجياً على معالجة أفكارهم المريبة، فالعديد من أبناء المرضى قد أصبح إما في منطقة معزولة صحياً، أو في مركز للوقاية، أو تحت الملاحظة للتحقق فيما إذا كانوا يحملون المرض أم لا. وعندما يبلغون سن العمل عادة ما يُوَظفون من قبل المشفى كعمّال صحة.

خلال هذه الزيارة أيضاً رأينا عدة محلات يديرها المرضى، وهذه المحلات تتنوع ما بين محل لبيع عدد الصيد إلى مقهى يحتوي على ثلاجة للمشروبات الباردة. آخرون منهم اختاروا تطهير جزء من أرض الغابة ليزرعوا فيه الطماطم واليوكا والموز ومحاصيل أخرى. والبعض منهم قد حقق ربحاً إلى الحد الذي سمح لهم بشراء قوارب آلية خاصة بهم.

هذه الطريقة الاستقلالية في الحياة — التي تختلف عن تلك التي نعرف في الأرجنتين— بدل أن تدفع المرضى إلى الفرار، عملت على ربطهم

أكثر بالمصحة والأرض الصغيرة التي يملكون والتي غدت الآن وطنهم الحقيقي.

عدنا إلى الطوف الذي يبدلون فيه الملابس، ولبسنا بنطالينا القصيرين وغصنا في النهر! سبحنا لساعة ثم ذهبنا لتناول الغداء. بعد ظهر ذلك اليوم عرّفونا بالراهبات اللواتي يعملن في المختبر وملجأ الأطفال. فيما بعد ذهبنا للصيد مع أحد الأطباء. اصطدنا أربعة أو خمسة من أسماك السلّور. قذفنا الشبكة عدة مرات، لكن الحظ لم يحالفنا فيها كما فعل في الصنارة، بل في الحقيقة لم نصطد فيها أي شيء آخر. قمنا بشيّ الأسماك لأجل العشاء تلك الليلة.

أمضينا الصباح بأكمله يوم الثلاثاء، العاشر من الشهر، ونحن نعمل في مستعمرة الجذام. بعد الظهر أمضيناه في لعب كرة القدم. وبينما كنا نلعب أُصبت بخدش في ساقي جعل ينزف بعض الشيء. بعد انتهاء اللعبة، ودون أن أفكر في الخدش، قذفت بنفسي في النهر بشكل رأسي خلف فيوزر.

بالكاد كنت قد وصلت سطح الماء حينما شعرت بشيء لزج التصق بساقي، تبعه ألم حادّ كإبرة تحت الجلد. انتصبت رافعاً قدمي وأنا أصرخ : "آرنستو! ما الذي أصاب ساقي؟" وبرد فعله السريع المعتاد، انتزع سمكة الضاري التي كانت عالقة في بطة ساقي، إذ إن الدم النازف من الخدش هو ما جذبها إلي. خرجنا من الماء مباشرة. ونحن نضحك أراني أرنستو فتات الجلد والعضل والشعر الذي كانت السمكة تعضه في أسنانها مثلثة الشكل.

يوم الحادي عشر من الشهر، وبينما كان فيوزر في استشارة سريرية بصحبة الدكتور "بريسياني"، بقيت في المختبر أقوم بدراسة بعض العيّنات من العصيات المجهرية. كان العمل يتم ضمن ظروف البدائل المؤقتة. لم يكن لديهم حتى مصباح كهربائي للمجهر، الذي لم يكن أصلا ذا نوعية جيدة. بناء على ذلك، كان الفحص فيه يتم بالاستعانة بالضوء الطبيعي،

وبعدسات ذات نوعية رديئة. وبما أن الرؤية لم تكن واضحة، فهامش الخطأ يكون كبيراً.

أخبرنا المدير بكل الصعوبات التي كنا نواجهها. وقبل ملاحظاتنا برحابة صدر. يبدو لي أننا لم نعد عالمين بين معترضتين.

بعد ظهر ذلك اليوم خرجنا في نزهة مشاهدة. أخذونا إلى خليج في إحدى الجزر. عندما تكون مياه النهر مرتفعة، تصبح البحيرات والبرك في الجزيرة جزءاً من الأمازون. فتحة ذلك الخليج كانت باتساع أي نهر عادي من أنهار الأرجنتين، لكنها سرعان ما تضيق و تتفرع متشعبة في الغابة.

كانت رحلتنا البحرية الصامتة، وسط آلاف الأشجار التي تحجب وجه السماء، تجربة مذهلة. لقد واجهنا عدداً لا يُحصى من الطيور من كل شكل وحجم ؛ فالببغاوات، ومالك الحزين الأبيض والأحمر، وحتى أنواع من طيور القاوند، أو الرفراف بريشها الساحر. قمنا أيضاً بالتلصص على الحرباءات والأفاعي و القرود – وبمعنى أوضح، كل ما كنا نشاهده في مغامرات أحلامنا ونحن صغاراً.

تماماً حيث تتدفق مياه البحيرات في النهر، كانت الأسماك الكبيرة تنصب الكمائن للأسماك الصغيرة، التي اكتسبت بعض السمنة في البحيرات حينما كان الماء ضحلاً، لذا فالمكان جنة حقيقية للصيادين. لم تكن لدينا عدة للصيد، لكن كان في الزورق بضعة خيوط عُلقت فيها صنارات، رغم عدم وجود الطعوم. شكّ فيوزر قطعة من موزة في سفود على إحدى الصنارات وأمضى أكثر من عشرين دقيقة يحاول اجتذاب سمكة. بدأت أنا والطبيب نهزأ به قائلين إننا لم نر بحياتنا سمكة نباتية، ولعل الموز ينفع لو كان يحاول اصطياد أحد القرود. كان فيوزر يضحك من نكاتنا اللاذعة عليه، دون أن يحيد نظره عن الخيط. فجأة بدأ يشد الخيط بقوة ثم سحبه وقد علقت به سمكة كونشي ضخمة.

ما حصل جعلنا نصمت! على الفور بدأنا نقطع السمكة إلى طعوم صغيرة وبدأ العمل ثلاثتنا. خلال وقت قصير تمكنا من اصطياد ثماني أو تسع سمكات، من بينها سمكة زونجارو تزن نحو عشرة أرطال، كان الطبيب من اصطاد تلك السمكة، وجعل يفخر بهذا الإنجازلأنه، وحسب رأي الخبراء في الصيد، من الصعب اصطياد الزونجارو وخصوصاً باستخدام الصنارة.

بسعادة غامرة عدنا إلى المصحة بصيدنا الذي وعد الطبيب بتحويله إلى طبق من الـ"سيفيتشي"[1]. وبينما كنا نودعه، قال فيوزر بطريقته الساخرة المباشرة: "الموز طُعم سيئ إذاً، هه؟"

أي شيء آخر كان بوسعي أنا والطبيب فعله سوى الضحك من أعماق قلوبنا؟!

يوم الخميس، الثاني عشر من الشهر، كنت أعمل طوال الصباح في المختبر. بيلاو ذهب في الجولات الصباحية مع الطبيب. على الغداء تناولنا طبقه السيفيتشي الشهير، وبعد الظهر ذهبنا للعب كرة القدم. لن أمل من تكرار مدى روعة تلك الرحلة القصيرة، والقارب مليء عن آخره بالشباب الذاهبين إلى اللعب بعد إتمام عملهم اليومي.

تدخل في خليج صغير بضفاف معشوشبة زينتها أشجار ورق الخبزالجميلة. إنها دون شك إحدى أجمل الأشجار التي وقعت عيناي عليها. تشبه الكستناء بعض الشيء، ولكن أكثر عرضاً، وبأوراق أكثر بريقاً في خضرتها.

لكن ما أسلفت ليس سوى مدخل إلى بقعة هي الأغرب والأكثر زحمة في المشاهد التي يمكن لرياضي كثير الأسفار مثلي أن يتخيلها. في قلب الغابة الأمازونية، والتي تطبق عليها أشجار السيبة والنخيل، ثمة عالم

---

(1) سيفيتشي (Ceviche) طبق نموذجي من الطعام البيروفي يتألف من السمك النيء المنقوع باالليمون الحامض مع البصل و التوابل الحارة.

من النباتات المتعرشة والزاحفة والتزيينية تتحد في توأمية خالصة، إنه مكان لا يمكن وضعه في مجال للمقارنة.

البقعة قصيرة وعريضة، كتلك التي في الملعب الوطني في قرطبة، حيث اعتدنا اللعب أنا وارنستو وتوماس وجريجوريو. لقد جعلتني أفكر كم هو رائع أن يكون أبناء جرانادو الثلاثة وسط الملعب، وفيوزر في المرمى. لكن غياب الأخبار من الوطن شوش عليّ السعادة التي كنت أعيش. عندما عدنا من المباراة أبرقت إلى "إيكويتوس" لأرى إن كانت هناك أية رسائل لنا. ولا واحدة!

تلك الليلة دعانا المدير لتناول الـ"سيفيتشي". ملأنا معدتينا! عندما أعود إلى الأرجنتين، سأحاول تحضير هذا الطبق مع سمك الملك. لدى ذهابنا للنوم، جاء طبيب الأسنان ودعانا إلى حفلة في منزله.

عندما وصلنا كانت في ذروتها. فرقة ضخمة مؤلفة من جيتارين وساكسوفون كانت تعزف الفالس البيروفي. وصولنا أثار موجة من التصفيق وشرب الأنخاب والترحيب بالهتاف.

كان الناس يشربون البيرة والبيسكو والنبيذ الحلو ومرق الدجاج، وكانوا يفعلون ذلك كيفما اتفق وبكميات كبيرة. أما أنا وفيوزر فقد توخينا الحذر فيما سنشرب. كنا نرقص لأي نغمة كانت: من الفالس والمارينيرا والبورو الكولومبي والكورو البرازيلي، ولكن في الغالب على التانجو والمامبو، كون المامبو هو الضرب الموسيقي السائد والتانجو على شرفنا.

ظلت الأمطار مستمرة طوال صباح الجمعة، الثالث عشر من الشهر، لذا لم نذهب إلى المشفى. عوضاً عن ذلك ذهبنا للصيد، رغم تنبههم لنا بأن المطر يثير الماء والطين موفراً المزيد من الطعام للسمك ما يجعله يمتنع عن الطعم. و بالفعل لم تتناول الأسماك الطعم. لكننا التقينا هندياً من الياجوا كان يصيد بالرمح. تبعناه لنرى كيف يفعل ذلك. كان يستخدم رماحاً خشبية رفيعة برؤوس مدببة صنعت من الخشب الصلب أو

العظام. مقبض الرمح مربوط بقطعة من خشب البالسا- وقد صُبغت بالأبيض أو الأحمر أو الأزرق- مع خيط بطول عشرة أقدام. يجوب الخلجان التي تصب في النهر بقاربه الطويل، وفي اللحظة المناسبة، عندما تصبح السمكة في المتناول، يقذف رمحه. إذا ما اصاب هدفه فإنه لا ينتظر ويتابع تقدمه في مجرى النهر، وتتبعه السمكة وهي معلقة برمح الصيد المنغرز في جسمها.

وبينما راح الهندي يتابع سعيه لصيد السمك بكل عزيمة، رفعنا المحرك من الماء وتابعنا باستخدام المجاديف كي لا نكسر الصمت. برباطة جأش، ورغم علمه بأن هناك من يراقبه، تابع الهندي قذف رماحه. وكان حينما يخطىء الهدف، يرفع رمحه بمجداف القارب، ويتابع طريقه دون أن يرفع بصره من الماء. يحاول ثانية فإذا ما نجح، ترك السمكة ترفرف في الماء.

في أقل من ساعة اصطاد تسع سمكات. بعد ذلك بدأ رحلة العودة، وهو يبحث عن الطافيات الملونة بين الجذور والأغصان الغائرة في الماء. كان يلتقط سمكة سالتون هنا، وأمباراتشيه هناك. احياناً كان الرمح يخرج فارغاً، فبعض السمكات، رغم إصابتها، تنجح في الإفلات.

عدنا إلى مكان إقامتنا وقد بلغ الإعجاب بمهارة ذلك الصياد منا مبلغاً. أخبرونا أن حفلة كانت تُحضّر على شرف أرنستو؛ فغداً سيبلغ الرابعة والعشرين من العمر.

عيد ميلاد غير اعتيادي

صباح الأحد في الرابع عشر من الشهر كنا نعمل في المصحة. نحو الحادية عشرة ذهبنا بجولة لزيارة بعض مزارع الخضروات، ولعبنا كرة القدم مع مجموعة من المرضى. بعد ذلك، حدّثناهم عن بعض نجوم كرة القدم الأرجنتينيين، الذين يتمتعون بنفس القدر من الشهرة هنا كما في الوطن، وبالطبع برز كالعادة موضوع هجرة الكثيرين من نجوم اللعبة إلى كولومبيا.

كان حوارنا مفعماً بالحيوية حتى كاد الزورق أن يغادر بدوننا. على المتن، قال لنا المدير، بإعجاب لايخفي نفسه: "تآلفكما أنتما الاثنان مع "جويس" و"جارسيا لوركا" كتآلفكما مع مختصيّ الجذام مثل "سوزا ليما" و"دارمندرا"، أو لاعبي الكرة مثل "بيديرنيرا" أو "دي ستيفانو" أو "لابرونا". أنتم رجال علم، ومع ذلك تحبون لعب الكرة مع الشبان، ولكن أكثر ما يعجبني فيكما على الإطلاق هو عدم اكتراثكما لما يراه الآخرون".

تبادلت وفيوزر الغمزات، واحمرّ وجهانا مثل العذارى- كما يقال.

تلك الأمسية ذهبنا إلى عشاء عيد ميلاد أقامته زوجة الطبيب لـ" فيوزر". بعد ذلك ذهبنا إلى المقصف من أجل الحفلة على شرفه. في الطريق إلى هناك قال: "اسمع يا "ميال" سوف أرقص على أغنيات التانجو فقط، ولكن بالطريقة التي يعزف فيها أولئك الناس، وأذني المتعفنة أحياناً، لا أستطيع تمييز اللحن، لذا عندما يكون لحن تانجو اضربني بقدمك من تحت الطاولة."

وصلنا ولدهشتنا وجدنا المكان فارغاً. جلسنا، وما هي إلا دقائق قليلة حتى بدأ القرع على الباب واندفعت الفرقة التي كانت بانتظارنا إلى الداخل. عزفوا أنشودة "عيد ميلاد سعيد"، وتجمع عشرة أو أكثر من الشابات، ممرضات وعاملات نظافة، حولنا. وقامت كل واحدة بشدّ أذن فيوزر أربعاً وعشرين مرّةً، أما الأكثر جرأة بينهن فقبلته مرة أو اثنتين. كُسر الجليد ووصل المزيد من المعربدين، وفي الحال عُزفت موسيقى التانجو. ضربت فيوزر بقدمي فانطلق مع صبية هندية جميلة إلى ساحة الرقص.

بدأ الناس يشربون الأنخاب، وسرعان ما تدفق شراب البيسكو كالماء. نحو منتصف الليل، ألقى المدير كلمة يحيّي فيها صاحب عيد الميلاد. رد أرنستو الكلمة باختصار، وكالعادة كان عميقاً ودقيقاً معاً. فقد أثنى على الروح الاستقصائية والعمل لدى أسرة هذه المشفى الواقعة وسط الأدغال هنا، وكذلك أثنى على حسن الضيافة والمودّة اللتين أظهرتهما لغريبين لا تعرف عنهما شيئاً، وفتحت لهما أبوابها وقلبها. وقد قوبلت كلمته بتصفيق حاد.

بينما بدا أن الحفلة توشك على الانتهاء، كانت حفلة أخرى قيد الإعداد في مقر الإقامة. انطلقنا كي نكسر آخر الحواجز، وقد تسلح كل منا بزجاجة بيسكو، أو براندي قصب السكر في يده، والفرقة الموسيقية تشق الطريق.

عندما شوهدنا قادمين، أغلق الآخرون الأبواب وأطفؤوا الأنوار. عزفت الفرقة أغنية فالس عن الفرح والعمر المديد، فعادت الأنوار من جديد، وفُتح الباب على مصراعيه واستبد اللهو والقصف في المكان. على الفور تقريباً، ذاعت الحفلة في أرجاء المكان والكثير من الناس بدؤوا الرقص حتى أصبح المنزل المنتصب على أعمدة يهتز تحت وطأة أقدام الراقصين. وبدا كما لو أنه أحد البيوت الكاريكاتيرية التي يقفز للأعلى والأسفل على أنغام الموسيقى.

بالطبع كان فيوزر هو النجم وكانت عدة فتيات تتنافس للرقص معه. من بينهن كانت واحدة استحوذت ناظره. اتبعنا الخطة التي رسمناها مسبقاً. حينما كانت تُعزف أغنية تانجو، كنت أضربه بقدمي، وكل شيء كان يمضي على ما يرام. بعد ذلك حدث ما يشوش عمل خطتنا. بدأت الفرقة، وبعد فاصل استراحة، تعزف لحناً برازيلياً كان يستهوي " تشيشينا" عشيقة آرنستو. لدى سماعي اللحن قلت له: "ألا تذكر؟" وصادف أن لمست قدمي قدمه.

ظناً منه بأني قصدت التنبيه إلى التانجو، اندفع إلى ساحة الرقص مع الفتاة الهندية، التي كانت تتخذ لنفسها زاوية تنظر منها إليه. وقبل أن أتمكن من التصرف، كان بيلاو يرقص التانجو على الإيقاع البطيء بين أزواج الراقصين الذين كانوا يرقصون بهرج ومرج، ويدورون بحركة سريعة على أنغام كورو برازيلي. مدركاً أن الأمر لم يكن بالشكل المطلوب، عاد إلى الطاولة حيث حاولت، رغم الضحك العارم لدي، أن أخاطبه بلغة الإشارة، والضحك قد غلب الكلام، بأن الآخرين كانوا يرقصون بإيقاع أسرع بكثير. لم يفهم رسالتي وهكذا استمر يرقص، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ولفّة، ثم واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ولفّة. لم نهجع إلى الفراش حتى الفجر، منهكين، متعرقين ولكن سعداء . ثلاث ساعات من النوم فقط، استيقظنا بعدها لنقوم بزيارة إلى قبيلة من هنود الياجوا.

خلال الساعات العشر التي تلت، خضنا تجربة لا تنسى. مدير المشفى، الذي يعشق كل أنواع المغامرات، رتب مع أحد المرضين، وهو ابن زعيم قبيلة هندية صغيرة مجاورة، رتب لأخذنا في رحلة لصيد القرود.

أبحرنا في الزورق جهة أعلى النهر نحو ميل ونصف. تركنا مجموعة تصطاد السمك بينما اتجهنا إلى عمق اليابسة مع الطبيب والممرض " توماس".

الغابة، التي لم تعد بكراً، إنما بقيت جميلة، امتدت أمام ناظرنا. كانت الأشجار الضخمة تحجب السماء، وكانت النباتات المتعرشة

تعانقها مشكلة رابطاً فيما بينها. الطريق الوحيدة إلى داخل الغابة كانت عبر ممر صغير يعرفه الجوالون.

بعد مسيرة عدة دقائق و صلنا القرية. كان الزعيم بانتظارنا، محاطاً بنسائه وعدد غير محدد من الأولاد. الأصغر بينهم، وبحركة مؤثرة للتعبير عن الثقة، قفز على الفور إلى ذراعيّ. كانوا جميعاً يرتدون ثيابهم المصنوعة من خيوط النخيل.

تعيش الجماعة في شبه ملاذ ضخم حيث تقوم النسوة بطهي الطعام، والأولاد باللعب. كان لديهم مهجع مشترك، يشبه الفرن الدائري، شيد من أوراق النخيل المتشابكة وله مدخل صغير سُدّ بشكل محكم لمنع دخول الناموس. الآباء والأولاد والإخوة والأخوات، جميعهم يتكومون في داخله معاً.

انطلقنا مع الزعيم في الاتجاه الذي يسلكه الصيادون. بدأت الغابة الكثيفة بالانحسار بشكل تدريجي. بعد نحو ميل أو مايقرب من ذلك، رأينا ما بدا على أنه شلال صغير من الماء الصافي ينهمر من السماء. شرح لنا توماس بأن هذا هو أثر الضوء النافذ عبر الأشجار، لأن المنطقة كانت عرضة لنزع ورق أشجارها من قبل القردة العابرة.

مع دنونا من المنطقة المضاءة، رأينا أنها كانت أشبه بنافذة ضخمة بطول بضعة أميال وعرض خمسين ياردة تقريباً وقد جردت أغصان أشجارها من الورق. لدى وصولنا أخبرونا أن ندهن وجوهنا وأيدينا بخليط من دهن القرود وصبغة من شجرالأناتو وذلك لتحييد الناموس وأيضاً رائحة أجسامنا التي قد تنبه الضواري لوجودنا جثمنا بالقرب من مجموعة نساء وأطفال يافعين. أحد الصيادين، وهو على وركيه على بعد خمسين

قدماً منا، حمل حملاجاً (قصبة نفخ لإذكاء النار) بيد، وسهماً مغمساً بال "كورار[1]" باليد الأخرى.

كان هناك انتظار لنصف ساعة قبل أن نسمع أصواتاً تشبه نباح الكلاب. انحنيا للأسفل جميعاً. كنت أتوقع ظهور الحيوانات بأية لحظة، ولكن ما بدا أنه وقت طويل، مضى دون حدوث شيء. انتظرنا لوقت طويل؛ ربما لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة. صرخات القرود أصبحت أكثر وضوحاً مع مرور كل دقيقة.

فجأة، وبينما كنت أظن أنني متيقظ تماماً، فاجأني ظل قردين حجمهما أكثر من متوسط عبر من فوق رؤوسنا مطلقاً صرخات قوية. على الأثر تبعه مئات القرود من مختلف الأحجام، ذكوراً وإناثاً، والبعض كانت صغارها متعلقة بها، وكانوا يتحركون بسرعة وصخب عبر المنطقة الجرداء. كان من الصعب البقاء دون حراك. كانت عينانا أنا وفيوزر موجهة نحو الصياد.

مر القطيع بأكمله، ولم يتحرك أحد منا. بعد ذلك بدقيقتين أو ثلاث مرت بقربنا مجموعة من ثمانية قرود، تبعتها أربعة قرود أخرى. بعد بضع دقائق أخرى لم يكن أحد يسمع سوى صراخ القردة في المدى. بعيد ذلك ظهر قرد بمفرده، كان حجمه كبيراً بعض الشيء، ويجر خلفه ثلاثة آخرين. لدى مرور آخر أفراد هذه المجموعة من خلال الأجمة، حيث كان الهندي يربض وبيده الحملاج، سقط فجأة على الأرض كالثمرة الناضجة. أسرعت إحدى النساء التي كانت بجانبنا إلى القرد وعادت وهي تحمله بين ذراعيها. هرعنا باتجاهها كي نراه. كان متصلباً، ولم يظهر سوى من حركة بؤبؤي عينيه بأنه لم يكن ميتاً، بل مشلولاً بفعل السم الذي في السهم. تفاجأت حين حملته بين ذراعي كم كان ثقيلاً بالقياس إلى حجمه.

---

(1) كورار (curare) مادة تستخرج من بعض النباتات الاستوائية يستعملها هنود أمريكا الجنوبية لتسميم السهام و تستخدم طبياً لإحداث الاسترخاء العضلي.

بعد ذلك جاءت التفسيرات. فقد أخبرونا بأن عليك أن تحرص فقط على قتل القردة التي تكون في ذيل المجموعة، لأن الآخرين لو رأوا منظر القتل فسوف يغيرون مسارهم، وبالتالي ستخسر أرض الصيد.

بدأ الصيادون الآخرون بالعودة تدريجياً. كانت حصيلة صيدهم خمسة قرود. عدنا إلى القرية وقد كنا نحمل معهم أحدها على قضيب خشبي. واقترحوا علينا البقاء لتناول اللحم فقبلنا.

بينما كان الغداء قيد الإعداد، ذهبنا في نزهة سير. حاولنا استخدام الحملاج، وقمنا أيضاً بزيارة بستان صغير كان الهنود يزرعون فيه الفلفل الحار الذي يشبه ذاك الذي نسميه "نار جهنم" في الأرجنتين.

أخبرنا الدكتور "بريسياني" بأن الهنود يتناولون الكثير من هذا الفلفل. وبالحكم على هذه المعلومة من وجهة النظر الكيماحيوية، خلُصنا إلى أن هذا الاستهلاك الكبير للفلفل الحار سببه هو بالذات، كونه مصدراً غنياً للفيتامين "سي".

أثناء عودتنا شممنا رائحة الشواء. دعانا الزعيم إلى شرب قرعة من الـ"مازاتو"، وهو شراب كحولي يُحضر بتخمير المنيهوت. كنا شديدي الاهتمام في محاولة جعل الزعيم والصيادين يفهموننا، حتى أننا لم نلحظ ذهاب المدير وتوماس.

بعد وقت قصير دُعينا إلى الغداء. جلسنا في الكوخ أمام أطباق ضخمة كانت أوراق لسان الحمل. قدموا لنا المنيهوت وورق لسان الحمل المغلي. وبينما كنا نأكل، ظهر روجر وتوماس وهما يحملان طبقاً كبيراً فيه لحم قرد مشوي بدا كأنه حديث الولادة.

نظرت أنا وفيوزر إلى بعضنا. من الواضح أنها كانت نكتة علينا. استجمعنا شجاعتنا وطلبنا أن يُقدم لنا اللحم على الفور إذ أننا كنا نتضور جوعاً.

من القضمة الأولى شعرت كأن لساني يلتهب. لا يمكنني حتى القول بأنني أعرف طعم لحم القردة . فكل ما أحسست بطعمه كان حرارة الفلفل.

مع تناول طعام حاد الطعم كهذا كان علينا تناول بضعة كؤوس أخرى من الـ"مازاتو". وهذا ما منح أصدقائي فرصة جيدة أخرى للضحك. بعد تناولي أربع أو خمس قرعات مترعة سألوني إذا كان قد أعجبني.

"بالتأكيد" أجبت "ألم تلاحظوا ذلك؟" وأخذت كرعة أخرى.

"ألا تريد أن تأتي لترى كيف يتم تحضيره؟"

قلت نعم ولحقت بهم إلى مكان ليس ببعيد، المنظر الذي كان أمامي مرعب بلا شك، إن لم يكن أشبه بالجحيم الذي كتب عنه "دانتي". كانت هناك خمس أو ست نساء جلسن حول قدر ضحل، يدخنّ ويتسامرن. بعضهن بلا أسنان وأخريات بأسنان جميلة . كنّ جميعاً يعلكن كتلاً من المنيهوت، ثم يبصقنها في القدر.

بعد استعراضنا للمشهد، قال "توماس": "هذا هو المازاتو اللذيذ الذي أعجبك."

شعرت بردّة غثيان مفاجئة في معدتي. كل الأشياء اجتمعت معاً . القرد المشوي الذي يشبه الإنسان، الرائحة اللاذعة للدهن الذي طلينا أنفسنا به، والآن، يُتوج كل ذلك بمنظر النسوة الهنديات وهن يبصقن في القدر. كلها اجتمعت لتثبت أنها أقوى من أن يتحملها أي جهاز عصبي لإنسان. اندفعت نحو كومة عشب خفيضة كي أتقيأ كل ما أكلت وشربت.

بعد ذلك بوقت قصير، وبعد أن استعدت نشاطي، عدنا إلى الضفة حيث نزلنا وتركنا المجموعة الأخرى تصطاد السمك، كان القلق ينتابهم حيال تأخُرنا. عدنا إلى المستعمرة وسهرنا حتى ساعات الصباح الأولى و نحن نقلّب تفاصيل رحلة الصيد.

أمس، الثلاثاء، السابع عشر من الشهر، حقق بيلاو حلماً آخر من أحلامه وهو عبور مياه الأمازون سباحة، رغم كل التحذيرات من الخطر؛ فالتماسيح وأسماك البيرانا المتوحشة، التي نعرف الآن أنها تظهر بأقصى سرعة لأقل أثر من الدم، رغم ذلك أصرّ على السباحة. طبعاً، أنا لم أضيع أي وقت في محاولة ثنيه عن الأمر. فقط جعلته يعد بأنه لو أصيب بجرح من أحد الأغصان التي يجرفها التيار، أن يقفز عائداً إلى الزورق على الفور.

انطلقنا نحو الساعة الثانية من بعد الظهر. في هذه النقطة يبلغ عرض النهر نحو ميل تقريباً، لكن أرنسنو كان يسبح مع التيار، ثم انقلب على ظهره وراح يعوم لعشر دقائق تقريباً. استمر يسبح إلى أن خرج على الجانب الآخر على مسافة ثلاثة أميال على طول التيار عن المستعمرة.

تسلق فيوزر عائداً إلى الزورق وهو يلهث لكنه سعيد. عدنا ومعنا مجموعة من الأشخاص، من بينهم الدكتور روجر، شقيق زوجة المدير، ومعه بعض الشبان الآخرون الذين كانوا يرافقونني في الزورق، ولم يقووا على إخفاء إعجابهم بشجاعة فيوزر.

احتفلنا بإنجازه تلك الليلة. منظم الحفلة كان أحد أعضاء الإدارة. كان لوطياً وتستحوذ عليه أوهام العظمة. فقد كان دائم الحديث عن الحفلات والسهرات الليلية في منزله، والذهاب لركوب الخيل مع المشاهير من الأطبّاء، والفنانين وقيادات السلطة. كل ذلك وبشكل واضح كان من نسج خياله.

استثماراً لحقيقة أنه من نظم الحفلة، فقد ألقى كلمة مطوّلة، جاءت متناوبة ما بين الرداءة والتبجّح، وأغفلت تماماً كل المحاولات لمقاطعته. وقال فيها إن جميع الحاضرين، باستثنائنا نحن والمدير، كانوا رعاعاً جاهلين مساكين بلا امتيازات اجتماعية تمكنهم من الاستفادة من وجود المتعلمين في المستعمرة كي يحسنوا أنفسهم. بعد ذلك اختتم كلمته و تم شرب الأنخاب الاضطرارية. بالكاد تناولت كأساً، لأن معدتي كانت لا تزال في حالة من الاختلاط منذ نزهة الأحد. بعد ذلك خلدنا إلى النوم سريعاً.

إذاً، ثمة لمحة مختصرة عن أيامنا العشر الأولى في مشفى الجذام بـ"سان بابلو". كما أسلفت في مستهل هذه الملاحظات، هطلت زخات قوية من المطر هذا اليوم، لذا أمضينا الصباح بطوله نناقش خطة جديدة؛ السفر إلى "ليتيشيا" فوق ظهر طوف. كنا ننوي صنعه من قطعة طوف ضخمة كانت تستخدم لنقل الماشية هنا.

"ألفارو" و"تشافيز"، موظفان من المشفى، يساعداننا في إعادة تأهيل وسيلة النقل. كان الطوف يتألف من اثني عشر جذعاً من خشب البولزا (وهو خشب قليل الكثافة متأصل في المنطقة وذو قدرة عالية على الطفو فوق سطح الماء)، شدّت إلى بعضها باستخدام نوع من النباتات المتعرشة القوية يدعى "الليانا"، ويبلغ عرض الطوف ثلاثة ياردات وطوله سبعة. في وسطه شبه قمرة مغطاة بورق النخيل وتسمى التامبو بلغة البحارة المحليين. وهو جميل المنظر أيضاً. حينما أسترجع صور رحلتنا في الأمازون، وما حققناه فيها بجهودنا ينتابني فرح غامر.

مشفى الجذام في "سان بابلو"، 19 حزيران 1952:

لأنه لم تكن هناك أية جولات يوم الخميس، فقد قامت مجموعة منا بالذهاب إلى صيد السمك. أخذنا عدّة صيد، بما في ذلك الشبكة، وأيضاً قليلاً من المال كي "نقتنص" بعض الفاكهة.

كانت محصلة الصيد عشرين سمكة كبيرة، بينها ثلاث من نوع المابارات والجامينوت؛ وهذه أسماك ضخمة تزن الواحدة منها أكثر من اثني عشر رطلا. اصطدنا أيضاً بعض أسماك السردين الضخمة ونوع من الدورادو الذي يطلق عليه اسم السردين الذهبي في هذه المناطق.

توقفنا في عدد من المزارع واشترينا وأكلنا الكثير من البابايا.

نحو منتصف اليوم صادفنا سمكة زونجارو ضخمة،تسبح كسولة قرب السطح. الممرض توماس، الذي كان ينبض تحت جلدته الرقيقة من

الحضارة دم أحد هنود الياجوا الأصيلين، استل الرمح، وأوقف محرك القارب، وبدأ يجدف باتجاه السمكة. على الفور ذكرني بذاك الهندي الذي رأيناه يصطاد السمك قبل بضعة أيام. ولولا الثياب التي يرتديها توماس، لكان صورة طبق الأصل عنه.

اقترب ببطء حتى بلغ مسافة خمسة عشر قدماً عن السمكة تقريباً، وحالما بدأت تسرع هاربة قذف الرمح بحرفنة قناص لدرجة أنه أصاب السمكة في وسطها بالضبط. لسوء الحظ، وبما أن الرمح لم يكن مزوداً بطافية، فقد تمكنت السمكة الضخمة من الاختباء بين أوراق نباتات الأسل الضخمة على ضفة النهر.

بضع ثوان بعد ذلك وانفتحت السماء لتطلق ريحاً عاصفة بدأت تجلد الماء مثيرة موجاً وكأنما نحن في عرض البحر.

روجر، الذي استثاره ما حققه بيلاو عندما عبر النهر، أراد أن يعبر إلى الضفة الأخرى كي يستعرض شجاعته. ولكن عندما بدأ الزورق يتأرجح ويدور والماء بدأ ينصب فيه، انتابه الخوف وعاد إلى الشاطئ. كان من التبجح بمكان أن اضطرنا لاستفزازه، وأما الهلع الذي بدا على وجهه فلم يفز منا سوى بالضحك وكذلك الشفقة.

عندما هدأت الريح، عبرنا النهر ونزلنا إلى الشاطىء. شوينا السمكة ومن ثم أمضينا بقية اليوم نراقب المطر، ونستذكر الوقت الذي قضيناه في "سان بابلو".

حفلة وداع لا تنسى

على متن الطوف "مامبو. تانجو"، 20 حزيران 1952:

ليلة أمس أظهر لنا المرضى من مشاعر الود ما شكل لدي إحدى أعذب الذكريات في حياتي. وقد حدث ذلك على النحو الآتي: نحو السابعة مساء دعينا إلى المرسى. هناك، وتحت رذاذ مطر مستمر، كان زورق أحد المرضى راسياً وكان يغصّ بالرجال والنساء والأطفال. لدى وصولنا أطلقوا عدة صيحات ترحيب، أتبعوها ببعض الأغنيات. معظم هيئة العاملين كانوا مجتمعين هناك أيضاً. فرقة المستعمرة، بقيادة عازف الساكسيفون، أبهجتنا أيضاً بعدة ألحان متتالية.

فر الوقت سريعاً وحلّ الليل. وقام ثلاثة من المرضى بإلقاء الكلمات. ببساطة، بل بخجل تقريباً، أخبرونا عن إعجابهم برحلتنا البحرية وتقديرهم للطريقة التي كنا نعاملهم فيها.

لدى اختتام ثالثهم كلمته، همزني فيوزر، فاستعديت للردّ. بالكاد بدأت الكلام وغصة في حلقي. كنت شديد التأثر حتى إنني لم أستطع التعبير بشكل جيد في المستهل؛ ولكن في النهاية، جاء وقع كلماتي معبراً.

تبع ذلك عدة أغنيات. ثم قام مريض آخر، وهو الأستاذ، بالتحدث باختصار يختزل فيضاً من الشعور، ونيابة عن كل المرضى والعاملين. وحالما بدأ ضجيج التصفيق بالانحسار، بدؤوا يغنون أغنية الوداع، وراح الزورق

يبتعد ببطء وهدوء. لعل هذا كان الجانب الأعمق تأثيراً من تلك الأمسية: الزورق الأبيض يبتعد بتؤدة خلال الليلة الماطرة، بينما تتناهى أصوات صرخاتهم المتعالية إلى مسامعنا.أشبه بحلم من كونه حقيقة، لكنه واقع من المودة والاعتناء، ورابط من المحبة الإنسانية التي تربطنا جميعاً.

هذا الصباح قمنا بآخر زيارة لنا للمستعمرة. الآن وقد أدرك الأطفال بأننا لا نخشى العدوى، تجمعوا لوداعنا، داعين إيّانا لتناول حلقات الأناناس والسفرجل، بل إنهم قدموا لنا أناناستين لأخذهما معنا في الرحلة.

أما كبار السن فقدموا لنا النصح وطلبوا منا الانتباه إلى جذوع الأشجار المتكومة في النهر، فهي متشابكة بفعل النباتات المتعرشة وقد جرفها تيار النهر. ولو قدر للطوف أن يرتطم بإحداها لتحطم بكل تأكيد.

عدنا إلى المشفى ومن ثم إلى قسم غيرالمصابين . وبعد أن ودعناهم ووضعنا اللمسات الأخيرة على الطوف رسموا لنا شاخصة كتب على أحد وجهيها كلمة "مامبو" (وتعني خيزران) وعلى الوجه الآخر كلمة "تانجو" (وهو ضرب من الموسيقى)، وهكذا فقد أصبح اسم الطوف: مامبو تانجو.

كل فرد منهم أراد أن يقدم بنفسه لنا بعض الطعام. بذلك أصبح لدينا من المؤن مايكفينا شهراً بدلاً من عدة أيام. لدينا الزبدة والنقانق واللحم المعلب والدقيق والعدس والحمص وما شابه. كذلك حصلنا على قنديل ووقود لإضاءته وناموسية وبيض طازج وبابايا وقرط من الموز بل وأيضاً دجاجتين حيتين.

هذا الفيض من المشاعر الذي أظهروه لنا هيمن علينا و جعلنا كمن يدور حول نفسه وهكذا إلى أن أشار فيوزر، بأسلوبه الحاسم المعروف، قائلاً: " هيا يا ميال.التقط صورة وسنمضي في سبيلنا."

وهكذا التقطنا عدة صور ثم انطلقنا. قام كل من المدير وتشافيز، الذي بنى لنا الزورق، بمساعدتنا في تحريك الزورق وصولاً إلى وسط الماء. تبعنا روجر ومونتويا في زورق آلي كي يعيداهما معهم.

حالما و صلنا وسط الماء جربنا المجداف العمودي، الذي يخدم كلوحة توجيه، لنرى إن كنا سنتمكن من التعامل مع هذه الآلة، وحينما تمكنا منها عاد مرافقانا إلى الزورق الآخر.

طلبنا منهما أخذ صورة لنا معاً ونحن وسط النهر. وحينما أعادوا لنا آلة التصويرقاما بمعانقتنا واضعين قدماً في الطوف والقدم الأخرى في الزورق.

سرعان ما كنا نمر بالقرب من المصحة النفسية وكان الجميع يلوح لنا بيديه مودّعاً. أخيراً أصبحنا وسط نهر الأمازون بمفردنا ودونما عون من أحد.

كنا في حالة من فرط الحماسة لم نستطع خلالها أن نهدأ. وصرنا نتسابق مع إحدى جذوع الأشجار التي كانت قد تجاوزتنا. استمرينا نجدف لنصف ساعة تقريباً إلى أن خلفناها وراءنا ببضعة مئات من الياردات.

بشعورنا بالتعب، إنما بمزيد من الارتياح، جلسنا في ظل المأوى و رحنا نأكل كي نسلي أنفسنا؛ تناولنا البابايا والجبنة والنقانق والخبز دونما تنظيم. بعد ذلك ذبحنا إحدى الدجاجات وسلخناها وعلقناها في الظل كي نبقيها طازجة.

أثناء كتابتي الآن، فيوزر قد بدأ بتعليق الناموسية و إضاءة القنديل. أثناء الليل نحن بحاجة لأن نكون على مرأى للآخرين بما أننا سنعبر قريباً بالقرب من "تشيمبوته"- آخر الحاميات البيروفية- ولا نريدهم أن يخطئووا بنا على أننا مهربين ويمطرونا بوابل من الرصاص.

سأكتفي بما كتبت الآن إذ ينبغي علي مساعدة فيوزر، فقد ابتعد الطوف إلى اليسار و"تشيمبوته" على الجانب الآخر.

على متن الطوف "مامبو تانجو"، الأمازون 21 حزيران 1952:

ليلة أمس، ورغم التجديف المضني، بالكاد استطعنا تحويل الطوف نحو مجرى النهر. لدى ظهور الناموس الذي لا مفر منه تناوبنا العمل عشر دقائق لكل منا. فجأة ظهرت أنوار "تشيمبوته". حاولنا توجيه الطوف نحو المرسى لكن ذلك كان مستحيلاً. بعيد ذلك بدقائق اختفت الأنوار ولم تعرف حتى الحامية بذلك.

ومع انزعاجنا من ابتعادنا دونما حول ولا قوة، عاودنا المحاولة في أن نوجه الطوف نحو الضفة استعداداً لمخفر الحدود القادم. لم تجد محاولاتنا نفعاً، لذا استسلمنا وزحفنا تحت الناموسية طلباً للنوم.

استيقظنا لنجد أنفسنا وقد ارتطمنا بكومة من جذوع الأشجار على الضفة اليمنى من النهر. باستخدام المجاديف قمنا بدفع الطوف إلى مجرى النهر ثانية ومن ثم تحولنا إلى تحضيرالإفطار. كانت الساعة الثامنة تقريباً. كان لدينا بقعة من التربة الرطبة في مؤخرة الملجأ أشعلنا فوقها ناراً. وبينما تحولت إلى جمرات شربنا المتة وقذفنا الخيط الذي أعطانا إياه المرضى. ولدى انتهائنا من شرب المتة، لاحظت أن الخيط المجدول الذي يربط خيط الصيد إلى الطوف كان يتعرض للنتش، لذا بدأت أسحبه. في البداية لم يكن سحبه صعباً، ولكن سرعان ما استنجدت بـ "بيلاو" الذي كان على الجانب الآخر من الطوف يقوم بتقطيع الدجاجة.

بعد مقاومة استغرقت نحو عشرين دقيقة، تمكنا من انتشال السمكة. كانت من نوع السالتون الضخم و تزن نحو خمسة وعشرين باونداً. انتزعنا أحشاءها وعلقناها في الظل كي لا تفسد. بعد ساعة استطعنا رصد منزل ورغم ما كان لدينا من مؤن، إلا أن منظر المنيهوت الذي كان قربه جعلنا

نفكر بمدى لذته في الشواء. كان تيار النهر قد جرفنا نحو الشاطىء، لذا فقد كان الاقتراب من المنزل سهلاً.

بينما كنا نسحب الطوف، حاول فيوزر، وهو أقوانا، أن يثبّت الطوف بينما رحت أحاول القفز منه. في تلك اللحظة بالضبط انفلق الجذعان اللذان كانا يخدمان كمنصة للنزول وأصبحا متباعدين كطرفي الفرجار وكنت أضع قدمي الأولى على أحدهما ويديّ على الثانية. تقدمت بحركة كحركة السرطان إلى حيث نقطة التقاء الجذعين، بينما حاول "فيوزر" استخدام المجاديف لتثبيت الطوف. وأخيراً ألقى إلي بحبل الرسوّ المصنوع من النباتات المتعرشة وتمكنت من ربطه بإحكام إلى العمود.

بعد أن ذللت تلك الصعوبة البسيطة عدت وواجهت صعوبة أخرى تمثلت في كيفية جعل السيدة الهندية، صاحبة المنيهوت، تفهمني. بعد عدة محاولات محبطة آثرت مخرجاً عملياً لهذه الورطة. ملأت سلة بعدة نبتات من المنيهوت تساوي نحو سولين، وكوني قد تآلفت الآن مع البيروفية، عرضت عليها ثلاثين سنتاً. رفضت العرض فرفعت الثمن إلى نصف سول. وبما أنني قرأت في صمتها القبول، حملت السلة على كتفي.أفرغتها ثم أعدتها إليها ومن ثم تابعنا مسيرتنا.

على الفور وضعنا نبتتين من المنيهوت في النار لطهيهما وحضّرنا الدجاجة. كانت قاسية جداً، لذا قمنا بسلقها قبل القلي، وبعد ذلك أضفنا الحويصلات والرز والباستا والثوم إلى الحساء. ويا لها من مرقة تحيي العليل!

بعد الحساء استمرينا. قبل الغداء وكنوع من المشهيات تناولنا إحدى الأناناسات الضخمة. أكلناها بنهم، وبينما راح عصيرها ينزلق فوق لحانا الخفيفة لم أتمالك إلا أن أقول لفيوزر: "ما يقولونه إذاً صحيح حول أن الأسفار توسّع الذهن وتصقل أساليب المرء. انظر إلى نفسك! أي مثال رائع على ذلك!"

عندما تمكنا من كبح جماح الضحك، عدنا إلى الفاكهة من جديد ومن ثم ألقينا خيط الصيد مرة أخرى مستخدمين دهن الدجاجة كطعم.

لم أكد ألقي بالخيط حتى أفلت من يدي. لحسن الحظ كان مربوطاً إلى الطوف لذا أمسكت به ثانية وقمت بسحبه منادياً أرنستو الذي كان قرب المقلاة.

على بعد أقل من عشر ياردات من الطوف قفزت سمكة سالتون لارتفاع ليس أقل من ثلاثة اقدام من الماء. في الوقت الذي استطاع به بيلاو الحضور لمساعدتي، لم تكن السمكة تسحب الخيط بعد. عندئذ أدركت انها قد أفلتت آخذة الصنارة معها، والتي لايقل وزنها هي الأخرى عن باوند ونصف، إضافة إلى خيط البناء الثقيل الوزن.

كان الغسق يتقدم بسرعة وتيار النهر يمضي بقوة لذا ارتأينا من الأفضل تناوب المراقبة ساعة لكل منا. كنا في طور الاستعداد حينما عرفنا فجأة أن الطوف يتجه مباشرة و سريعاً صوب شجرة قد انتصبت وسط الماء. جدفنا بسرعة و بجهد كبير كي نتجنب الشجرة و أفرعها، لكن الحال بقي فيما يبدو بأننا نتجه نحو الارتطام ما قد يحدث ضرراً بالغاً في الطوف. ربض فيوزر على الحافة الأمامية للطوف بينما كنا ندنو من أحد الأفرع الضخمة للشجرة. أمسك فيوزر به و اتكأ مواجهاً له كي يكبح حركتنا. في هذه الأثناء نجحت في استخدام أحد المجاديف كرافعة، فأثمر جهدنا المشترك في إبعاد الطوف عن مجال الخطر.

خلال حالة الاهتياج، وبسبب الضرر الذي أحدثه ارتطام بعض الأغصان بسقف ملجأ الطوف أفلتت الدجاجة المتبقية و قفزت إلى الماء أثناء مطاردتنا لها. حدقنا ببعضنا و لوهلة ترددنا. ربما كان الضوء الخافت أو حالة الإرهاق فينا أو سرعة الطوف- لا أدري، ولكن في لحظة من التذبذب و التردد خسرنا الدجاجة وقد اختفت عن أنظارنا بسرعة البرق حقاً.

إنها الحادية عشرة والنصف الآن. فيوزر يشخر. الطوف يجري متقدماً بهدوء تحت قبة السماء الزرقاء التي كادت أن تبدو فضية اللون لكثرة ما فيها من نجوم. وهاأنذا منكب على الكتابة وإلى جانبي القنديل و قد فزعت عني عين متيقظة لأي ظل مريب أو جذع شجرة نصف مغمور في مياه النهر.

ذهني يتجه صوب الوطن، وأنا مستعد لأن أقدم أي شيء مقابل أن أكون بين أهلي الآن فقط لأخبرهم عن مدى سعادتي. أعتقد أن علي أن آخذ معي بعض المال إلى الوطن كي أؤمن بعض العون المادي. بالطبع كنت أستطيع جمع المال في الأرجنتين، ولكن علي أن أوفق بين حماستي للسفر ورغبتي في المساعدة، وما الذي يمنع من قيامي بالأمر على هذا النحو؟

نهر الأمازون، 22 حزيران 1952:

هذا الصباح وجدنا أنفسنا في منطقة برازيلية. لقد تجاوزنا بلدتي "رامون كاستيلا" و"ليتيشيا" خلال ساعات الصباح الأولى؛ ربما في الثانية صباحاً.

أثناء نوبات المراقبة كلانا رأى أنواراً خافتة على الشاطئ. رغم ذلك، ولكون البلدتين ميناءان حدوديان، اعتقدنا أن فيهما أضواء كاشفة أو ما يجعلهما بارزتين؛ وبأية حال كنا على يقين من أنه إذا لم يتوقف طوف أو أي زورق، فإنهما سيرسلان قارباً للتحقق من الأمر.

بأي حال من الأحوال، عندما رأينا منزلاً توجهنا إليه وسألنا متى يمكننا بلوغ " ليتيشيا ". أُبلغنا بأنها كانت وراءنا بمسيرة ساعتين وأننا الآن في البرازيل. رسونا عند هذا المنزل، وببرتغاليتنا المكسرة، نجحنا في التوصل إلى تفاهم يمكننا من خلاله ترك الطوف بعهدة الرجل وأن يقلنا عائدين في

زورق مصنوع من جذع شجرة عبر النهر. وكم كنت مسروراً أصلاً بحيثيات رحلة غير مسبوقة كهذه.

دعتنا العائلة لتناول الطعام وأعطيناهم الأناناسة المتبقية لدينا و قرطاً شبه كامل من الموز وعدة زجاجات من زيت الوقود، ما من شأنه أن ينفعهم. كان هؤلاء الناس يعيشون في حالة يرثى لها. وكانوا مبتلين بداء الأنسيلوستوما (فقر الدم الناجم عن الطفيليات)، وعرضة للمضايقة من حشرات شبيهة بالبعوض. معظمهم كان يعاني فقر الدم، الأمر الذي جعلهم كسالى وفاتري الشعور. لم يكونوا أكثر من خيالات لأبناء آدم.

"ليتيشيا"، 23 حزيران 1952:

مغامرة اليوم كانت متعة حقيقية. فلأكثر من خمس ساعات كنا نبحر في الأمازون داخل قارب هندي مصنوع من جذع شجرة. كانت الساعة الأولى قاسية، ولكن بعد ذلك بدا أن الجهد المبذول أصبح أقل حجماً.

بما أن الحركة كانت بطيئة، فقد تمكنت من النظر إلى ما حولي ورؤية قطعان من القردة الصغيرة التي كانت ترقص على قدم واحدة بين الأشجار. نحو الساعة الواحدة تناولنا سمكة صغيرة وبعضاً من نباتات لسان الحمل المقلية و حبة من البابايا. بعد ذلك وخلال وقت قصير تابعنا مسيرتنا والبرازيلي يجلس في المؤخرة وأنا في وسط القارب وفيوزر عند القوس الأمامي. غادرنا نحو الساعة التاسعة ووصلنا "ليتيشيا" في الثالثة بعد الظهر.

حالما أصبحنا فوق التراب الكولومبي اتجهنا إلى الشرطة، ومن ثم إلى ثكنة الجيش، وأخيراً إلى شرطة الجمارك حيث شرحنا لهم كيفية وصولنا. ختموا لنا أذونات الدخول في جوازات سفرنا موضحين فيها أننا نزلنا من طوف، وكانوا قد أخطأوا بتهجئة كلمة طوف. سوف أحاول الاحتفاظ

بجواز السفر هذا، ليس بسبب تلك الغلطة الغريبة، وإنما لأن الأمر يظهر طريقة مثيرة في دخول إحدى البلدان، وهذا ما سيشكل لي تذكاراً جميلاً.

بعد قليل من المفاوضات، نجحنا في تدبر مكان نقيم فيه في مقر الشرطة و كذلك وجبة طعام في مخفر الشرطة. أحضرنا حوائجنا من الميناء وذهبنا إلى المكان الذي سنقيم فيه. حتى هذه الأثناء كان الترحيب بنا فاتراً، ولكن ربما سيتحسن مع مرور الزمن.

البلدة صغيرة وتتكون في معظمها من موظفي حكومة وشرطة جمارك وجنود.

لعل ما يسترعي التفكير هو حجم الدماء التي أريقت من الجانبين الكولومبي و البيروفي في الاقتتال على هذه البقعة الصغيرة من الأرض، ولعل الأفدح هو أن كل جانب يعتقد أنها تستأهل ذلك.

"ليتيشيا"، 24 حزيران 1952:

ليلة أمس نمت بعمق شديد، لكنني استمريت في التجديف. كنت مستمتعاً بالطيور وريشها الرائع، ومعجباً باشجار النخيل النحيلة والألوان المرهفة للفراشات. باختصار؛ لقد عشت تلك اللحظات التي لا تنسى في أحلامي من جديد.

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبنا للقاء العقيد المسؤول عن الحامية المحليّة وعدد آخر من الضباط. كانوا خشنين جداً ولم يكن لديهم أية كتب أو مجلاّت، بل أيضاً كانوا غير قادرين على تحمّل مناقشة عادية. حالما فسح لنا المجال تعجلنا في المغادرة.

"ليتيشيا"، 25 حزيران 1952:

التقينا اليوم أحد الأطباء المحليين. إنه شخص واسع الذهن كثيراً. أجرينا حواراً شيّقاً معه. إنه يتولى بعض الإصلاحات التي أُدخلت على

المشفى الجديد. يبدو أنه مهتم بكل شيء. أثناء وجودنا معه، تطرّق إلى سلسلة من المشكلات بدءاً من الإدارة وأسلوب البناء، وصولاً إلى النجارة، معبراً عن قلقه حيال قضايا المشفى برمتها.

بعد الظهر ذهبنا إلى الميناء في محاولة لاستبدال السولات ببيزوات كولومبية مع مركب متجهة إلى البيرو. يبدو أن شهرتنا كانت تسبقنا، فبعض البحّارة و عمال الجمارك أبلغونا بأن الضابط الأول في المركب "سيزنه" كان قد أخبرهم عن عالمين يقومان بجولة على كافة مصحّات الجذام في العالم.

تلك الأمسية قام أحد مدراء نادي كرة القدم المستقل بزيارة لنا. أي مرتّب سنطلب لقاء تدريب فريقه؟ أخبرناه بأن ليس بإمكاننا الاتفاق على مرتب إذ لا نعلم كم المدة التي سنمكث فيها هناك، وأننا مع ذلك سنقوم في الغد بزيارة لأرض الملعب، وبناء على ما سنقوم به ومدى نفعه، يمكنهم حينئذ أن يدفعوا لنا حسب ذلك.

من مختصّين في الجذام إلى لاعبيّ كرة قدم

"ليتيشيا"، 26 حزيران 1952:

في الخامسة من هذا الصباح، وكانت الشمس قد أشرقت أصلاً، ذهبنا إلى ملعب كرة القدم. لم يكن لدى اللاعبين سوى القليل من مهارة التحكم بالكرة، لكنهم كانوا مطيعين ولا يعرفون الكلل. نمط لعبهم كان يشبه ذاك الأرجنتيني في الثلاثينات؛ حارس المرمى ثابت في مرماه، والمدافعون في منطقتهم، ولاعبو الوسط يجرون في كل أنحاء المكان.

أعطيناهم بعض الإرشادات ضمن إشارات واضحة، وبعد نصف ساعة من الممارسة، لعبنا مباراة بالمدافعين مقابل المهاجمين، وكانوا مذهولين بنتائج الإشارات. كانوا بحاجة إلى مباراة تدريبية لإطلاعهم على كيفية الربط بين الدفاع والهجوم.

في طريق عودتنا قمنا بزيارة لمنزل أحد اللاعبين، ونظراً لعدم وجود ما هو أفضل، استعرنا كتابين في الجغرافيا وتاريخ كولومبيا كي نقرأ بهما في السرير.

"ليتيشيا"، 27 حزيران 1952:

ليلة أمس دعانا أحد الملازمين في قيادة الحامية لتناول بضع زجاجات من البيرة. كان الشراب قد أثر عليه وحرر عقدة من لسانه فبدأ

يقص علينا مجموعة من القصص عن نضال الفدائيين. وحسب ما خلصنا إلى فهمه مما روى، أن الحكومة تحاول إيهام الناس بأن ما يجري في السهول، وهي في الحقيقة حرب فدائية بلغت من العمر عقداً من الزمن، ليس إلا مجرد حالة من الفوضى.

روى لنا إحدى تجاربه الذاتية حينما كان رقيباً وتعرضت حاميته للهجوم. دام ذلك الحصار عشرة أيام وحدث تبادل كثيف في إطلاق النار أسفر عن مقتل عشرة أشخاص وجرح عشرين آخرين. وقد أصيب هو بالذات برصاصتين. وفي "بوجوتا" يعتقدون بأنه قد قتل، لا بل حتى إنهم يستغلون امتيازات الشرف التي نالها غيابياً. لقد أكسبه "عمله البطولي" ترقية ويبدو أن هذا قد جعله يفرط في غروره.

هذا الصباح أجرينا جولة تدريب أخرى مع اللاعبين. يبدو أنهم مهتمين بالتدرب بشكل كبير. نحن نحاول إدخال بعض الأساليب الجديدة. الدفاع كان يبدي ممانعة في التحرك خارج منطقتهم خوفاً من أنهم بذلك سيكشفون حارس المرمى. الأمر يكون سهلاً عندما يكون فيوزر في حراسة المرمى، لأنه يصرخ موجهاً إياهم نحو أماكن توضعهم، و من الذي عليهم مراقبته من اللاعبين، أما حين يكون حارس المرمى النظامي في مكانه، يكون اللاعبون أقل شعوراً بالارتياح.

فيما بعد توجهنا إلى المشفى حيث عاينا بعض حالات الملاريا. وهذا المساء اجتمعنا مع بعض اللاعبين وتحدثنا عن كرة القدم وبعض الخطط واستمر حديثنا إلى ما قبل الآن بقليل.

"ليتيشيا"، 28 حزيران 1952:

اليوم هو السبت. بعد إنهاء الجولة التدريبية خرجنا في نزهة سيراً على الأقدام. عبرنا الحدود الكولومبية ودخلنا البرازيل.

عثرنا بالمصادفة على مزرعة أحد الفلاحين واسعي الحيلة والذي قام، وخلال ثمانية أشهر فقط، بتحويل قطعة الأرض الممنوحة له من قبل الحكومة إلى مزرعة نظامية وقد كوفئ على ذلك بثلاثة آلاف بيزو كولومبي. إنه في طريقه الآن للشروع في استثمار خشب الغابة المحيطة وإن يكن ذلك بسبلٍ بدائية إلى حدٍ ما. دعانا للعودة إلى مزرعته وتناول الغداء يوم الأحد.

بعد ظهر اليوم قمنا بزيارة سفينة تجارية كولومبية تنقل حجارة أرصفة كانت قد جنحت إلى الشاطئ . قيمتها كانت تساوي عدة ملايين من البيزوات، وكل ما كانت بحاجة له هو بناء معبر خشبي كي يصبح تفريغ شحنتها ممكناً. و بمعزل عن كون السفينة متروكة لتتحطم وتغرق ببطء، فالحكومة تدفع أجراً — ومن أموال الشعب طبعاً — لطاقم يتجول بين الحانات على رصيف الميناء. لقد كان لي تعليقي على هذا القصور من جانب الحكومة. أما أرنستو، الذي لا تفوته فائتة، فقد علّق بالقول: "ألا ترى في ذلك استعراضاً للقوة من قبل كولومبيا مقارنة بالبرازيل أو البيرو؟"

ربما كان مصيباً في ما قال.

"ليتيشيا"، 29 حزيران 1952:

بعد ظهر اليوم ستجري بطولة دوري ليوم واحد، لذا لعبنا مباراة تدريبية هذا الصباح ضد فريق أفضل من فريقنا بكثير. كان فيوزر حكماً، وكنت أنا المدرب. إننا نسمي المدرب: "المعلم"، لكن الكولومبيين يسمونه بنفس التسمية الإنجليزي، أي المدرب.

خلال الشوط الأول بشكل عام لعب الفريق بشكل جيد، ولا سيّما الدفاع الذي استخدم الإشارات التي تدربنا عليها بشكل جيد. أما لاعبو الهجوم فكانوا عديمي الفائدة إلى حدٍ ما، ولكن ليسوا جميعاً بهذا السوء. وجاءت نتيجة الشوط الأول التعادل صفراً لصفر. في الشوط الثاني تفرقنا،

وعلى الرغم من صرخاتي وإشاراتي، فقد تعرض خطا الدفاع والوسط للتطويق وتم تسجيل هدفين في مرمانا.

لو كان للفريق أن يكون أفضل حالاً بعد ظهر اليوم، فسوف يتعيّن عليّ أنا وفيوزر أن نشارك في المباراة — هو لقيادة الدفاع، وأنا لإبعاد الكرة إلى المقدمة بما يكسب المهاجمين فرصاً أكثر. سنرى.

إنها العاشرة مساء الآن، وأنا أنقع قدميّ في سطل من الماء الفاتر.

بعد مباراة هذا الصباح سار يومنا على النحو الآتي: منتصف النهار ذهبنا إلى البرازيلي. ولوصولنا مبكرين، جئنا على ذكر كم كان مغرياً أن نهيم في الغابة دون أن نلتزم الطريق. "جولينو"، كما يطلق عليه، أرانا شجرة نتأت جذورها في الهواء وتعشقت بالجذع، حتى إذا ما ضُربت بأحد الأغصان أصدرت صوتاً كالطبل.

قال: "اذهبوا واستكشفوا، وإذا تُهتم نادوا عليّ بهذه الطريقة فسآتي وأجدكم" .

قبلنا اقتراحه، وحينما انطلقنا قلت لـ بيلاو: "يبدو أننا عرضة لأن نتيه."

مشينا لعشرين دقيقة والتقطنا صوراً لبعض الأشجار الضخمة . وعندما شرعنا في العودة سلكنا طريقاً كنا نظنها تؤدي بنا إلى المنزل، لكننا اكتشفنا بأنها لم تكن الطريق ذاتها. لذا قررنا أن نعيد اقتفاء آثار أقدامنا.

عندما رأينا شجرة " أناكاهويتا "، وهو اسم الشجرة ذات الجذور الغريبة، حملنا عوداً وجعلنا نطرق على الجذع لعدة مرات. مرت عشر دقائق من الزمن – و كأنها دهر – ومن ثم ظهر جولينو من طريق جانبية، وابتسامة عريضة قد ارتسمت على محيّاه.

عدنا أدراجنا إلى المنزل ونحن نتحدث عن مدى سهولة أن يتيه المرء في هذه الغابة. في المنزل كان هناك الكثير من البرازيليين من الشبان

والشابات. وقام موسيقيان على آلة الجيتار بعزف السامبا البرازيلية والبورو الكولومبي والفالس البيروفي.

جلسنا للغداء، وكانوا يقدمونه بشكل شبيه بالهنود ؛ أي كل الطعام الجامد يُوضع على أوراق لسان الحمل على الأرض، أما الحساء والشراب فيقدّم في أوان تدعى الـ "توتوما"، وهي شبيهة بقرعة المتة الكبيرة، لكنها تأتي من الشجر وليس كما في الأرجنتين حيث تأتي من نباتات زاحفة. بعض أواني الـ "توتوما" كانت بحجم برتقالة، وأخرى أقرب إلى القرع، وهذه الأخيرة تستخدم لتقديم الحساء.

كان هناك الكثير من حساء الغرغر[1]، أو ربما أحد الطيور المشابهة إنما بريش أبيض اللون. كان لذيذاً وتناولناه بنهم شديد. قدموا لنا المازاتو أيضاً، ولكن مادمت لم أنس طريقة تحضيره، فلم ألتفت حتى بمجرد النظر إليه. بعد ذلك كسروا حبتين من جوز الهند وسكبوا فيهما براندي قصب السكر، وظهر أنه الشراب الأكثر قبولاً. بعد غدائنا اللذيذ هذا استأذناهم في الانصراف حيث كان يتعين علينا العودة لأجل بطولة كرة القدم.

بدأت المنافسات في الساعة الرابعة بدوري كروي مدة كل مباراة فيه عشرون دقيقة مع استراحة لخمس دقائق بين الشوطين. ولعبت فرق الدور النهائي شوطين بواقع ثلاثين دقيقة للشوط وكسبنا مبارتينا، الأولى اثنان لصفر وقد سجلت هدفاً بعد خمس دقائق، لكني كنت لا أزال أشعر بالتخمة من الغداء لذا استمريت في تمرير الكرات إلى زملائي في الفريق. في اللعبة الثانية لم يسجل أحد هدفاً وذلك بفضل وجود بيلاو في المرمى. وباعتبار أننا كسبنا ثلاث ركلات ركنية وواحدة علينا فقد فزنا بالجولة.

في المباراة النهائية سطع نجم كل منا أنا وبيلاو، ومع أن الفريق الآخر قد وضع لاعبين لمراقبتي، إلا أنهما لم يتمكنا من انتزاع الكرة مني، وكنت أمررها دائماً إلى اللاعب الأفضل موقعاً في الملعب، لكن ثلاثة من هذه

---

(1) الغرغر : طائر أفريقي كبير رمادي الريش و مرقط. – المترجم .

التمريرات لم تفض إلى هدف رغم أنها كانت من المفترض أن تُسجل أهدافاً.

صفق الجمهور كثيراً وقد أطلقوا علي لقب " يدرنيرا الصغير" كاسم مستعار، الأمر الذي لا زلت أعتز به. لكنني أظن أن فيوزر كان البطل الحقيقي بعد ظهر اليوم، ليس لتحدياته فحسب وإنما لأسلوبه في قيادة المدافعين . فبدونه لا أقل من هدفين أو ثلاثة كانت ستسجل في مرمانا.

لأن اللعبة انتهت دون تسجيل أهداف، وبما أنها كانت النهائية، فقد لجأنا إلى ركلات الجزاء الترجيحية. من أصل ثلاث ركلات جاءت أولها كقذيفة المدفع واستقرت في المرمى، والثانية ذهبت خارج المرمى أمّا الثالثة فقد صُدّت ببراعة. كانت محكمة وتتجه مباشرة نحو الزاوية اليمينية العليا، ولكن وبحركة تكاد لا تصدق لامسها بيلاو بقفزة مبعداً إياها خارج العارضة.

ركلاتنا تولاها وسطنا المتقدم وقد أخطأها جميعاً. ورغم مجيء فريقنا في المركز الثاني، كنا الأبطال الحقيقيين هذا اليوم، وقد أُعجب الجميع بالنادي الرياضي بعد بضعة أيام فقط. لقد أدرك الناس أن هذا النجاح لم يكن بفعلنا فقط، بل بسبب تطبيق الأساليب الجديدة والفعالة.

وقد تعهدّنا بدورة تدريبية ليوم غدٍ مع أي أحد يريدها.

"ليتيشيا"، 30 حزيران 1952:

هذا الصباح، وبعد مساومة طويلة ومرهقة، بعنا قنديل الطوف بثلاثة بيزوات إلى أمين الفوج البحري. بعد ذلك ذهبنا كي نغسل ثيابنا في النهر.

كما وعدنا في الأمس، فقد أجرينا بعد ظهر اليوم جولة تدريبية. في نهاية اللعبة، وعندما كانت الراية على وشك الإنزال، بدأ أرنستو، الذي أصيب بكرة على ركبته التي كانت مصابة ذات مرة، بدأ يبحث عن قطعة

ورق كي يوقف بها نزيف الدم. لم تكن الراية قد أنزلت بالكاد حتى اندفع العقيد إلى وسطنا وقام بتوبيخ (فيوزر) بمنتهى العدوانية لأنه كان يتحرك خلال مراسم إنزال الراية. انتابني الخوف لدقيقة من أن يقوم (فيوزر) بالردّ إذ كان هذا من عادته، وقلت في نفسي: "وداعاً كولومبيا". لكن آرنستو امتصّ غضبه ولم ينبس ببنت شفة. إنه يفعل الشيء الصحيح دائماً.

"ليتيشيا"، 1 تموز 1952:

وصلت الطائرة اليوم ومعها برقية تفوّض كلانا السفر بتذكرة واحدة. بعد الظهر تسلمنا أجور تدريبنا والتي كانت أربعين بيزو كولومبياً بدلاً من ثلاثين.

قمنا ببيع ما تبقى لدينا من طعام كنا نحمله معنا في الطوف إلى أمين الثكنة. بما أنه كان يعلم برحيلنا، أعطانا خمسة عشر بيزو مقابل ما كان قيمته أكثر من خمسين.

بوجوتا – مدينة تحت الحصار

"بوجوتا"، 2 تموز 1952:

اليوم جربت إحساساً جديداً: إنها أول رحلة لي بالطائرة. بالشكل الطبيعي، ينبغي لها أن تكون أمراً خارجاً عن المألوف، كذلك أول ظهور لي كمسافر في الجو على متن طائرة شحن بحرية، وهي برمائية بمحركين من طراز "كاتالينا" وعمرها عدة عقود.

بحلول الساعة السابعة صباحاً كنت وآرنستو في مكان متميّز بين أكياس البريد وملابس الجند ورزم المطاط الخام. سرعان ما بدأت المحركات بالهدير. كنت متحفزاً وشديد التوتر، كيف سيكون ردّ فعل معدتي، يا ترى؟!

بدأت الطائرة تزلجها فوق مياه النهر. كانت هناك ريح خلفية قوية، لذا تعين على الطائرة القيام بعدة محاولات إلى أن ارتفعت أخيراً في الهواء. وصرت أراقب النهر والأشجار وهي تبتعد عن ناظري إلى الأسفل. كنا نطير، ولم يمض سوى وقت قليل حتى أصبحنا على ارتفاع عشرة آلاف قدم.

حلقنا فوق الغابات لثلاث ساعات. كان كل شيء يبدو في الأسفل كحقل قرنبيط. لم تنقطع الخضرة سوى أحايين قليلة لتبرز فيها تيجان أشجار البوكار.

الأنهار بدت كالمتاهات، حيث كانت منحنياتها تنفصل في شبكة عنكبوتية من الروافد، ومع انقشاع الغيوم ظهرت الشمس في مشهد غاية في الإثارة. كانت الغابة مغطاة بالمياه بشكل جزئي. وكان انعكاس أشعة الشمس على البحر المتخفي في ستار من الخضرة المتشابكة منظراً لازمنا وكأنه قرص ذهبي دوّار.

بعد ثلاث ساعات من الطيران رأينا الطائرة تطوي زلاجتيها للأعلى نحو الجناح وتُنزل عُدّة الهبوط. كنا نقترب من (تريس إيسكونيا).

خرجنا، وكان يلمّ بي ألم مبرح في ركبتي اليسرى تسبب به الضغط خلال بضعة الأيام الأخيرة على إصابتي الغضروفية، لذا بقينا قرب الطائرة.

بعد إعادة ملء الطائرة بالوقود تابعنا الرحلة، وما هي إلا نصف ساعة حتى وصلنا الجبال، كان حاجب الغيوم كثيفاً لذا ارتقت الطائرة إلى ارتفاع أربعة عشر ألف قدم. لوهلة كنا نطير داخل الغيوم، وكانت الطائرة ترتجّ بشكل مثير ما حفّز فينا روح البهجة، وحال وصولنا لمنطقة هضاب منخفضة تركنا الغيوم وراءنا وعادت الطائرة تحلقّ بسلاسة وثبات من جديد. حلقنا فوق سلسلة قصيرة من الجبال المنخفضة الجرداء وفي النهاية وصلنا إلى السافانا.

في البداية تبعنا مجرى نهر "المجولية" الذي كان مألوفاً لدينا لما قرأناه عن أنهار أمريكا الجنوبية. بعد ذلك انفصلنا عنه واتجهنا نحلقّ عبر السهل المكتسي لوناً واحداً من الخضرة، والذي لا يقطع لونه سوى الندوب التي رسمتها الطرق الممتدة فيه.

في الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم وصلنا (مدريد)، وهي مطار عسكري على بعد نحو عشرين ميلاً خارج (بوجوتا)، هبطنا بعد عدة مناورات تعين علينا القيام بها بسبب الرياح القوية. من هناك أقلتنا شاحنة عسكرية صوب (بوجوتا). وبعد أن تركنا عدّتنا في مستودع للقوات المسلحة الكولومبية، توجهنا إلى سفارة الأرجنتين، حيث كان القنصل في

لقائنا، وكان شخصاً محترماً ولأول مرّة. فقد عاملنا بشكل جيد وأعطانا رسائل من أهلنا وأمنّ لنا مأوى في حرم الجامعة.

تنتابني الآن موجة هستيرية من السعادة. إننا في (بوجوتا)، ولدينا بيزوات كولومبية كسبناها في عمل لا يخطر لك على بال: كمدربي كرة قدم. ولعل الأجمل في كل ذلك كان رسائل الأهل التي أفادت بأنهم بخير وعلى ما يرام وسعيدون لسماعهم أنباء مغامراتنا وكيف مضت بنا على نحو مريح نسبياً. إنني سعيد وأشعر بالثقة في أن لا غيوم في الأفق.

بعد وداع القنصل انطلقنا إلى حرم الجامعة. كان يقع في ضواحي العاصمة وتحيط به حديقة جميلة. كانت قاعات الطلاب منتظمة في بناءين عند المدخل. على مجنبتي الرواق الرئيس اصطفّت الكليات المختلفة وكل واحدة تسورّها الأشجار وحدائق الزهور. يصل المرء آخر المطاف إلى الملعب وإلى جانبه مكتب رئيس الجامعة.

قابَلَنا رئيس الجامعة الذي استطاع أن يقدم لنا الوجبات دون المنامة، إذ أن الغُرف بأكملها كانت مشغولة من قبل باحثين من اليونيسكو. بعد ذلك خرجنا للتعرّف على المدينة. تقع (بوجوتا) على ارتفاع عشرة آلاف قدم عن سحطح البحر. على جانبيها سياج من التلال الجرداء التي تمنح المكان هواءً غريباً إلى حدٍ ما.

مركز المدينة في معظمه يقطنه سكان مستعمرات. الأرصفة ضيقة والشوارع أضفت علينا الأبنية المرتفعة لوناً من العتمة. من الواضح أن عدد السكان قد ازداد بشكل أكبر مما تستوعب المدينة، فحركة السير خانقة، لكن أكثر الأمور التي تدعو للدهشة هو عدد رجال الشرطة المسلحين والذين يملأون المكان. يمكن للمرء أن يشعر بعدم إحساس الحكومة بالأمان، والحق أن الجو في هذا الجزء من كولومبيا لا يروقني على الإطلاق.

"بوجوتا" 3 تموز 1952:

بعد ظهر أمس، وأثناء السير في الحديقة خلف سكن الطلاب، التقينا بالمصادفة مجموعة من الشبّان الذين يلعبون كرة القدم، طلبنا الانضمام إليهم ولعبنا لبعض الوقت، أمّا الركض فكان بالنسبة لي معاناة إذ كنت أتلقط الأنفاس لاهثاً ولعل السبب في ذلك كان ارتفاع المكان عن سطح البحر، أمرٌ لا يصدق فعلاً كيف تتعب حقاً من ضيق التنفس وقلة الهواء إذا لم تأخذ بعض الوقت كي تعتاد على ذلك بالتدريج.

اتضح أن اللاعبين كانوا مجموعة من عمال أحد المصانع القريبة. تحدثنا معهم حول كرة القدم وأخبرناهم عن مغامراتنا التي عشناها على مدى الرحلة. بعض قصصنا كانت بالنسبة لهم من الطرافة أن جعلتهم ينقلبون من الضحك، لكنهم كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأن بعضاً من تلك المغامرات لم يجد سبيلاً إلى التصديق لديهم.

عند المساء ودَّعناهم وذهبنا لتناول العشاء في مقصف الطلاب. لأول مرة منذ أسابيع جلسنا إلى طاولة جُهّزت بشكل متناغم مع التقاليد المتحضرة. كان العشاء جيداً، إلاّ أن شيئاً واحداً كان غريباً وهو أنهم يبدؤون بتناول الفاكهة الطازجة أو عصير الفاكهة المشكلة، ومن ثم تتبعها أطباق المقبلات.

بعد العشاء شعرت بالتعب الشديد، تبدى لي أننا بغضون أربع أو خمس عشرة ساعة قد انتقلنا من الغابة الاستوائية على مستوى سطح البحر إلى السهل العلوي لجبال الآنديز، من الحياة الريفية البسيطة لحوض الأمازون على الجو المدني البالغ التعقيد، يا لها من طريقة تستغل بها يومك على أفضل وجه.

تركنا وراءنا الضوء والدفء في قاعة طعام الطلاب كي نبحث عن مكان ننام فيه. كانت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً، ما جعل الليل، بعد يوم

محموم، أكثر متعة إذا ما خلدت فيه لنوم عميق. إلاّ أنه سرعان ما تعيّن علينا أن نجد ما هو أهمّ، ألا وهو مكان نسند إليه رؤوسنا.

عدنا أولاً إلى ثكنة الجيش حيث تركنا بطانياتنا، كل شيء كان مغلقاً بإحكام، ذهبنا إلى عدة مراكز للشرطة — وكان هناك مركز في كل حي تقريباً، لكننا عوملنا بوقاحة وقوبل طلبنا للمأوى بالرفض في كل الأمكنة، وبعد محاولة فاشلة للنوم في إحدى محطات الوقود، انتهى بنا الأمر إلى مشفى (سان جوان دي ديو)، كان منتصف الليل قد حل، بوعد إقناع الحارس بالسماح لنا بالدخول، التقينا الطبيب المناوب، كان مخموراً لدرجة الخبل، بادئ الأمر شكك في أمرنا وبأننا زملاء له، ولكن بعد ذلك، وبدماثة المخمورين، عرض علينا أفضل ما لديه: كرسيين، بعد اعتذاره عن عدم تمكنه من تقديم ما هو أفضل، مضى لينام ملء جفونه عن شواردها.

حنينا رؤوسنا نائمين على الكرسيين حتى السادسة صباحاً، خرجنا لتناول الإفطار، بعد ذلك ذهبنا للقاء الدكتور (مالدونادو) الذي كنا نحمل له رسالة تعريف بنا من الدكتور (بيسين). كان الدكتور (مالدونادو) ودّياً في لقائنا. عرّفنا إلى الدكتور (سيرانو) رئيس حملة مكافحة الجذام والذي وعد بدوره بمنحنا الإذن بالنوم في مشفى (سانتا كلارا)، ما أوجب علينا العودة في الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم لأخذه.

من هناك ذهبنا إلى نادي (ميلاناريو) لكرة القدم لنسلّم على بعض اللاعبين الأرجنتينيين. وجدنا (بانيجا) وألححنا برغبتنا في الحصول على تذاكر لحضور مباراة الأحد بين (ميلوناريو) (وريال مدريد). وقد تظاهر بأنه لم يفهم.

عدنا إلى الجامعة لتناول الغداء. وأثناء الطعام علّقنا لشركاء الطاولة على العدد الكبير من رجال الشرطة الموجودين في حرم الجامعة. أخبرونا وبقدر كبير من التحايل أن إضراباً قد حدث في الجامعة وأن الحكومة منعته بوحشية، وأن الشرطة قد تصرفت بمنتهى القسوة.

بعد الغداء توجهنا إلى مركز المدينة. بمرورنا في بقعة أرض مفتوحة معشوشبة، لم نستطع مقاومة الإغراء فاستلقينا لأخذ وجبتنا الأساسية إذ أنَّ نقص النوم في الليلة السابقة تركنا في حالة من النعاس. نمنا، ولكن سرعان ما اضطرتنا زخة من الرذاذ أن نهجر مضجعنا، والاحتماء في مدخل أحد المنازل لحين توقف المطر. وجدنا حديقة صغيرة فيها بضعة مقاعد. تمددت ونمت بينما راح (آرنستو) يكتب يومياته.

عندما استيقظت، قررنا الذهاب إلى القنصلية الأرجنتينية. نظراً لحالة التيه التي كنا بها، خطرت لنا الفكرة المشؤومة أن نسأل أحد رجال الشرطة عن الاتجاهات. بعد ذلك بدأ هذا الأخير بتعقبنا دون أن نشعر به. وبعد بضعة أرتال من الأبنية، إذْ لم نعتمد أي طريق سنسلك، استلّ (فيوزر) مديته التي كانت فتاحة رسائل أكثر من كونها مديةً، وبدأ يتتبع خارطة على جدار. عندئذٍ اقترب الشرطي منا، ومن الواضح أنه كان معجباً بذلك الخنجر الصغير، وقام بمصادرته.

بعد جدال لم يدم طويلاً قررنا مرافقته كي نستعيد المدية. لم نكد نقطع شارعاً حتى قرر الشرطي أن يفتشنا بحثاً عن سلاح. ولدى تفتيش (فيوزر) عثر معه على حبوب الحساسية.

"احذر!" قالها فيوزر بشيء من الغضب وشيء من السخرية، "إنه سمّ زعاف".

لماذا اضطر لأن يقول له ذلك، لست أدري. أُخذنا إلى مركز شرطة. كان العريف المناوب منهمكاً في لعب النرد مع ثلاثة رجال شرطة آخرين. اجتهدنا كثيراً في جعلهم يفهموننا، لكن دون جدوى. في النهاية، وبمزاج سيئ، اتهمنا العريف بأننا نسخر من الشرطة الكولومبية. أنكرنا ذلك بالطبع، ونشب جدال حاد. حاول العريف إنهاءه بترهيبنا، لكننا قلنا له أن يكف عن الصراخ، ويعيد المدية لنا.

لحسن الحظ وصل الرقيب، وكان أقل حماقة بكثير من الآخرين. أدرك مدى سخف الأمر برمّته وطلب منا الذهاب والمطالبة بالمدية في إحدى مراكز الشرطة الرئيسة، وأعطانا العنوان.

بعيد إطلاق سراحنا ذهبنا لمقابلة الدكتور (مالدونادو). أخبرنا بأنه لم يستطع تأمين إقامة لنا في مشفى (سانتا كلارا)، لكنه كان سيحاول تأمين مأوى لنا في معهد ليراز، وهو عيادة لمكافحة الجذام.

هذا اليوم أمضيناه النهار بأكمله في محاولة الحصول على تصريح دخول إلى (فنزويلا). أمّا المساء فقد قضيناه في مناقشة قانون الجذام الذي يسمح للأفراد المصابين وهم في طور العدوى بطلب المعالجة الخاصة غير النظامية. لا أظن أن الدكتور (مالدونادو) قد استساغ انتقادنا.

"بوجوتا" 5 تموز 1952:

اليوم كنا ضحايا ظلم جائر ومشين. ذهبنا إلى مركز الشرطة الرئيس كي نستعيد المدية، كما طلب منا. وبينما كنا نحاول شرح الأمر للرقيب المناوب، رآنا العريف الذي كان وقحاً معنا يوم الأربعاء وبدأ يتحدث مع رائد كان يتبطّل مضيعاً وقته دون أن يفعل شيئاً. بعد سماعه التفت الأخير نحونا، وبصوت حادّ أخبر الرقيب المعني بحالتنا أن يرفع مذكرة ترحيل بحقنا نظراً لاستهزائنا بالسلطات.

لم يكن مجدياً قول أي شيء دفاعا عنا. وقف الرائد ثم قفز إلى سيارة وانطلق بسرعة كبيرة ويده على صافرة الإنذار. وقبل أن ندري ما الذي يحصل، أُلقي بنا في عربة مدرعة. لم يكلف أحد نفسه عناء السؤال عمّن نكون أو ما الذي كنا نفعله. عبرنا بوجوتا بإحدى وسائل النقل التي لم يسبق لنا تجربتها. وبعد أن جُررنا في عدة مكاتب، حيث الجميع غسلوا أيديهم منا، انتهى بنا الأمر في المحكمة المحلية.

لدى مثولنا أمام القاضي، ونحن في حالة سخط مبررة، احتجينا على الطريقة المزرية التي عوملنا بها، كسائحين يحملان أذونات دخول قانونية. طلبنا منه الاتصال بالدكتور (سويللو)، الذي أبلغ القاضي وبشكل وافٍ عن هويتنا وبالغ له في عرض محاسننا. فأطلق سراحنا على الفور.

لقد ولدت لنا تلك الحادثة حالة من الفرح أكثر مما هي من الغضب. لكن الأسوأ فيها كان الموقف الاستبدادي للشرطة. يبدو أنهم، من أصغر عريف إلى أعلى ضابط، معتادون جميعاً على التصرف بحصانة في حالات من هذا النوع، وكذلك على أنهم مستثنون من الردّ على أية أسئلة توجه إليه حول انتهاكاتهم.

ما أزعجنا أكثر من أي شيء آخر أننا حين علّقنا على قضية إساءة استخدام السلطة هذه، سواء في الجامعة أو مع أطباء مشفى (ليراز)، وعلى الرغم من شجبهم لموقف الشرطة، إلاّ أنهم نصحونا بالإحجام عن الشكوى نظراً لما قد يسببه ذلك من مشاكل أكثر. بمعنى آخر، لقد حققت الحكومة مبتغاها في ترويض مواطنيها وسوقهم كقطعان البقر. لكني وفيوزر ننوي الاستمرار في المقاومة من أجل المدية، ليس لقيمتها كسكين، وإنما لنثبت أن على المرء ألاّ يختار أهون الشرور ويتغاضى عن القهر والترهيب.

"بوجوتا" 6 تموز 1952:

كانت جميع المكتبات والمتاحف مقفلة اليوم، لذا أمضينا الوقت في مشاهدة سباق للدراجات الهوائية. وقد تغلّب الكولومبي (فوريرو) على المرجح للفوز، الفرنسي (بوير).

أمضينا فترة ما بعد الظهر في مباراة ريال مدريد مع ميلوناريو. كانت مباراة جيدة، حيث كانت المواجهة بين جمال اللعب الأمريكي الجنوبي، وفاعلية وقوة وأسلوب الكرة الأوروبية. بالنسبة لميلوناريو، كان (دي

ستيفانو) لا يُقهر، كذلك (روسّي) و(بيني) وبايز) و(كوزّي)، جميعهم لعبوا بشكل جيد. كنت متفاجئاً بتميّز (مورين)، الذي لم يتألق أبداً في الأرجنتين كما فعل هنا اليوم.

بالنسبة للجانب الإسباني كان الدفاع رائعاً، ولا سيما حارس المرمى، (آلونزو)، الذي أنقذ مرماه بكفاءة من خمسة أهداف محتملة. كذلك كنت معجباً بـ(أوليفا)، لاعب الوسط الذي يلعب في مركز متأخر لكنه يتعامل مع الكرة بحرفية. أمّا المدافع الثاني الذي أعجبني فكان (مونيوز)، أحد المتمرسين في الفريق الوطني الإسباني. أمّا من لاعبي الهجوم فأعجبني (مولاوني)، من جزر الكناري، بأسلوبه الأمريكي الجنوبي و(باهينيو) ذو الحيوية والشجاعة، والذي شكل خطورة حقيقية على الخصم.

لقد كانت مباراة جديرة بالمشاهدة بحق، بل ويمكنني إضافتها إلى ذكرياتي المفضلة دوماً، وهي ليست بكثيرة على أية حال، ولكن أيضاً ليست بقليلة.

ذهبنا إلى مأوانا في وقت مبكر، إذ أننا اكتشفنا مسبقاً بأن من المستحيل إيقاظ الحارس الليلي بعد أن يأوي إلى فراشه. أخبرنا بأن رئيسة الراهبات لن تسمح بغيابنا عن قدّاس الأحد.

"بوجوتا"، 7 تموز 1952:

ذهبنا اليوم إلى مركز الهجرة لطلب إذن بالمغادرة، ومن هناك إلى قنصلية الأرجنتين بشأن المدية. وبما أن القنصل لم يكن موجوداً، قررنا تأجيل الأمر إلى الغد.

عدنا إلى حرم الجامعة وتحدثنا مع بعض الطلاب. كانوا جميعاً متمكنين في السياحة وبالتالي ذوي أذهان منفتحة. ناقشنا شؤون السياسة والأدب والرياضة.

إحدى الأشياء الجيدة التي تعرفت إليها في زيارتي القصيرة هذه إلى كولومبيا كانت أشعار (بورفيريو باربا جاكوب[1])، تماماً كما الحال مع (فاليجو) في البيرو إذ لم أكن قد سمعت به. لا أحد في بلدي يعرف هؤلاء الشعراء بدلاً منهم، جعلونا ندرس (مينيديز بيدال) وعشرات الشعراء الأوروبيين الذين لا تجمع بيننا وبينهم أية قواسم مشتركة.

"بوجوتا"، 8 تموز 1952:

أمضينا الصباح مع (دي ستيفانو). تحدثنا عن كرة القدم والطب وأخيراً عن سلسلة الجبال في قرطبة. أعطانا بعض المتّة وتذكرتين لحضور مباراة الغد.

مضت علينا فترة ما بعد الظهر ونحن نرتّب أمر أذونات الدخول إلى (فنزويلا). بعد ذلك عدنا إلى قنصلية الأرجنتين. بناء على طلبنا، اتصل القنصل بالشرطة وذهبنا مرة أخرى كي نطالب بمديتنا. تحدثنا أولاً إلى القاضي ومن ثم إلى الضابط المناوب. بعد ذلك انضم إلينا الرقيب الذي تولى قضيتنا يوم السبت. قال بأنه سيستدعي العريف المعني بالأمر وأن علينا العودة بعد ظهر اليوم التالي لاسترداد المدية.

في المساء ذهبنا إلى الجامعة وجلسنا نتسامر مع مجموعة من المهندسين المعماريين الذين كانوا هناك ضمن بعثة تخصصية لليونيسكو. وقد أذهلنا أورغوبيٌ وفنزويليّان بأفكارهما التقدمية والمنفتحة. بدا أنهم شباب طيبون. آمل ألاّ يشنقهم الأخطبوط اليانكي مادام تدريبهم في اليونيسكو معناه أن للمنظمة أولوية في أخذهم للعمل معها.

عندما عدنا إلى مأوانا تلك الليلة، وجدنا أن الغرفة لم تُرتّب. يبدو أننا لم ننل إعجاب الراهبات.

---

(1) بورفيريو باربا جاكوب: (1883 – 1942) شاعر كولومبي هو الأكثر تأثيرا رغم قضائه معظم حياته في المنفى.

"بوجوتا" 9 تموز 1952:

يومنا هذا كان يوماً حافلاً. في الصباح ذهبنا إلى الجامعة حيث دعينا للعب كرة القدم. غادرنا في الحادية عشرة إلى ملعب (كامبن) لمشاهدة المباراة الثانية بين ميلوناريو وريال مدريد. كانت شبيهة بالمباراة الأولى: مهارة ورشاقة من جانب الأمريكيين اللاتينيين واستعراض للقوة من قبل الإسبانيين.

بعد المباراة ذهبنا إلى مركز الشرطة. تولى موضوعنا أحد الضباط، وحاول، كسابقيه جميعاً، أن يرهبنا قائلاً بأن القضية ستحال إلى وزارة الدفاع لأننا استهزأنا بالسلطات. وأمطرنا بوابل من الإهانات المعتادة.

مرة أخرى فتّدنا التهمة الموجهة إلينا بقوة. وأوضحنا له أننا مستعدون للذهاب إلى أي جهة تلزم للمطالبة بحقوقنا. لدى مواجهته هذا الإصرار منّا، أمر بعرضنا على مكتب آمر المركز. استمع إلينا، على الرغم من كونه جديداً على القصة برمّتها، ثم أولى ببعض التلميحات حول خطورة تحدي السلطات، ثم فتح أحد الأدراج وكانت فيه المدية. أخذها "فيوزر" بكبرياء لم يخفِ نفسه. شكرنا الضابط بطريقة دبلوماسية وغادرنا فرحين بما نتج عن الأمر.

من هناك اتجهنا إلى محطة سكك الحديد كي نعرف ثمن التذكرة إلى (أجوادي ديوس). بعد ذلك ذهبنا إلى وزارة الصحة كي نُخطر الدكتور (مالدونادو) بنيّتنا القيام بالرحلة. ثمة مفاجأة كبيرة كانت بالانتظار. أخبرنا، ببرود، أنه قد أرسل مذكرة لنا إلى معهد (ليراس) مفادها أن الوزارة لا ترى في الرحلة إلى (آجوادي ديوس) جدوى لنا أو للحكومة، وأنها بالتالي لا تسمح لنا بزيارة مصحة الجذام.

بالطبع طلبنا توضيحاً، لكن الطبيب رفض المزيد من المناقشة في المسألة وأمرنا بالمغادرة. بعد العشاء ذهبنا إلى المعهد حيث سلمونا الرسالة التالية:

"السيدان آلبرتو جرانادو وآرنستو جيفارا:

أكتب كي أخطركم بأن هذا المكتب قرر رفض منحكم الإذن في الزيارة المزمعة إلى مصحة الجذام في (آجوادي ديوس). أودّ أن أطلب منكم أيضاً أن تبحثوا عن مقرٍ آخر لإقامتكم حيث أنه ليس بالإمكان تمديد إقامتكم في المعهد لوقت أطول".

المخلص لكم

د. مالدونادو

بمعنى آخر، أسلوب مهين، دون مسوّغ، في طردنا. كلانا مقتنع أن التغيّر في الموقف له كل العلاقة بانتقاداتنا للقانون الخاص بمرض الجذام. لا شك أن مسوّدة القرار إنما جاءت ضمن المصلحة المادية لواضعيها. وعيادات الأطباء الصامتة ستمضي بأقصى طاقتها، حيث يسمح القانون لحاملي مرض الجذام بالتحول في الشوارع وتلقي العلاج في المصحّات الخاصة.

"بوجوتا"، 10 تموز 1952:

مرة أخرى هذا الصباح اضطررنا للذهاب إلى القنصلية الفنزويلية. ثم ذهبنا لوداع القنصل الأرجنتيني، شاكرين إياه على مساعدتنا في استرجاع مدية فيوزر.

على الغداء في الجامعة، قام المهندسون المعماريون ومجموعة من الطلاب، الذين جمعوا بعض المال، قاموا بإعطائنا مبلغ مائة بيزو كولومبي. أخبرونا أيضاً بأن سيارتين جاءتا وفيها رجال شرطة سألوا عن أرجنتينيين

يعيشان في السكن الجامعي دون أوراق رسمية. نصحونا بالمغادرة وأخذ حوائجنا من المعهد والانطلاق إلى فنزويلا خلال ساعات. كذلك نصحونا ألاّ نمكث في نُزُل أو فندق لأن الشرطي الذي حاول أخذ مديتنا، والضابط الذي احتجزنا، قد يحاولان مضايقتنا نظراً لما شعروا به من إساءة لهما في الطريقة التي جرت فيها الأمور.

غادرنا وقد أثنينا على طيب بعض الناس، الذين هم على استعداد دوماً لمساعدة الآخرين ممن يعانون ظروفاً صعبة. تحدثنا أيضاً عن الخوف الذي زرعه النظام الحالي في أعماق مواطنيه.

فيما بعد ذهبنا إلى المتحف الوطني. كان مثيراً، إذ أنني لم أكن على علم بتأثير حضارة الإنكا على جنوب كولومبيا، بينما تؤثر حضارة الهنود على كل من الشرق والشمال — فمثلاً، القبائل التي تعيش قرب الحدود الفنزويلية في "جواجيرا"، كانت ولا تزال تعيش بأسلوب بدائي. في المتحف أيضاً مجموعة جميلة من الزمرد والذهب صنعها الإنسان تعود إلى حضارة الـ(كوشا).

عند حلول الظلام ذهبنا لجلب متاعنا. كان فيوزر يظن بأن ترحيلنا لم يكن لسبب سياسي، بل لأننا لم نقبل دعوة رئيسة الراهبات إلى قداس الأحد. في تلك اللحظة بالضبط سمعنا صفارة إنذار الشرطة. نظرنا إلى بعضنا بعضاً وكالعادة كان بيلاو محقّاً.

قال: "من يدري كم صفارة إنذار قد أُطلقت خلال بضعة الأيام الماضية ولم تلفت لنا انتباهاً. الآن ونحن نظنهم يلاحقوننا أصبح صوتها مغنًّا.

أجبته، واضعاً حقيبة الظهر فوق كتفي: "نعم، تباً، دعنا نسمع النصيحة ونهجر هذا المكان."

توجهنا إلى محطة الحافلات. كانت أولى الرحلات المتجهة إلى (كوكوتا) تنطلق في الخامسة صباحاً. تركنا حوائجنا في أحد المكاتب واستعدينا لقضاء الليل في التجوال.

ذهبنا إلى السينما لنشاهد فيلم "المسيح المحظور" لمؤلفه (كورزيو مالابارتيه[1]). كان في مظهره يبدو تقدمياً، لكن المشاهد يمكنه تلمس ميول (مالابارتيه) الرجعية الفاشية.

بعد الفيلم ذهبنا إلى مقهى نسمع فيه معزوفات (تانجو). طلبنا البيرة. بعد قليل جلس معنا شخص بدا عليه السكر. قال إنه صديق وأحد المعجبين بـ (بيديرنيرا) وعددٍ لا حصر له من لاعبي الكرة الأرجنتينيين. استمر يردّد أن روسي كان محبوباً من قبل الناس لدرجة أنه لو أعتُقل ذات مرة، فسوف يقتل الجنود مدير السجن وستُعلن الحرب الأهلية.

أمضينا عدة ساعات نستمع إلى موسيقا التانجو وإلى قصص صاحبنا الثمل. كنا نستمع إلى الأغنيات مجاناً بسبب خدعة علمّنا إياها صاحبنا هذا. فعندما تضغط على الزر الآلي لجهاز الموسيقى وتلطم الآلة نحو الجدار لطمة خفيفة فإنها تشغّل الأسطوانة وكأنما قد وضعت فيها قطعة نقود.

"ملقة"، 11 تموز 1952:

ليلة أمس تحدثنا حتى الساعة الرابعة والنصف، ثم ودّعنا مشجع الميلوناريو عائدين إلى محطة الحافلات. انطلقت الحافلة تمام الخامسة بالضبط وما هي إلاّ عدّة أبنية حتى غططت في النوم. استيقظت نحو الساعة السابعة عندما بدأ ضوء النهار يملأ الدنيا. شعرت بالسعادة والفرح. كانت الطريق أمامنا تتعرج مخترقة التلال. الحقول الخضراء، والسماء الزرقاء

---

(1) المسيح المحظور: فيلم إيطالي كتبه وأخرجه عام 1951 مؤلف فاشي مثير للجدل هو كورزيو مالابارتيه (1898–1957).

والنسيم البارد الذي ينفذ إلى الحافلة، كل ذلك ملأني شعوراً بالخفّة والنشاط.

يا للسعادة لقد أصبحت "بوجوتا" وراءنا الآن، بشوارعها المبتلاة بالشرطة، ومحترفيها المنافقين الجشعين، وطلابها الذين رغم كرم معظمهم، ونقاء تفكيرهم، هم أسيرو قبضة الخوف. كولومبيا التي رأيناها بحاجة، وعلى نحو مؤلم، إلى مصلحٍ آخر كـ (جيتان[1]).

الريف الذي مررنا به اليوم يشبه التلال البيروفية إلى حدٍ ما، إنّما ليس مهيباً بنفس القدر. بينما دنونا من (ملقة)، أصبحت القمم أكثر ارتفاعاً وأكثر جفافاً وجدباً.

كان المسافرون في معظمهم جنوداً، وكانت الأحاديث تتمحور حول الرعاع، أو قطاع الطرق، كما يطلقون على الفدائيين الذين يقاتلون في السهول الريفية.

كان من المؤلم الاستماع إليهم وهم يتحدثون عن المتعة التي يجنونها من منظر الطائرات المسلحة بالرشاشات الآلية وهي تحصد الفدائيين محولة جثثهم إلى أشلاء هي والصخور التي يختمون بها. كيف لشعب أن يتقدم، وهو منقسم بشكل مصطنع بين ليبرالي ومحافظ، حينما يرسلونهم لتصفية بعضهم، وكل ذلك لمصلحة الأقلية الذين يسيؤون الحكم، ويناوبون القوة فيما بين الفريقين.

"كوكوتا"، 12 تموز 1952:

ليلة أمس نمنا في (ملقة)، البلدة الريفية التي ليس فيها الكثير مما هو جدير بالثناء. مبنى البلدية العادي والكنيسة وحديقة ذات مقاعدة خشبية

---

(1) جورج إليسير جيتان (1903–1948) محام كولومبي، وعالم اجتماع وسياسي ليبرالي. أصبح رئيسا لكولومبيا عام 1946 وقد اغتيل بعد عامين.

نُقش عليها اسم صاحب دكان أو صيدلي تبرع لتركيبها من أجل الأجيال القادمة لبلدة صغيرة.

في الحافلة التقينا شاباً نيكاراجوياً مفلساً، عاثر الحظ، لذا اشترينا له عشاء".

نمنا في نزل خاص مقابل خمسين سنتاً كولومبياً. أيقظني آرنستو نحو الثالثة صباحاً على إثر نوبة ربو فظيعة. بالمصادفة كنا قد تركنا الدواء في حقائبنا، لذا اضطررت لإيقاظ الحارس الليلي، ومن ثم العودة إلى محطة الحافلات. الحارس كان مستغرقاً في النوم، كأي حارس آخر ممن يحترمون أنفسهم، وتعيّن عليّ بذل بعض الجهد كي أوقظه.

عُدت بالإبرة وحقنت آرنستو ببعض الأدرينالين. بعد ذلك عدت للنوم حتى السادسة. بعد ذلك بوقت قصير، تابعنا رحلتنا. تناولنا الإفطار في (بامبلونا). وصلنا (كوكوتا) في الرابعة عصراً لنجد أننا لن نستطيع مقابلة الجمارك حتى الاثنين ماداموا لا يفتحون في عطلات نهاية الأسبوع.

اصطحبنا الشاب النيكاراجوي إلى نُزل خاص كان يعرفه. استقرينا هناك وتناولنا العشاء، إلاّ أن آرنستو لم يأكل كثيراً بسبب نوبة الربو. تركته أنا والنيكاراجوي كي يرتاح وخرجنا في نزهة في أرجاء المدينة. عندما عدنا كانت حالة (فيوزر) قد ازدادت سوءاً، لذا حقنته بجرعة أخرى من الأدرينالين وخلدت للنوم.

"كوكوتا"، 13 تموز 1952:

كوكوتا مدينة حدودية هي نموذج للحياة المدنية. في كل خطوة فيها يلتقي المرء أناساً من كل عِرق، يعملون بكل المهن التي تخطر على البال. أناسٌ غير مسرورين على الدوام لا من أين أتوا ولا أين هم، بل ويتمنون دوماً أن ينطلقوا إلى مراعٍ أكثر خضرة، سيملّونها أيضاً بعد وقت قصير، ويسعون نحو آفاق جديدةٌ.

المكان حار جداً هنا، لكنه جميل. ويبدو أن ذلك ينعكس على السكان المحليين الذين تراهم مبتهجين ومحبّين للصخب. أصوات المذياع تنطلق من كل المنازل، كما أصوات ساكنيها. الشوارع تغصّ بالناس الذين ينادون على المشروبات والمثلجات والحلويات. يحاولون جذب الانتباه لبضاعتهم بالصفير والأغنيات والتصفيق. باختصار، إنها مدينة مدارية نموذجية، جعلتني أبدّل شيئاً من شعوري اتجاه كولومبيا.

أمضينا الصباح نتمشى في الضواحي التي كثرت فيها أشجار المانجا ونخيل جوز الهند، وكذلك الأسواق حيث يمكنك شراء أي شيء من مكيف الهواء إلى المراجيح المصنوعة من سعف النخيل. رأينا بعض التجار، ويطلق عليهم (مهربو النمل)، يُلبِسُون بناتهم الصغار، ولم يتجاوز عمر الواحدة منهن عشرة أعوام، ستة أثواب كل واحد فوق الآخر.

النيكاراجوي، الذي كان هنا من قبل، أخبرنا أن الفتاة منهن قد تكون مرتدية لعشرة صديريات أثداء وسراويل نسائية تحتية، والتي يبيعونها في فنزويلا بأضعاف ثمنها.

بعد ظهر ذلك اليوم استمعنا إلى مباراة كرة القدم بين فريق (بوتافوجو) البرازيلي والميلوناريو، والذي فاز به الأول. تبع ذلك ذهابنا لأمسية موسيقية فولوكلورية كولومبية وكانت غاية في الروعة، لاسيما الإيقاعات المدارية وموسيقى الـ(بورو).

كنا قد قررنا زيارة منطقة المواخير تلك الليلة، لكن فيوزر كان لا يزال يعاني نوبة الربو، لذا اضطررت لحقنه بالأدرينالين مرة أخرى. إنني قلق بعض الشيء حيال هذا الأمر، لأنه ما من عضلة قلبية تفهم الكمية التي أحقنها بها سوى عضلة قلب آرنستو.

لكنني، وفي اللحظة التي أستسلم فيها للنوم، رأيتني لم أستطع المقاومة، وانسللتُ على رؤوس أصابعي إلى الخارج، وأيقظت النيكاراجويّ وقصدنا حيّ المواخير، والذي هو في الواقع ليس أكثر من بيوت منامة

متجاورة رخيصة تقطنها مئات النسوة اللائي ينتظرن أذونات دخول إلى فنزويلا. جميعهن يعتقدن بأنهن سيصبحن غنياتٍ ببيع أجسادهن، بل ويحلمن بالمال الذي سيمكنهنّ فيما بعد من ترك تلك المهنة المخيفة.

هناك نسوة جميلات من جنسيات شتى، بل حتى بعض الأوروبيات، من إسبانيات وفرنسيات وإيطاليات على وجه الخصوص، لكن معظمهن أمريكيات لاتينيات كوبيات وتشيليات وأرجنتينيات وبانميات، وطبعاً الكثير من الكولومبيات. جميعهن متحفزّات لعبور الحدود، الأمر الذي يرسم في مخيلتهن صوراً خداعة عن هروبهن من فقرهنّ، أو من حالة الوسطية للحياة القروية.

ثمة طريقتان فقط للحصول على إذن الدخول: إمّا إيجاد المال لدفع رشوة، أو الذهاب إلى السرير بصحبة شخص ذي نفوذ. ولأنه لم يكن لديَّ أيٌّ من الخيارين، فقد وُضعت أمام مهمة غير حميدة في البقاء مخلصاً لمبادئي، والمحاولة، بأقل السبل الجارحة، أن أريهنّ خطأ أساليبهن. رويت لهنّ قصصاً عن تجارة الرقيق الأبيض في الأرجنتين. وأخبرتهن أنهّن ضحايا نظام اجتماعي يُذلّهن، ويستغلهّن ويستخدمهن كسلع تجارية.

النيكاراجوي، الذي يحلم بأن يصبح مليونيراً بالتنقيب عن المال في أورينوكو العليا، شعر بالخوف وحاول أن يتصدى لما كنت أقوله بأمثلة من مجلة "المختار" عن التجارة الحرّة، وعن بائع الصحف الذي أصبح قطباً بارزاً ذا نفوذ، وهكذا. ما فاجأني حقاً وقوف النسوة جميعاً إلى جانبي في الرأي، على الرغم من قناعتهن الضمنية بعدم قدرتهن على مواجهة قدرهن، ووجوب تسليم أنفسهن لهذا القدر كل أسبوع.

في أرض "بوليفار"

سان كريستوبال، 14 تموز 1952:

من الآن فصاعداً، لن يكون هذا التاريخ تخليداً لذكرى سقوط الباستيل، بل تخليداً لليوم الذي رحلت فيه عن كولومبيا. ليس كولومبيا التي حلم بها (بوليفار) أو جيتان، بل كولومبيا (لوريانو جوميز[1]) التي عاملتني بأقل قدر من الكياسة بين البلدان الستة الإخوة التي مررت بها حتى الآن.

نحو السابعة صباحاً غادرنا متجهين إلى الحدود الكولومبية الفنزويلية. في التاسعة كنا أمام أحد المسؤولين الذي هيجّ لي حساسيتي ضد الكولومبيين من جديد. أخيراً، وبتنهيدة ارتياح، عبرنا الجسر الذي يمرّ فوق نهر (تاشيرا) والذي يصل بين البلدين. سرعان ما وصلنا من جديد أمام بيروقراطية ضباط الجمارك. ولكنهم فنزويليون هذه المرة.

بعد ساعة من توقيع عشرات الأوراق، والردّ على نفس الأسئلة الروتينية سُمِحَ لنا بالعبور. بعد أن تحرّرنا آخر الأمر، عاودنا ركوب عربة النقل التي أوصلتنا إلى هنا.

الطريق جميلة حقاً. صعدنا سلسلة قصيرة من الهضاب وبعد رحلة دامت نحو ساعتين وصلنا (سان كريستوبال). إنها تشبه (كوكوتا)، لكنها

---

(1) لوريانو جوميز: (1889 – 1965): سياسي كولومبي محافظ محبّ للقتال، وأحد الرموز التي تُشتم من قبل العامة، والذي أصبح رئيساً للبلاد ما بين عامي 1949 إلى 1951.

أقل مدنيةً. لقد بُنيت فوق سلسلة هضابية. كانت الشوارع منحدرة، وبوجه عام كانت تنتهي إلى مزارع صغيرة للموز والمنيهوت وقصب السكر. لعل المنظر الأكثر زحمةً في تفاصيله هو نهر (توربيه) بمياهه المحمرّة اللامعة التي تقف مع الضفاف الخضراء على طرفي نقيض.

أودّ أن أبقى في (فنزويلا) بعض الوقت. كبداية، كان لي عن الفنزويليين انطباع أفضل من جيرانهم. ومن الدلالات المهمّة وجود مكتبة عامة لا بأس بها هنا في (سان كريستوبال)، بينما في (كوكوتا)، وهي أكبر حجماً، تُعتبر المكتبة شيئاً زائداً ولا لزوم له.

الطريق بين (باركو يزيميتو) و(كورونا)، 16 تموز 1952:

غادرنا (سان كريستوبال) في الحادية عشرة من مساء الاثنين. كان في العربة نحو أحد عشر شخصاً متراصين فيها بشكل غير مريح. أمضيت في النوم كل الوقت.

في السادسة أيقظتني الشمس التي همّت بالشروق. كانت الطريق العامة شبيهة بتلك التي سلكناها أمس، ضيقة ومتعرجة، تسوّرها مزارع الموز في المنخفضات. بعد ذلك تصعد الطريق إلى أراض قاحلة شاسعة. روتين متكرر لا يقطعه أي شيء سوى نباتات الصّبار العملاقة. هذا الإقليم يسمى "إيل بارامو".

تغدينا في (بوينته ريال) بسعرٍ فلكي بلغ دولارين ونصف للشخص الواحد. إن سعر الصرف يجعل المعيشة مكلفةً جداً. بعد الظهر تابعنا تقدمنا في المنحدر ببطء شديد نظراً للوزن الزائد الذي تحمله الآلية. وما زاد الطين بلّة، تَعَرُّضُنا لثلاثة انفجارات في العجلات. اشترى السائق عجلة جديدة في (ميريدا) ولكن، لكونه كسولاً، لم يصلح الإطار الاحتياطي، لذا تعرضنا لانفجار عجلة رابع. أضعنا نحو ساعتين في إصلاح ولصق

العجلات. أمّا القشة التي قصمت ظهر البعير فكانت ريحاً جليدية هبت علينا ولم يكن هذا من طبيعة المناخ المداري على الإطلاق.

تابعنا نزولنا حالما تمّ حل المشكلة، ووصلنا في الرابعة تقريباً إلى (بيكر ديلاجويلا)، والتي ترتفع إلى ما يزيد عن خمسة عشر ألفاً وخمسمئة قدم عن سطح البحر، وهناك تناولنا وجبة من الطعام. بعدها على الفور شرعنا بالنزول، ونزل علينا النوم أيضاً. نمت حتى السابعة صباحاً. في هذا الوقت كنا قد وصلنا المنخفضات. بدأت الغابة تنتهك حرمة الطريق. وغدا الجو حاراً جداً. أي فرق حراري يولّده الارتفاع في الأقاليم المدارية.

وصلنا (باركويزيميتو) نحو الساعة العاشرة. كانت هذه مدينة كبيرة نسبياً ومزدهرة فيما يبدو. توقفنا لوقت قصير واضطررنا لرؤية الآخرين وهم يروون ظمأهم بالبيرة بينما شربنا نحن الماء. كان سعر الصرف مخيفاً لدرجة أننا فكرّنا كثيراً قبل الإقدام على شراء أي شيء. لقد عرض علينا بعض رفقاء السفر أن يشتروا لنا المشروبات، لكن كنا قد قبلنا أصلاً عدّة دعوات، ومن غير اللائق أن نستمر عالة على الآخرين.

بعد ذلك مضينا قُدماً صوب (فالينسيا)، ولم تكن تبلغ الحادية عشرة، حتى دوى صوت الانفجار الخامس في العجلات. على حدّ علمنا لم يكن هناك عجلة احتياطية، لذا تدبّر السائق ومعه بضعة فتيان أمر توصيلهم إلى أقرب بلدة لاستبدال العجلة. قررنا شرب المتّة، واقتربنا من أحد المنازل على حافة الطريق. وجدنا عائلة من السود، أفزعتنا بادئ الأمر، إذ أننا آتون من إقليم الآنديز، حيث يسود فيه العرقان الإسباني والمحليّ. أمّا هنا فقد كنا وجهاً لوجه فجأة مع جماعة من أقلية عرقية في أمريكا الجنوبية تعرفنا إليها.

بينما رحنا نرشف المتة وسط فضول الجميع، تذكرنا رواية روملو جاليجوس[1] "الزنوج الفقراء" وبعض ملازمي (بوليفار) السود، وهذا ما خفف هول المفاجأة علينا. انتقلنا لمناقشة خططنا للمستقبل القريب. وبعد تحليل عميق للحيثيات توصلنا إلى نتيجة مفادها أننا أتممنا، بل ووصلنا إلى أبعد من فكرتنا الأولية عن اكتشاف أمريكا اللاتينية. بالطبع ثمة منطقتان بانتظارنا وهما: أمريكا الوسطى والمكسيك. كلاهما تقف على جانب كبير من الأهمية إنْ سياسياً أو ثقافياً. الأولى، كونها مثالاً حتى أوضح عن هيمنة اليانكي فيما اصطلح (آراجون[2]) على تسميتها "جمهوريات الموز"، إحداها هي نيكاراجوا، مسقط رأس (ساندينو[3]).

المكسيك، مهد أول ثورة زراعية، تستحق الزيارة أيضاً. إضافة إلى أن أمريكا الوسطى، بحضارات شعوب المايا. والمكسيك، بحضارات شعب الآزتيك، يمكن لهما أن تعلمانا آلاف الأشياء المفيدة. لكننا، من ناحية أخرى، لسنا رحالين متخصصين، وفي نقطة ما يكون لزاماً علينا أن نستقر ونعمل شيئاً مفيداً. بناء على ذلك قررنا الآتي:

إذا أخذ أحد تجار خيول السباق هنا في (كاراكاس) — وهو شريك لأحد أخوال (بيلاو) — إذا أخذ بيلاو في الطائرة التي ينقل بها الخيول، عندئذٍ سيعود بيلاو إلى (بوينس آيريس) للحصول على شهادته في الطب. وأنا سأبقى هنا في (فنزويلا) أعمل إمّا في مصحة للجذام، أو في الجامعة مع أحد الأساتذة الذين أحمل لهم رسائل تعريف. خلاف ذلك سنتابع نحن الاثنين طريقنا إلى المكسيك.

---

(1) روملو جاليجوس (1884 – 1969): سياسي ومعلم وكاتب فنزويلي أصبح رئيساً للجمهورية لفترة قصيرة ما بين شباط وتشرين الثاني من عام 1948.

(2) أوجوستين آراجون (Agustin Aragon) – 1870 – 1954: كاتب مقالات وفيلسوف وضعي ومهندس مكسيكي كتب عن تحول اللغة الشعبية في بلده.

(3) أوجوستو سيزار ساندينو (Augusto Cesar Sandino) 1895 – 1934: زعيم ثوري مناهض للإمبريالية ووطني وكاريزماتي نيكاراجوي. اغتاله الحرس الوطني بخديعة من الرئيس بعد التوقيع على وقف لإطلاق النار.

مرت ثلاث أو أربع ساعات بنا ونحن نشرب المتّة ونناقش هذه المسائل. أخيراً وصل السائق ومساعده ومعهما الإطارات التي تم إصلاحها.

كاراكاس، 17 تموز 1952:

كاراكاس مدينة حديثة جذّابة. كلانا أنا وبيلاو وكنا قد أرهقنا بالإعاقات التي واجهتنا في الطريق. لكن عندما وصلنا إلى قرية تدعى (لوس تيكيز)، بدأت الطريق تمضي صعوداً تحفّها من الجانبين هضاب غابية. رأينا غابات الصنوبر، التي أكثر ما يحتمل أن تمرّ بها في الآنديز من أن تراها هنا في هذه الهضاب المدارية المنخفضة. بعد ذلك دخلنا في وادٍ ضيق في نهايته لمحنا أبنية مرتفعة.

حالما دنونا من المدينة، بدأت حركة المرور تزداد زحاماً. بدأنا نرى أرتالاً طويلة من السيارات على اختلاف أنواعها، وأحجامها تتصارع كي تتجاوز الواحدة الأخرى مخلّفة فوضى لا مثيل لها. يا للمفارقة الكبيرة بين هذا وجمال وهدوء الطريق قبل بضعة أميال من هنا فقط.

نزلنا في (كانو آماريللو)، حيث أخبرونا بأنه المكان الأرخص لتأمين المنامة. كانت نوبة جديدة من الربو قد بدأت ترسم ملامحها على فيوزر، لذا وجدنا غرفة لنا بأسرع ما أمكن. ولكن كل ما كان بوسعنا تأمينه مستودع تركت آرنستو ليرتاح فيه، وانطلقت، بعد أن كويت سترتي البالية، بحثاً عن سفارة الأرجنتين.

بعد جهدٍ جهيد نجحت أخيراً في التحدث مع بعض مسؤولي السفارة. كانوا جبالاً جليدية حقيقية تتقنع بأثواب البشر، وكانوا في حالة هلع من أن أطلب منهم مالاً أو طعاماً. استلمت الرسائل المعنونة باسمي، لكنهم رفضوا تسليمي رسائل بيلاو. وبعد أن استمعت إليهم وهم يسترسلون في الحديث عن مدى صعوبة الحياة في فنزويلا، وكم يستحسن

أن نخرج منها بأسرع وقت ممكن قبل أن ينفذ المال منا – وأي قليل منه سأجني إذا ما حُكم علي من خلال مظهري – بعد ذلك رحلت دون أن أسلم عليهم، إذا أنني كنت أوشك على أن أقول لهم: سحقاً لكم جميعاً.

عُدت إلى النُزل والحزن بادٍ على وجهي، لأرى بأن (فيوزر) قد بدأ يتحسّن.

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبنا للبحث عن عمّة أحد الأصدقاء وكان اسمها (مارجريتا كالفنتو). اتضح أنها كانت محببة بالفعل، وعندما أخبرتها بما حصل معي في السفارة، أشارت – وقد وافقناها بذلك- أن مظهري هو ما جعلهم لا يصدقون كلمة واحدة مما قلت. ما هي إلاّ بضع ساعات حتى كان لدينا برهان على ذلك. بعد وليمة عصراوية مترفة، اقترحت (مارجريتا) أن نقوم بزيارة لسكن طلاب داخلي، لم يكن سوى بيت الشباب الفنزويليين الكاثوليك.

بعد تسلّحنا برسالة تعريف، وبعد أن تحقق كل واحد منا من حسن مظهر الآخر، وصلنا إلى المكان آنف الذكر. من الواضح أننا لم نظهر بتلك الصورة الرائعة، لأن المديرة، وأمام أعيننا، اتصلت بـ (مارجريتا كالفنتو) لتسألها إن كانت قد أرسلت رسالة تعريف مع الدكتور (جرانادو) والسيد (جيفارا). طبعاً أنا لم أسمع ما أجابت ابنة بلدنا، لكني أشك أنها لابدّ اضطرت أن تصبح أكثر إطراءً ولياقة كي تقنع هذه العنيدة بأنه، وعلى الرغم من مظهرنا، كنا بالفعل الشخصيتين اللذين أشارت إليهما في رسالتها.

كاراكاس، 18 تموز 1952:

ذهبنا اليوم إلى منزل ممثل تاجر الخيول. خال آرنستو هو وكيله الجمركي في (بوينس آيريس). إنه سعيد لقيام آرنستو برحلته بين كاراكاس

وميامي وبوينس آيريس، لطالما يمكنه الحصول بذلك على إذن عبور للولايات المتحدة.

(مارجريتا)، هذه الجنّية الخيرّة، ستفتح لنا خط اتصال مع صحفي أرجنتيني يعمل ممثلاً للصحافة المتحدة العالمية في كاراكاس، وبالتالي له علاقات طيبة مع سفارة اليانكي .

كاراكاس، 19 تموز 1952:

ذهبنا للقاء الدكتور (كونفيت)، الذي كنا نحمل إليه رسالة تعريف من الدكتور (بيسيه)، لنرى إن كان بمقدوره تأمين عمل لي. استقبلنا بحرارة، ورغم كونه شخصاً قليل الكلام، إلاّ أنه خلال خمس دقائق أجرى لي فحصاً سريعاً، رغم كونه هذا الفحص مقنّعاً بأسئلة حول خبرتي الطبيّة. لقد أعجبني، وعندما عرض علي خمسمئة بوليفاري إضافة إلى الإقامة في المشفى، وجدتني مضطراً لضبط أعصابي كي لا تفلت منّي الموافقة على العرض على الفور. على أية حال، وحفاظاً على سياستي، قلت له إنني سأفكر بالأمر، مكرهاً نفسي على الظهور بمظهر اللامبالي رغم كل إيماءات فيوزر لي كي أقبل.

جمعٌ عائلي

كاراكاس، 20 تموز 1952:

اليوم، وأثناء ذهاب (فيوزر) إلى سفارة اليانكي مع الصحفي (ليجو يزامون)، ذهبت إلى الجامعة، وهي إحدى الأماكن الأخرى التي قد يعرض علي العمل فيها.

كان حرم الجامعة جميلاً جداً. أسواره المرتفعة جعلت منه نقيضا للفقر الذي ترسمه الأكواخ التي تتوّج الهضاب الصغيرة المجاورة. الأستاذ الذي أوصي بي لديه، وهو مختص فيزيولوجي، كان خارج البلاد في كندا. تحدثت مع العديد من الطلاب، وأُبلغت، ورغم تخوفٍ خفي لدي، أنه ومجموعة أخرى من أكفأ الأساتذة اضطروا لترك الجامعة بسبب أفكارهم التقدمية.

كان هناك الكثير من رجال الشرطة إضافة إلى الجو اللامريح بشكل عام. ولكن رغم كل هذا، كنت معجباً بالأسلوب الفنزويلي اليسير والمنفتح. فهم يستخدمون كلمة "أنتم" المألوفة حالما يتعرفون إليك، وأنا حتى الآن لم أر أي شيء من رهاب الأجانب الذي حذرنا الناس منه.

بعد الظهر ذهبت لمقابلة الدكتور (كونفيت) وسألته أين سيكون العمل. أخبرني بأنه سيكون في المشفى في (كابوبلانكو)، على بعد نحو

عشرين ميلاً عن (كاراكاس)، وأنه سيأتي في عربة نقل ويصطحبني لأراها في اليوم التالي.

تلك الليلة اجتمعنا في منزل الآنسة (كالفنتو)، حيث التقينا امرأتين أرجنتينيتين تعملان وتعيشان معها. أمضينا وقتاً طويلاً في سرد بعض من مغامراتنا، والتحدث مع (آرنستو) عن مدى السهولة التي تم فيها الحصول على إذن الدخول، وكان ذلك بفضل مساعدة (ليجويزامون). أثناء الحديث وصل (ليجويزامون) وزوجته. شربنا نخب وصولنا ونخب رحيل (فيوزر) الوشيك.

على أية حال، لم تكن حفلة الوداع كلها بشائر طيب وسلام. فقد كان رجل الصحافة مصمماً على استثارتنا بالحديث عن معجزات الولايات المتحدة ودونية الشعوب اللاتينية. لبعض الوقت، ولأنه قد ساعدنا، تحملت أنا وفيوزر السخف الذي كان يتشدق به إلى أن قال من المؤسف أن الأرجنتينيين هزموا الإنكليزيين عام 1806، فخلاف ذلك كان سيجعلنا كالأميريكيين الآن.

"أو كالهنود مثلاً"، قاطعته بالقول، وأضفت: "بعد خمسمئة عام من الاستعمار الإنكليزي تخطت نسبة الأمية وسوء التغذية التسعين بالمئة."

التفت بيلاو إليّ وقال: "أفضل أن أكون هندياً أمّياً على أن أكون ميليونيراً أمريكياً شمالياً."

جميع الحاضرين، ممن جاؤوا إلى فنزويلا يحدوهم الأمل في أن يصبحوا أغنياء على الأقل، جميعهم أخذ الأمر على محمل شخصي، لكن الصحفي المبدع أخذ على عاتقه أن يتولى الحديث. فبدأ بأكثر القصص إثارة للشفقة عن فقراء صنعوا من أنفسهم أصحاب ملايين بعرقهم وجهدهم.

بادئ الأمر ضحكنا في وجهه، ومن ثم بدأنا نخبره عمّا خضناه من تجارب خلال ترحالنا. أخبرناه عن الأجور، وعن خفض قيمة العملات، وعن القروض التي تأتي من وراء البحار وتذهب إلى تلك البلدان التي تقرر

فيها اتحادات المنتجين المساعدة. بعد عشر دقائق جلست لأستمتع بكأس النبيذ التي سكبتها لنفسي. (بيلاو) كان، ومن خلال جدلياته، وسخريته وعمق تحليله، أكثر من ندٍّ لهم جميعاً، أمّا أنا فكنت حجر عثرة أكثر من كوني عوناً.

بمزاج هادئ إلى حدٍ ما ودعناهم وذهبنا إلى بيت ضيافتنا المحترم. في الطريق قلت لصاحبي: "لو كان باستطاعة ذلك الشخص، لألغى لك إذن الدخول."

كاراكاس، 21 تموز 1952:

ذهبنا اليوم إلى مصحة الجذام، كانت الطريق بين (كاركاس) و(لاجوايرا) جميلة إلى حدٍ لا يوصف، يبدو أن كل هذا المشهد كان ذات مرة مليئاً بمزارع البنّ، مع وجود أشجار وفيرة تظلّل البنّ، ما يفسّر هذا التنوّع الفريد في أوراق النباتات. هذه الطريق المتعرجة، والتي تؤمن مشاهد رائعة لزرقة البحر الكاريبي التي لا تضاهى، تتلوى بين جروف شاهقة، ليست كالآنديز البيروفية، إنما أكثر خطورة، كونها ضيقة وكثيرة المنعطفات.

أخبرني السائق أن هذه الطريق قد شقّها سجناء سياسيون في عهد الدكتاتور (خوان فيسنت جوميز[1])، وقد تبعت طريق بغال قديمة. إنها نكتة لطيفة، ولعل عدد المنعطفات التي لا لزوم لها هو ما أضفى عليها شيئاً من المصداقية.

المشفى كانت وكر ساحرات حقيقي — قبيحة، متهدّمة ولا طلاء فيها- لكنها لا تبعد عن البحر سوى بضعة خطوات. رمال الشاطئ البيضاء النقية ترتفع إلى محاذاة السور، والأمواج المتكسرة التي تبهج أي قاصد عطلة.

---

(1) خوان فيسنت جوميز Joan Vicente Gomez – (1857 – 1935): دكتاتور فنزويلي سيطر على الحياة السياسية في بلده منذ عام 1908 وحتى وفاته.

كاراكاس، 22 تموز 1952:

زيارة أمس للمشفى أعطتنا لمحة عن مستقبل حافل بأعمال البحث. المدير العام، الدكتور (كونفيت)، ورئيس المختبر، الدكتور (بلومنفيلد)، كلاهما يبدو مستعداً للإنصات ومنحي تفويضاً مطلقاً في كل ما يتعلق بالأبحاث، لذا فحيثيات الأمور تبدو واعدة.

25 تموز 1952:

سيرحل (فيوزر) في الصباح الباكر غداً، متجها نحو مستقبله. يتعين عليه أن يجتهد في الدراسة كي يحصل على شهادته.

بعد انقضاء أشهر طويلة ونحن معاً، يصبح الفراق أمراً متعذِّراً. كلانا يحاول ألاّ يُظهر الحزن الذي يستبدَّ به. ولكن رغم ذلك، ففراقنا ليس إلاّ مؤقتاً، وأعلم أننا سنعود لنجتمع سوية بعد مدة قصيرة.

تماماً كما كان لدي يقين منذ عشرة أعوام أننا سنقوم بالرحلة، كذلك الآن، لدي اليقين ذاته بأنني و(فيوزر) سنسافر معاً على نفس الدرب في المستقبل.

خاتمـــة

حال وصولنا إلى (فنزويلا)، قررنا متابعة السفر إلى (كاركاس)، حيث التقيت طبيباً اطلع على شيء من أبحاثي في مرض (هانسن)، وعرض عليّ عملاً في مختبر لمصحّة جذام.

هذا الحدث، بالاقتران مع وجود صديق لأهل آرنستو في (كاركاس) لديه طائرة نقل خيول سباق، أفرز العهد ما بيني وبين (تشي) بأن يعود هو إلى (بوينس آيريس)، موفياً بذلك الوعد الذي قطعتُه لوالدته، (سيلبا دي لاسيرنا)، بأن آرنستو سيعود ويكمل تخرجه.

كنت مضطراً للإصرار على عودة آرنستو إلى (بوينس آيريس). غادر إلى (ميامي)، حيث اضطر للبقاء لبعض الوقت متحملاً بعض المشاقّ. افترقنا في تموز عام 1952، ولم تتصافح أيدينا من بعدها إلاّ في الثامن عشر من تموز عام 1960 عندما زرته في مصرف كوبا الوطني.

خط سير الطائرة كان على النحو الآتي: بوينس آيريس — كاراكاس، كاراكاس — ميامي، ميامي — ماركايبو — بيونس آيريس. كانت تحمل خيولاً أرجنتينية كي تُباع في ميامي؛ وهناك تحمل خيولاً أميريكية ومن ثم تباع في ماراكايبو. كان على (تشي) أن يستفيد من تلك الرحلة الجوية، على الرغم من التوقفات العديدة، لأنها كانت طريقة غير مكلفة للسفر.

أخبرنا (تشي) أنه واجه في ميامي ظروفاً قاسية؛ وكان يذهب كثيراً إلى المكتبة العامة، ووجبته الوحيدة يومياً كانت القهوة بالحليب، وهكذا إلى أن كوّن صداقة مع صاحب أحد المطاعم السريعة وصار الأخير يقدم له بعض الطعام. مضى الحال هكذا إلى أن وصل شخص بورتوريكي ذات مرة وقت الغداء، وبدأ ينتقد إدارة (ترومان) بشكل لاذع، وحدث أن سمعه أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي وحدث ما يحدث في العادة: كان على (تشي) أن ينأى بنفسه عنه.

كنت قلقاً حيال أمر تخرّجه. وبفضل أساليبه الدراسية الغريبة، وقدرته وذكائه النادرين، تمكن من اجتياز اثني عشر امتحاناً في أقل من عام واحد. تخرج (تشي) في كلية الطب في آذار عام 1953.

حال تخرجه، انطلق في رحلة للقائي في فنزويلا، كي نتفق إن كنا سنستمر في رحلتنا، أو نبدأ بعض الأبحاث في (كابو بلانكو)، مصحة الجذام التي كنت أعمل فيها. لم يشأ أن يقترض مالاً من أحد، بل تدبّر نفسه بما كان لديه. كان يرى في عمل الأشياء على طريقته أمراً أكثر رومانسية.

مع صديقين أو ثلاثة، ركب قطاراً يسافر من (بوينس آيريس) إلى (لاباز) في بوليفيا، وهي مسافة لا تقل عن أربعة آلاف ميل. كان قطاراً يتوقف في كل مدينة، صغيرة كانت أم كبيرة. يا لهول وفظاعة هذه الرحلة.

بعد ذلك عبر بحيرة (تيشي كاكا)، حيث كنّا عندما رحلنا معاً، واستمر في الرحلة على طول الساحل لأنه كان يريد بلوغ (فنزويلا) بسرعة.

من ناحية أخرى، عندما وصل (جوايا كيل) في الإكوادور، التقى ريكاردو رويو، وهو محام من بوينس آيريس، وكان في المنفى، حيث فرّ من السجن ضمن عملية هروب مثيرة. طلب حق اللجوء لدى السفارة الجواتيمالية في بوينس آيريس ورافقه أحد الدبلوماسيين إلى جواتيمالا.

(رويو)، الذي لم يكن قد التقى جيفارا من قبل، قال شيئاً جعل (تشي) يغيّر رأيه.

عندما أبلغ آرنستو رويو نيّته المتابعة إلى كاركاس، كي يلتقي بي ويؤمن عملاً ما، قال له (رويو): "ولكن كيف يمكنك الذهاب إلى فنزويلا يا جيفارا؟ إنها بلد لا تستأهل الذهاب إليها إلاّ إذا كنت تلهث وراء الدولارات. تعال معي إلى جوايتمالا، فثمة ثورة اجتماعية حقيقة تحدث هناك".

بناء على تلك الخطة، تلقيت رسالة من آرنستو كتب فيها: "يا صديقي، إنني راحل إلى جواتيمالا سوف أكتب إليك".

علمت بخبر انتصار الثورة الكوبية خلال زيارة لمنزل جيفارا. كان الحادي والثلاثين من كانون الأول، وكان من بين الضيوف على العشاء الذي دعت إليه والدة آرنستو (دونا سيليا) شخص يدعى (جورج ريكاردو ماسيتي) هو الذي جاء بالخبر.

ردّاً على رسالة منّي، كتب (تشي) الآتي:

الإدارة العسكرية في لاكابانا

لا هابانا، 11 آذار 1959

ميال،

رغم أني كنت أتوقعها، فقد كانت رسالتك كالبلسم الشافي لي. أنا لم أكتب إليك حتى الآن من بلدي الجديد هنا، لأنني كنت قد خططت للذهاب إلى فنزويلا مع (فيدل). ثمة أحداث أخرى منعتني من فعل ذلك. كنت أنوي الذهاب بعد ذلك بفترة قصيرة، لكنني مريض وطريح الفراش. آمل أن أذهب في غضون شهر تقريباً.

كنت في فكري إلى الحدّ الذي عندما دُعيت إلى فنزويلا طلبت إجازة يومين كي أقضيها معك. آمل أن تتحقق هذه الأمنية في القريب العاجل.

لن أردّ على الفلسفة الرخيصة في رسالتك لأن هذا يتطلب الجلوس لتناول عدة كؤوس من المتة وبعضاً من فطائر اللحم تحت ظل شجرة وارفة. حينئذ يمكننا التحدث.

أهديك أحرّ العناقات التي يسمح لك وقارك الرجولي بتلقّيها من شخص آخر.

تشي

قبل مغادرة كوبا آخر مرة، أرسل (تشي) لي كتاباً كتب عليه الإهداء التالي:

هافانا، عام الزراعة

آلبرتو،

لا أدري ما الذي أتركه لك تذكاراً، لذا سألزمك أن تكرس نفسك لاقتصاد السكر[1]. منزلي المتنقل سيكون فوق قدمي من جديد، فأحلامي لا تعرف الحدود، على الأقل إلى أن يقرر الرصاص خلاف ذلك.

سأتوقعك يا كثير الجلوس عندما تخمد رائحة البارود. عناقي لكم جميعاً (بما في ذلك توماس).

تشي.

---

(1) كتب الإهداء جيفارا في الصفحة الأولى لكتاب عن صناعة قصب السكر في كوبا، وأرسله إلى المؤلف في آذار عام 1965 عشية رحيل (تشي) إلى الكونجو.

التسلسل الزمني للأحداث

1922

8 آب: هيرناندو، مقاطعة قرطبة، الأرجنتين.

ولد (آلبرتو جرانادو جيمينيز) لأبٍ هو (ديونيسيو تي جرانادو) ويعمل كاتباً مستخدماً في السكك الحديدية الأرجنتينية. وأمٌ هي (آديلينا جيمينيز روميرو). آلبرتو هو الأول بين ثلاثة أولاد.

1928

14 حزيران: روزاريو، مقاطعة سانتافي، الأرجنتين.

ولد (آرنستو جيفارا دي لاسيرنا) لأبٍ هو (آرنستو جيفارا لينش) وأمٌ هي (سيليا دي لاسيرنا)، وكلاهما من العائلات المؤسسة المرموقة، وهما سياسياً من الراديكاليين الناشطين، (آرنستو) هو الأول بين خمسة أولاد.

1930

آرنستو يعاني بداية مرض الربو، وقد لازمه هذا مدى الحياة.

6 أيلول: الجنرال (يوريبورو) ينقلب على الحكومة الوطنية الشعبية لـ(هيبوليتو إيرجوين)، ويُنصح والد آرنستو، الذي كان مناضلاً نقابياً،

بالرحيل عن المنطقة، تنتقل العائلة إلى فيلا (كونستيتيويون) في مقاطعة (سانتا في).

1931

تعاني والدة آرنستو من اعتلال في صحتها ويرسلون (آلبرتو) للعيش في كنف جده بقرطبة حيث يكمل دراسته.

1934

لأجل صحة آرنستو، تنتقل أسرة جيفارا للعيش في (آلتا جراسيا) بمقاطعة قرطبة الشهيرة بهوائها الجبلي.

1936

يبدأ ألبرتو دراسته لنيل الثانوية في الكلية الوطنية.

1940

يداوم آلبرتو في جامعة قرطبة حيث يدرس الكيمياء والكيمياء البيولوجية.

1942 – 1941

تنتقل عائلة جيفارا إلى مدينة قرطبة عاصمة المقاطعة. ويبدأ آرنستو دراسته لنيل الثانوية في الكلية الوطنية. آرنستو وآلبرتو يلتقيان. رغم نوبات المرض يثبت آرنستو أنه طالب مجتهد ومولع بالرياضة. كذلك يستفيد من المكتبة الضخمة التي تمتلكها عائلته، فيقرأ بشكل واسع في الأدب والفلسفة والسياسة. ينهمك كثيراً في النشاطات السياسية للعائلة.

1943

يُسجن جرانادو لاشتراكه في حركة سياسية ضدّ دكتاتورية الجنرال (خوان بيرون)، ويُفرج عنه في العام التالي.

1951 – 1945

تنتقل عائلة جيفارا للعيش في (بوينس آيريس). يسجل آرنستو في المعهد الطبي بجامعة بوينس آيريس. إلى جانب دراسته، يعمل متطوعاً في معهد لأبحاث الحساسية. يذهب في رحلات طويلة على الدراجة الهوائية خلال عطلات الشتاء (ما بين حزيران وأيلول) حول شمال غرب الأرجنتين، ما مسافته تزيد عن ألفين وتسعمائة ميل. كانت الدراجة مهمة بالنسبة له لتربية إرادته واكتشاف المشهد بمقياس إنساني. عام 1950 يعمل كبحار على متن سفينة بخارية ويسافر إلى (بانما) والهندوراس وهاييتي.

1946

ينال جرانادو درجة الماجستير في العلوم الكيميائية من جامعة قرطبة. يفوز بمركز مساعد طبّي لرئيس قسم علم الأوبئة والصحة.

1951 – 1947

29 كانون الأول: ينطلق جرانادو وجيفارا على دراجة نارية لزيارة بعض بلدان ساحل المحيط الهادي. كل منهما يكتب مذكراته.

1952

ما بين كانون الثاني وحزيران: في البيرو يمكثان في مستعمرة الجذام لسان بابلو، ثم يتابعان السفر في الأمازون نحو كولومبيا. في (بوجوتا) يتم احتجازهما واستجوابها من قبل القوى الأمنية للدكتاتور (لوريانو جوميز)، يغادران كي لا يتعرضا للمزيد من المتاعب.

تموز: يصلان (كاركاس) في فنزويلا. ويتدبّر (جيفارا) توصيلة إلى (بوينس آيريس) عن طريق ميامي على متن طائرة نقل. في ميامي يتعرقل لمدة شهر نتيجة شحّ المال ويختبر الولايات المتحدة الأميريكية

لأول مرة. يبقى (جرانادو) في فنزويلا ويعمل في مختبر مصحة كابو بلانكو للجذام في (مايكويتيا).

10 آذار: الرجل العسكري القوي (فولجنسيو باتيستا) ينجح في انقلاب يميني في كوبا.

1953

آذار: يتخرج جيفارا من كلية الطب.

لعل الربو الذي كان يعاني منه هو الذي جعله يختار أطروحة تخرجه في الأمراض التحسسية. استدعي للخدمة الوطنية وثبت عدم صلاحيته للخدمة الميدانية.

26 تموز: (فيدل كاسترو) يتزعم المتمردين ضدّ (باتسيتا).

هجومهم على حامية (مونكادا) في سانتيا جو دي كوبا يفشل، ويتكبدون خسائر كبيرة، كاسترو ومن نجا معه يقُبض عليهم فيما بعد ويودعون السجن.

تموز: بدء رحلة جيفارا الثانية عبر أمريكا اللاتينية. بصحبة (كالشيا فيرير)، يركب جيفارا القطار من بوينس آيريس إلى لاباز في رحلة الأربعة آلاف ميل.

كانون الأول: يصل جيفارا إلى جواتيمالا، حيث يقود الرئيس (جاكوبو آربنز) الحكومة اليسارية المنتخبة في بلاده.

1954

كانون الثاني – حزيران: لعدم تمكنه من الحصول على عمل طبي، يتخذ (جيفارا) عملاً آخر. يدرس الماركسية وينشط في السياسة ثم يلتقي ثواراً كوبيين في منفاهم.

حزيران: قوات المرتزقة، تدعمها الاستخبارات المركزية الأميريكية، تقوم بغزو مدينة جواتيمالا، ويتطوع جيفارا للقتال، الرئيس (آربنز) يرفض تسليح الشعب ويستقيل.

أيلول: يفّر (جيفارا) من جواتيمالا ويصل إلى مدينة مكسيكو حيث يعمل كطبيب في المشفى المركزي. يكتب باكورة مقالاته السياسية، بعنوان: "رأيت سقوط جاكوب آربنز".

1955

تموز: يصل فيدل كاسترو إلى المكسيك بعد أن أُفرج عنه نتيجة للضغط الشعبي.

تموز – آب: جيفارا يلتقي كاسترو، ويُثّبت على أنه العضو الثالث في الحملة الثورية المستقبلية، ومن ثم يبدأ تدريب المجندين. (جيفارا) يصبح معروفاً باسم "تشي".

18 آب: جيفارا يتزوج من عالمة الاقتصاد البيروفية (هيلدا جاديا).

يحصل جرانادو على بعثة تخصصية إلى المعهد العالي للصحة بروما في إيطاليا. خلال إقامته في أوروبا، يزور إسبانيا وفرنسا وسويسرا. لدى عودته يتزوج من ديليا ماريا دوكويه دوكويه).

1956

24 حزيران: يُعتقل جيفارا وكاسترو من قبل السلطات المكسيكية ومعهم ثمانية وعشرون مجنداً كوبياً.

25 تشرين الثاني: بعد إطلاق سراحهم يغادر جيفارا وكاسترو ومعهم ثمانون رجلاً المكسيك باتجاه كوبا على متن اليخت (جرانما).

2 كانون الأول: ينزلون إلى البر في (بيليك) ويفاجؤون بجنود (باتيستا) في (آليجيريا دي بيو). سبعة عشر شخصاً ممن نزلوا فقط يعيدون تجميع أنفسهم.

1957

17 كانون الثاني: هجوم على (لابلاتا). أول انتصار لجيش المتمردين. رغم كونه الطبيب الرسمي لقوات التمرّد، يشارك (جيفارا) في القتال.

ما بين شهري كانون الثاني وأيار ينتصر جيش المتمردين بمعارك في (آرويو ديل إنفيرنو) و(بالما موكو) و(إيل أوفيرو).

5 حزيران: يعيّن جيفارا قائداً للرتل الرابع لإخفاء حقيقة عدم وجود سوى رتلين، الأول بإمرة فيدل كاسترو بنفسه.

1958

تموز: المتمردون ينتصرون في معركة (إيل جيكويه) ويكون نصراً حاسماً.

كانون الأول: قوات المتمردين تسيطر الآن على نصف كوبا.

جيفارا ورجاله ينتصرون في معركة (سانتا كلارا) في الحادي والثلاثين من كانون الأول.

بعد طرد الدكتاتور الفنزويلي (بيريز جيمينيز)، يتولى جيفارا مسؤولية إعادة تنظيم معهد التحليل البيولوجي في جامعة كاراكاس حيث يستمر في العمل حتى عام 1961.

31 كانون الأول: جرانادو يزور الأرجنتين مع عائلته.

أثناء العشاء في بوينس آيريس مع والدة جيفارا يسمعون خبر انتصار الثورة الكوبية.

1959

1 كانون الثاني: الرئيس (باتيستا) يفرّ من كوبا.

2 كانون الثاني: رتل جيفارا يدخل هافانا ويحتل حصن (لاكابانا).

8 كانون الثاني: يصل (فيدل كاسترو) إلى هافانا بعد جولة انتصار دامت أسبوعاً في أرجاء الجزيرة.

9 شباط: إعلان جيفارا مواطناً كوبياً عرفاناً لمشاركته في تحرير كوبا.

16 شباط: كاسترو يصبح رئيساً للوزراء. ينطلق هو وجيفارا إلى برنامج مكثف من الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية.

2 حزيران: طلاق ودّي بين جيفارا وهيلدا، ومن ثم زواج الأول من (آليدا مارش) التي كانت مساعدته لعدة أشهر.

حزيران – أيلول: كممثل عن الحكومة، يقوم جيفارا بجولة طويلة في أوروبا وأفريقيا وآسيا.

7 تشرين الأول: تعيين (جيفارا) مسؤولاً عن الإصلاح الزراعي.

26 تشرين الثاني: تعيين (جيفارا) حاكماً للمصرف الوطني الكوبي، وتسليمه المسؤولية المالية الكاملة للبلاد. بعد ذلك التاريخ يبدأ دراسته العليا في الرياضيات.

1960

17 آذار: بأوامر من الرئيس آيزنهاور، تشرع الاستخبارات المركزية الأميريكية في تدريب متطوعين من المنفيين الكوبيين تمهيداً لغزو كوبا.

8 أيار: يعترف الاتحاد السوفييتي بحكومة كوبا الثورية.

حزيران – كانون الأول: تأميم مصافي النفط في كوبا. ردّاً على ذلك يقوم آيزنهاور بتخفيض حجم تجارة السكر مع كوبا. يقوم الاتحاد السوفييتي بشراء الفائض. تدهور العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة. تأميم شركات أميريكية كبرى ومصارف ذات ملكية أجنبية وشركات قطاع خاص كوبية. جيفارا يزور جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وتشيكوسلوفاكية والاتحاد السوفيتي والصين وجمهورية كوريا الديمقراطية.

جرانادو يسافر إلى كوبا بدعوة من جيفارا ولأول مرة.

1961

كانون الثاني – شباط: انهيار العلاقات الكامل بين كوبا والولايات المتحدة.

23 شباط: تعيين جيفارا وزيراً للصناعة.

آذار: ينتقل جرانادو إلى كوبا مع عائلته، ويعمل أستاذاً للكيمياء العضوية في المعهد الطبي لجامعة هافانا.

15 نيسان: طائرات أميريكية تهاجم هافانا وسانتياجو دي كوبا.

16 نيسان: كاسترو يعلن التزام ثورته النهج الاشتراكي.

17 نيسان: قيام ألف وخمسمئة من الثوار المعادين، وبدعم أمريكي رسمي كامل، بغزو كوبا في خليج الخنازير (بلايا جيرون)، جيفارا يتولى قيادة الجنود في مقاطعة (بينار ديل ريو)

19 نيسان: استسلام آخر الثوار المعادين في خليج الخنازير.

8 آب: جيفارا يتحدث أمام المؤتمر الاقتصادي الاجتماعي الأمريكي المشترك لمنظمة الدول الأميريكية في (بوتاديل إيستيه) بـ الأوروغواي، ويشجب التحالف الأمريكي من أجل التقدم. الأهل والأصدقاء يأتون من (بوينس آيريس) للقاء معه. يتسلل عبر الحدود لاجتماع سرّي في بوينس آيريس مع الرئيس (آرتورو فروندیزي)، والذي ينتهي بإزاحة هذا الأخير من قبل العسكر.

كانون الأول: كوبا تستكمل حملة وطنية شاملة لمحو الأمية، ويتم طبع كتاب جيفارا (حرب العصابات – المنهج).

جرانادو أحد مؤسسي معهد العلوم الأساسية وما قبل السريرية.

1962

كانون الثاني: منظمة الدول الأميريكية تصوّت على طرد كوبا من عضويتها.

شباط: الرئيس كينيدي يفرض حظراً شاملاً على التجارة مع كوبا.

كوبا تنشر البيان الثاني لهافانا مؤكدة دعم كوبا للنضال الثوري في كل أرجاء الدول الأميريكية.

27 آب – 7 أيلول: يقوم جيفارا بزيارة ثانية إلى الاتحاد السوفييتي على رأس وفد اقتصادي.

تشرين الأول: أزمة الصواريخ الكوبية — جيفارا يحتل موقعه القتالي آمراً لمقاطعة (بينار ديل ريو).

(نيكيتا خروتشيف) يوافق على سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا مقابل تعهد أمريكي بعدم غزو الأخيرة.

جرانادو ومجموعة من الزملاء يؤسسون كلية الطب الثانية في جامعة سانتياجو.

1963

كانون الثاني: والدة جيفارا تصل إلى هافانا لزيارة ولدها، الذي تقوم بجولة معه في الجزيرة.

تموز: جيفارا يسافر إلى الجزائر ممثلاً عن الحكومة الثورية في مراسم الاحتفال بالذكرى الأولى لاستقلال الجزائر.

كانون الأول: جيفارا يلقي كلمة الختام لأسبوع التضامن مع جنوب فييتنام.

1964

آذار: جيفارا يذهب إلى جنيف بسويسرا، كرئيس للوفد الكوبي إلى مؤتمر الأمم المتحدة حول التجارة والتطوير، وبعد ذلك يخاطب المؤتمر في دورة الانعقاد الكاملة.

4 — 19 تشرين الثاني: جيفارا يحضر الاحتفالات بالذكرى السابعة والأربعين لثورة أكتوبر في الاتحاد السوفييتي، ويلتقي الزعيم الفييتنامي (هوشيمنه).

11 كانون الأول: كرئيس للوفد الكوبي، جيفارا يخاطب الاجتماع التاسع عشر للجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك.

17 كانون الأول: جيفارا يغادر نيويورك إلى أفريقيا حيث يمضي ثلاثة أشهر. يزور الجزائر ومالي وداهومي، والكونجو وغانا وتنزانيا ومصر قبل العودة إلى كوبا في آذار عام 1965.

1965

1 نيسان: جيفارا يغادر كوبا ليرأس مهمة دولية في الكونجو، تاركاً رسالة استقالته مع فيدل كاسترو.

كانون الأول: جيفارا يعود إلى كوبا سرّاً.

1966

تموز: مقاطعة بينار ديل ريو — جيفارا يختار الكتيبة الكوبية الدولية لمهمة في بوليفيا.

7 تشرين الثاني: جيفارا يصل إلى موقع معسكره في بوليفيا مع سبعة عشر رجلاً كوبياً، وعدّة جنود بوليفيين.

1967

23 آذار: أول عمل فدائي ناجح ضدّ الجيش البوليفي.

16 نيسان: رسالة جيفارا إلى مؤتمر القارات الثلاث لدعم شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، والذي عُقد في هافانا، ويطالب فيها جيفارا بفييتنام ثانية، وثالثة بل بفييتنام في كل الدول."

آيار – تشرين الأول: قوات ضخمة من الجيش البوليفي، مع مرشدين أميريكيين، تُطبق على فدائيي جيفارا، وتكبده فيها خسائر كبيرة.

8 تشرين الأول: إصابة جيفارا والقبض عليه من قبل القوات الحكومية.

9 تشرين الأول: إعدام جيفارا في قرية (لا هيجويرا).

15 تشرين الأول: كاسترو يؤكد نبأ موت جيفارا ويعلن حداداً رسمياً في كوبا لمدة ثلاثة أيام.

16 كانون الأول: يُنقل جرانادو إلى هافانا، حيث كان أحد مؤسسي المركز الصحي الوطني للزراعة وإكثار المواشي، ويصبح مديراً لقسم علم الوراثة.

1974 – 1970

يجري جرانادو بحوثاً علمية، ومحاضرات في كوبا وفي الخارج ويعيّن كبير الأساتذة.

1986 – 1975

ينال جرانادو درجة الدكتوراه في العلوم البيولوجية. إنه منهمك بالتأكيد في تطوير سلالات أبقار هولستن الاستوائية. ويحضر المؤتمر العالمي حول علم الوراثة في موسكو، ومؤتمراً في لينغراد حول تعدّد الأشكال.

1990 – 1986

يشارك جرانادو في تأسيس وتنظيم الجمعية الكوبية لعلم الجينات، ويعيّن رئيساً لها.

1994 – 1991

يكرس جرانادو نفسه لتثبيت أبحاثه وإدراجها في علم المناهج بكبرى الجامعات في إسبانيا وفنزويلا. يتقاعد عام 1994

1997

إخراج رُفات جيفارا وبعض رفاقه في السلاح عند مهبط للطائرات في (فاليجراند) ببوليفيا وإعادتها إلى كوبا.

12 تموز: يتم دفن جيفارا ورفاقه باستعراض عسكري شرفي بمدينة سانتا كلارا في مقاطعة (لاس فيلاس)، حيث انتصر جيفارا في معركة حاسمة للثورة الكوبية. ينضّم جرانادو إلى حملة التضامن مع كوبا ونشر أفكار جيفارا في كوبا والخارج.

2003 – 2002

يعمل جرانادو كمرشد لـ (ولترسال) مخرج فيلم (يوميات دراجة نارية) الذي يرتكز على روايته ورواية جيفارا لسير الرحلة وذلك في مواقع التصوير بالأرجنتين وتشيلي والبيرو.

فهرس الكتاب

استهلال 7

إشارة 13

مسار الرحلة 15

مقدمة المترجم 19

ديباجة المؤلف 25

مقدمة المؤلف 31

نص الرحلة

سهل رانكوبليس الفسيح 41

الآلة الأمثل للاستغلال 59

في (آروكانيا) 67

المزيد من الكوارث: متطوّعوا الإطفاء 75

وداع الـ(بوديروسا 2): من سائقي دراجة إلى هاربين في سفينة 85

أحد وجهي العملة، مناجم اليانكي للنحاس 95

الأرض التي ناضل فيها (لافيرته) 107

في أرض الـ(إنكا) 115

أخيرا في (ماتشو بيتشو) 127

إلى مشفى الجذام في (هوامبو) 139

نحو الغابة الاستوائية البيروفية 155

آرنستو لا يستطيع أن يكذب 167

الأمازون و أهله 175
في الطريق إلى مشفى الجذام في "سان بابلو" 189
العِلْم في الغابة 193
عيد ميلاد غير اعتيادي 203
حفلة وداع لا تنسى 213
من مختصّين في الجذام إلى لاعبيّ كرة قدم 223
بوجوتا – مدينة تحت الحصار 231
في أرض "بوليفار" 249
جمعٌ عائلي 257
خاتمـــة 261
التسلسل الزمني للأحداث 265

TRAVELLING WITH CHE GUEVARA
THE MAKING OF A REVOLUTIONARY

جائزة ابن بطوطة 2012-2013

هذه يوميات رحالة من طراز خاص، إنه الطبيب ألبرتو غرانادو رفيق الطبيب الثائر تشي غيفارا في رحلتهما على الموتوسيكل في مطلع الخمسينات عبر أميركا اللاتينية إثر تخرجهما من كلية الطب في بوينس آيرس. لقد سبق لنا أن قرأنا أخبار هذه الرحلة من خلال يوميات تشي غيفارا، والآن نعود إلى الرحلة نفسها ولكن هذه المرة من خلال أوراق ويوميات رفيقه البرتو الذي يكشف لنا، بلغة بسيطة وبارعة عن جوانب لا قبل لأحد آخر غير هذا الصديق أن يكشفها.

نتعرف في هذه الصفحات على تشي غيفارا الشاب الرومانطيقي الثوري المغامر. وكان "جيفارا" شابا يغمره حسّ الدعابة، ويستطيع اختلاق الحيل في المواقف لحرجة أو عند الضرورة. ولن يخفى على القارىء أن يكتشف من خلال هذه اليوميات الوعي المبكر لدى جيفارا وصديقه لمشكلات وطنهما والقارة اللاتينية، ومايجري في العالم. وميزة هذا الوعي هو تَجذُّره ورسوخه ورصانته وبعده عن الطفولية والمراهقة السياسية؛ لأنه صادر عن رؤيا إنسانية عميقة ورائعة في انفتاحها على الحياة والبشر.

كتاب ممتع يقدم للقارىء العربي، وللمرة الأولى صورة غير معروفة عن الثائر الأممي الشهير. وقد قدم له الكاتب السوري نعمان حموي ترجمة غاية في الدقة صبها في لغة لا تغيب عنها السلاسة. وقد استحق عنها جائزة ابن بطوطة-الرحلة المترجمة. ◆

ISBN 978-614-419-270-2
9 786144 192702

ارتياد الآفاق
Irtyad Al-Afaaq
المركز العربي للأدب الجغرافي

مملكة البحرين Kingdom of Bahrain
وزارة الثقافة Ministry of Culture

المؤسسة العربية للدراسات والنشر